راشد الغنوشي



راشد الغنوشي

محاور إسلامية

تقديم

محمد الهاشمي الحامدي

طبعة ١٩٨٩



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

ملامح التميز فى تفكير الغنوشى
والتجربة الاسلامية فى تونس

بعد سنتين فقط، يكون قد مر على تاريخ تأسيس حركة الاخوان المسلمين على يد الامام الشهيد حسن البنا ستون سنة كاملة.

وفى ذلك التاريخ ١٩٢٨، كانت طموحات البنا واخونه جزء من الهموم العامة للامة الاسلامية بعد سقوط الخلافة فى اسطمبول وتفكك اوصال الامبراطورية العثمانية تحت وطأة الهجمات الاستعمارية وتبلور ملامح المشروع الصهيونى البريطانى لاقتطاع فلسطين وتحويلها وطنا ليهود العالم.

وخلال العشريتين التاليتين لتاريخ التأسيس استطاع الامام الشهيد ان ينخرط بالحركة الاسلامية فى صلب هذه الهموم ويجعلها فى طليعة الناهضين باعباء الجهاد من اجل انجاز مهمة التحرر الوطنى وافشال المشروع الصهيونى فى فلسطين، كما وقف البنا بحزم ضد التصورات العلمانية وحارب الدعوات الاقليمية التى تنادى بها الليبراليون من كل مكان، وزرع بذرة العمل الاسلامى الرسالى المجاهد فى اكثر من قطر عربى، محاولة منه للابقاء على معنى الوحدة الاسلامية ماثلا فى اذهان الجماهير المسلمة.

والحقيقة ان الاسلام كان فى تلك المرحلة محورا رئيسيا قامت عليه كل معارك التحرر الوطنى فى مشرق العالم الاسلامى ومغربه، وكانت نداءات التكبير راية الجهاد وشعاره، وآيات القرآن مادة التحريض الخطابى والدعاية السياسية، وكانت المفاهيم الاسلامية جزءا لا يتجزأ من البرنامج السياسى لعامة الاحزاب العربية المناهضة للاستعمار.

وكان يبدو ان كل شىء يمضى فى الاتجاه الصحيح الى حين استشهاد الامام البنا فى اواخر الاربعينات وتولى الضباط الاحرار السلطة فى مصر سنة ١٩٥٢. لقد بدأت النتائج تبرز تباعا، ومع كل مرحلة من مراحل تجليها بدأ يبرز للاسلاميين مبلغ مأساويتها ومناقضتها لكل الحسابات والتوقعات.

لقد احيط بكل الاحزاب والتوجهات الاسلامية فى كل البلاد التى خرج منها الاستعمار مشرقا ومغربا، فشل حزب الاستقلال فى المغرب فى قيادة الدولة نحو الاسلام، وانتهت ثورة المليون شهيد الى ميثاق وطنى كاد لا يذكر كلمة الاسلام مرة واحدة وفى تونس انجز الحكام الجدد ما لم يجرؤ عليه الاستعمار فاغلقوا الجامعة الزيتونية وحاربوا الحجاب واستقبلوا الغرب الرأسمالى فكرة ومنهاجا.

وفى المشرق تعددت الانقلابات العسكرية وتباينت سياسات القائمين بها الا فى مسألة واحدة، مسألة الالتفاف على التوجه الاسلامى ومحاصرة دعاته والاساءة الى دين الشعب وثقافته وهويته التاريخية بكل الوسائل والامكانيات المتاحة.

كانت محاكمات الاخوان المسلمين فى مصر ابرز وجه فيما يبدو لهذه السياسة ـ فقد نكل الاخ المسلم القديم جمال عبد الناصر بقيادة الحركة الاسلامية بفظاعة لا تتصور وبهمجية لا تشبهها الا ممارسات شاه ايران وسوموزا ومنفذى جرائم حماة وتل الزعتر وصبرا وشاتيلا ومن سار على نهجهم من طغاة هذا القرن.

لقد كانت الاحزان فوق طاقة الاحتمال، وكان المشروع الصهيونى يتوسع يوما بعد يوم، وكان حلم الوحدة العربية يستحيل بمرور الزمن الى سراب خادع، وكانت الوعود الكبيرة بالتحرر السياسى والاجتماعى تسقط واحدا بعد الآخر امام ما تكرس من اوضاع التبعية والانحلال والتفاوت الاجتماعى.

ولقد حال ذلك كله فيما يبدو بين الاسلاميين وبين الاجابة عن السؤال المروع: كيف حصل هذا ولماذا؟.

وراجت كتب المحن والسجون بين الشباب المسلم تعمق احزانه وتملؤه بحقد يائس عميق، وتعزله بعد ذلك كله عن التكفير بعقلانية وواقعية تامة فى وضعه الراهن ومستقبله. وفى هذا الجو المأساوى الحزين، حوصرت الاشارات النقدية المحتشمة التى بدأ يجهر بها الشيخ محمد الغزالى ومحمد فتحى عثمان وقلة اخرون، وجمد اغلب الاسلاميين على نصوص الدعوة فى الاربعينات يدرسونها فى كل مراحل التنظيم وينعزلون بها ـ للاسف ـ عن المشكلات الجديدة للواقع الراهن الجديد فى بعض وجوهه هو ايضا ـ ربما كانت مجلة المسلم المعاصر هى المحاولة الأولى للتساؤل عن اسباب ما حدث، ولتحسيس التيار الاسلامى بحقيقة التحدى المطروح عليه الآن: ما العمل لتجاوز اخطاء الماضى، كيف يكون الاسلام دليل عمل لاهله فى النصف الثانى من القرن العشرين؟. كيف ننخرط بالاسلام فى هموم عصرنا وجيلنا تحديدا، ثم كيف نحول الهدف والحماس الى ممارسة ايجابية بناءة تتقدم بالواقع على درب الاسلام، بما هو نقد واضافة واسهام وليس محاولة لاستحضار صور تاريخية ماضية قد نتوهم ان علاج مشكلاتنا الراهنة معلق بها؟

هكذا يصور محى الدين عطية آماله التى يعلقها على مجلة المسلم المعاصر فى ذلك الوقت فيقول فى عددها الاول «انا اريد هذه المجلة واضحة الاهداف محددة المنهج.. واريدها مجلة متخصصة ليست لكل الناس.. فهى مجلة اسلامية، وليست لكل المسلمين.. فهى مجلة التحرك الاسلامى الرائد فى كل مكان.. وليست لكل من يحمل بطاقة انتماء لحركة أو جمعية أو حزب اسلامى.. فهى تخدم فئة واحدة من بين هؤلاء جميعا. فئة الباحثين عن الحقائق، لا يعميهم تعصب لانتماء معين.. فئة الدارسين لاحداثهم واحداث جماعاتهم ماضيها وحاضرها ومستقبلها.. دراسة موضوعية.. لا هرقطة غوغائية..

فئة الناقدين للمناهج، بحثا عن المنهج الذى يواجه صواريخ العصر الموجهة، فئة

الباحثين عن استراتيجية تظلل العمل الاسلامى وتخطط له. . رسالة هذه المجلة عندى ان تجمع العقول وان تتيح لها الحوار فى ندوة ممتدة فى الزمان والمكان.

وليست مهمتها ان تفكر نيابة عن الآخرين، فلن ينفع الدائرين فى دوامة النشاط الاسلامى بغير وعى أو تخطيط ان يفكر لهم احد سواهم. .

ورسالة هذه المجلة كما ارى، ان تستنبت الافكار عند هؤلاء جميعا، وان تمهد لها التربة، وان تيسر لها روافد الرى الدائم، وان تضمن لها نسمة الهواء وشعاع الشمس، حتى تورق وتشرف على الاثمار.

واتوقع لها العقبات والنكبات. . لكن من يدرى؟ فقد يأتى اليوم الذى يطلبها فيه مئات الآلاف، ويستضىء بفكرها بضعة ملايين، من الذين وضعوا ارواحهم على اكفهم، وحملوا اكفانهم على كواهلهم، وما اقعدهم الا افلاس فى الفكر وعقم فى التخطيط.

من الذين اتخمتهم الكتب الاسلامية، والصحافة الاسلامية بما يعرفونه وما يحفظون، وما زال السؤال على شفاههم اجل نعلم ذلك ونؤمن به. . ولكن كيف السبيل؟»

وبدأ عدد المتسائلين يكبر بعد ذلك شيئا فشيئا وانبرى السؤال القلق يحاصر آلاف المطمئنين الى ان الامور كلها تسير سيرا حسنا، واولئك الذين لم يجلسوا مرة واحدة ليقوّموا ما حصل، رغم ضخامة ما حصل وفظاعته. . وفى هذا السياق برزت اقلام على صفحات المسلم المعاصر وانتشرت كتابات العلامة الشهيد محمد باقر الصدر وبرز الدكتور حسن الترابى فى السودان، وتتالت مساءلات الدكتور محمد فتحى عثمان، وظهرت فكرة اليسار الاسلامى تترنح بين البقاء فى الدائرة الاسلامية وبين تجاوزها نهائيا، ثم انتعشت الاقلام العلمانية الطامعة فى نسب وصلة بالفكر الاسلامى لتقدم الدروس هى الاخرى فى النهضة والتجديد والاجتهاد.

ومن الواضح ان المعركة لم تنته بعد وان الغبار، الكثيف الذى يلفها فى بعض الاحيان ما زال يحول دون تمحيص الحق من الباطل، وتجاوز التساؤل الى وضع الاجابات او مشاريع الاجابات.

لكن التدافع الايجابى الذى حصل طيلة هذه المرحلة بدأ يبلور خطوط التقاء بين عدد من الاشخاص والافكار، وبدأ يمهد لبروز مدرسة اسلامية جديدة متميزة فى غير انقطاع عن جهود السلف المؤسس للحركة والمحدد لرسالتها.

وكان انتصار الثورة الاسلامية فى ايران حدثا تاريخيا عظيما انقذ اجيال الاسلاميين من الركون الى احزانهم ومآسيهم، فقد تأكد اخيرا ان الاسلام قادر على الانتصار وتحطيم اعتى عروش العلمانية، حتى ولو كانت محمية من طرف النظام الشاهنشاهى المباد فى طهران.

لم تكن الاغلبية الساحقة من الاسلاميين تعرف شيئا كثيرا عن ايران والاسلام فيها، لقد يئسوا منها كما فعلوا ذلك مع تركيا سابقا، وحتى قبل ستة اشهر من انتصار الثورة لم يكونوا كثيرى العناية بها عدا الاسلاميين فى تونس حيث تابعت مجلتهم «المعرفة» اطوار الثورة بتحفز وامل وانتباه.

وفوجئت الاكثرية ـ مثل العالم كله تقريبا ـ بانتصار الثورة، وهيمنة الاسس الاسلامية على تفكير قياداتها وجماهيرها وصمودها العقائدى العجيب امام محاولات التمييع فى الداخل وجهود الاستكبار الدولى لمحاصرتها من الخارج.

وبقطع النظر عما قد يكون ارتكب من اخطاء فى المراحل التالية، وهو امر طبيعى جدا لاى ثورة، فان نجاح الاسلام فى ايران كان نعمة الاهية عظيمة لجيل مهموم شبه يائس، استظل بحديث رسول الله (ص) «بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء» ليبرر يتمه وضياعه واغترابه عن المهمات الحقيقية لامتنا وعن التصور الاسلامى الرحب الايجابى والبناء الذى ينخرط بدعاته فى اعمق اعماق المعركة الدائرة، فى مستوياتها المعرفية والفلسفية والاجتماعية والثقافية والسياسية.

وتنامت الحركة النقدية وبرزت المراكز المتخصصة واسس الشهيد اسماعيل الفاروق فى امريكا مع جمع من اخوانه مؤسسة المعهد العالمى للفكر الاسلامى لانجاز مهمة كبرى هى اسلمة المعرفة، وبرزت مجلات اسلامية اخرى تعمل فى نفس الاتجاه، وتبلورت خصوصيات اخرى اكثر تميزا لحركة الاسلام فى السودان من خلال الاسهامات الجدية المتتالية للدكتور حسن الترابى وبدا واضحا هذه المرة ان العجلة تتحرك فعلا الى الامام، ولا تدور فى مكانها كما خيل الينا فى وقت من الاوقات، او كما كان الامر فعلا.

فى خضم هذه المعارك الاستراتيجية المحددة لمستقبل المشروع الاسلامى كان المغرب الاسلامى يشهد نمو تجربة متفردة ومتميزة للعمل الاسلامى، تجربة تحول هم تجديد الاسلام وبلورة المشروع الاسلامى المعاصر من هم نخبوى محدود الى برنامج حركة واسعة ممتدة دون ان يعود ذلك بالسلب على طبيعة المهمة المطلوب انجازها مهمة بلورة معالجة اسلامية تنخرط باصحابها فى لحظتهم التاريخية الراهنة وتقيم المعادلة الصائبة بين النظرية والممارسة، وتقطع مع كل اتجاهات العزلة والاغتراب داخل المدرسة الاسلامية، فانما جاء الاسلام ليبنى ويعمر وييسر للبشر استكمال خصائص انسانيتهم بالمفهوم القرآنى للكلمة.

وهكذا هو المغرب الاسلامى دائما فيما يبدو، لا يبرز دوره مع المشارقة بكثير جلبة وضجة وانما بالنوعية المتفردة الممتازة فى مختلف المجالات، هكذا كان ابن حزم والشاطبى وسحنون والطاهر بن عاشور فى الفقه والتفسير والاصول والعلوم الاسلامية وابن خلدون فى فلسفة التاريخ والاجتماع والحصرى وابن خفاجة وابن زيدون والشابى فى الشعر، وابن تاشفين وابن توصرت، وعبد الكريم الخطابى وعبد القادر الجزائرى فى المجاهدات السياسية لتثبيت وحدة دار الاسلام وعزتها.

وهكذا ايضا وفى نفس السياق، تندرج التجربة الاسلامية الفتية والمتميزة فى نقطة اللقاء التاريخى بين المشرق والمغرب: افريقية سابقا، تونس حاليا...

****

عندما عاد الاستاذ راشد الغنوشى الى تونس فى أواخر الستينات حاملا شهادته الجامعية فى الفلسفة من سوريا، وبعض الذكريات والملاحظات من مشاهداته فى باريس حيث اقام

نحو عام تقريبا، كانت تونس قد انقطعت أو تكاد عن كل معالم اسلاميتها.

فقد استطاع الحكم القائم فيها منذ ١٩٥٦ ان ينجز الكثير على درب العلمنة واللحاق بالنموذج الغربى فى الضفة الاخرى للبحر الابيض المتوسط.

اغلقت الجامعه الزيتونية فى ١٩٥٧ لينقطع النبع الموثوق الوحيد للعلوم الاسلامية، وفتحت الجامعة التونسية ابوابها فى ١٩٥٩ لتستبعد الاسلام نهائيا من دائرة البحث العلمى المتخصص، وتردد القائمون بأمرها كثيرا فى موضوع كلية الشريعة واصول الدين، هل يجعلونها قسما للاهوت ملحقا بكلية الاداب ام يجعلونها مؤسسة قائمة بذاتها واستقر الامر على الخيار الثانى رحمة من الله.

وفى التعليم الثانوى، انحصرت علاقة التلميذ بالاسلام فى حصة يتيمة بساعة واحدة خلال اسبوع تسمى حصة التربية الدينية وبضارب تافه، فغدت فرصة دورية للضحك والراحة والسخرية من الاستاذ احيانا اكثر من كونها حصة لتعليم الاسلام.

وعلى الصعيد الثقافى العام داخل المجتمع، كرس الاعلام وكل وسائل الاتصال الجماهيرى نسقا قيميا جديدا للحياة، يقوم على مفهوم عام يحكم عمل الدولة كلها هو اللحاق بركب الامم المتقدمة ويتمثل بعد ذلك فى اسس للحياة اليومية فى مختلف مجالاتها، بحيث يعمل كل فرد فى المجتمع على المساهمة فى تحقيق الازدهار والرفاهية وضمان فرصة الحياة بالمعنى المادى المحدود للكلمة.

وحول الضمير الشعبى هذه المفاهيم الى قواعد شعبية اكثر وضوحا فراجت امثلة شعبية مشهورة متداولة يحتكم اليها الناس ويزنون بها اعمالهم، مثل: ذراعك يا علاف (بمعنى: افتك نصيبك فى الحياة وابذل ما في وسعك لاجله) وكل شاه معلقة من كراعها (بمعنى: كل انسان مسؤول عن نفسه فقط) وأخطى رأسى واضرب (بمعنى: ما دمت انا بخير، فليذهب العالم الى الجحيم) والكف ما يعاند الإشْفى (بمعنى: المواطن لا يستطيع مجابهة الحكومة لانها اقوى منه).

وعلى خلاف ما حصل فى دول عربية اخرى حيث سيطرت انظمة عسكرية ليست لها غير شرعية القوة، كان الحكم فى تونس يستند الى شرعية تاريخية طويلة، نضالية بمعنى من المعانى، فالحزب الحاكم هو اهم احزاب الحركة الوطنية قبل ١٩٥٦ ورئيسه ظل يقدم نفسه كرمز اول لكفاح تونس من ١٩٣٤. وهو بالاضافة الى ذلك رجل قانون وخريج باريس وصاحب خبرة سياسية، وليس مجرد ضابط صغير مغامر.

انعكس كل هذا فى مدى الضرر الذى لحق بنية المجتمع التونسى ونسقه القيمى، فقد تراجعت فعلا فى الضمير الجمعى للشعب كل المعانى الاسلامية الاساسية للمسؤولية والاخوة والجزاء والعقاب ومراقبة الله وادت تجربة بن صالح الاشتراكية الاولى خلال الستينات الى ان ينفض اهل الريف ايديهم من الفلاحة والزراعة ويتجهوا نحو المدن ليشكلوا شعب الاحياء القصديرية هناك حيث يسيطر هم الخبز على كل شىء، وتضمحل معانى الشرف والعفة والاخلاق.

وكان ذلك معبرا الى تغلغل قيم الانتهازية والنفاق فى كل مستويات الشعب من القمة الى القاعدة، وتم ذلك برعاية ودعم وتأطير من الصحف الرسمية، وخطب المسؤولين وبرامج الاذاعة والتلفزيون، كما تم برضا المعارضة فى ذلك الوقت بل وبمساهمتها فى التنفيذ.

كان اليسار هو محور المعارضة وقتئذ، فقد حل الحزب الشيوعى فى ١٩٦٣ وتحول الى العمل السرى، واحتضنت الحركة الطلابية نشأة الفصائل اليسارية الجديدة المتأثرة بالماوية الصاعدة فى الصين أو تحولات خروتشوف فى موسكو، وكانت الكوادر اليسارية متواجدة فى كل مرافق الدولة، وخاصة فى التعليم والاعلام، فاعتبروا انفسهم اصحاب مصلحة فى التخريب العلمانى للمجتمع لانه مرحلة ضرورية لقيام المجتمع الشيوعى، فايدوه وكانوا ابرز من نفذه فى المدارس والمعاهد والجامعات ومراكز الثقافة ووسائل الاعلام.

صحيح انهم كانوا فى خلاف مع النظام حول ولاءاته السياسية الاجنبية، وانهم كانوا يحبون موسكو وبيكين اكثر من باريس وواشنطن ولكنهم كانوا يطلقون شعار لينين: خطوة الى الوراء، خطوتان الى الامام.

وفى اواخر الستينات وأوائل السبعينات كان بامكانهم ان يمزقوا المصاحف علنا، ويدرسوا الالحاد جهرا دون ادنى شعور بالخوف أو الحرج.

وفى مستوى اخر، بدأ التنظير الثقافى لفصل تونس عن محيطها العربى الاسلامى وابراز نوع آخر من الانتماء، الانتماء المتوسطى، فى محاولة لايجاد اسس الارتباط الثقافى بالضفة الغربية للمتوسط، هناك حيث انوار باريس وعقلانيتها وعلمانيتها، واعيد الاعتبار لمراحل تاريخية وثنية متخلفة من تاريخ تونس بينما اختزلت المرحلة الاسلامية وشوهت احيانا كثيرة لكن هذا الجهد ـ على ضخامته ـ لم يحقق اهدافه المرجوة، فتونس لم تتحول الى باريس، وانما وقفت فى وسط الطريق، اضاعت معالم الوصول الى الغرب، وتزاحمت الامواج فى طريق عودتها الى الشرق امرها يشبه امر الطيب صالح فى موسم الهجرة الى الشمال يكاد يغرق فى النهر ولا يجد الى الشرق ولا الى الغرب طريقا.

أو هو على الطريقة التونسية مصير ابى هريرة بطل المسعدى أول مسؤول عن علمنة البرامج التعليمية فى تونس، اصابه العمى، وأضاع الجهات الست، كثير الغبار، فانى العصا، ضلت عليه القبلة وعاد لا يطلب شرقا ولا غربا واختفى على سطح جبل لم تبق الا قطرات من دمه.

كذلك كان المشروع الرسمى فى تونس، وكانت نهاية التجربة الاشتراكية الاولى اول مؤشرات الفشل، وبدأت عورات التجربة العلمانية تبرز تباعا: فشل وعود التنمية والازدهار، انسداد الآفاق امام الاجيال الجديدة، تزايد معدلات الجريمة، ارتفاع نسبة البطالة، ثم وهذا هو الاهم والابرز، بدء تجلى الوعد الربانى القاطع بحفظ الاسلام وبروز الحركة الاسلامية فى تونس.

فى سوريا قطع الاستاذ راشد الغنوشى مع ولاءات القومية التى كان يحملها مثل اغلب ابناء جيله فى ذلك الوقت وتعرف الى الحركة الاسلامية فى سوريا وكانت طريقة الى الغوص فى رحاب الفكرة الاسلامية العظيمة، كما ان تخصصه فى الفلسفة الاسلامية انقذه من السقوط فى الترديد والتقليد وجعل عقله حاضرا فى كل مراحل تطوره الذهنى والفكرى.

ولقد تمكن بفضل هذين الرافدين ـ الحركة والفلسفة ـ ان يجمع الى تجربته الاسلامية الحركية خصائص العقلانية ومداومة النظر والتقويم، وكان ذلك شرطا ضروريا للتعامل مع مجتمع مخرب، ومع نخبة مغتربة أدارت ظهرها كليا للاسلام، واعلنت الحادها جهرا، وتسلطت على وسائل التأثير والتوجيه واحتكرتها لنفسها دون منازع.

وربما كان هذا هو السبب الذى جعل الباحث التونسى عبد الباقى الهرماسى استاذ علم الاجتماع بجامعة تونس يصنف راشد الغنوشى مع كبار مفكرى الاسلام سابقا وحاضرا، فقد ادرك هذه الخاصية المهمة فى الرجل وما اقل ما اجتمع الفكر والعمل فى قيادات العمل الاسلامى، فى هذه المرحلة. وهكذا وعلى نحو من اسلوب الشهيد العلاقة باقر الصدر أو الدكتور حسن الترابى، بدأ الاستاذ راشد الغنوشى محاولاته لبعث التيار الاسلامى المتحفز للاستقلال والوحدة.

كانت الظروف كلها تدعو الى اليأس والاحباط، وماذ يستطيع ان يفعل استاذ مغمور فى احد معاهد محافظات تونس الداخلية؟

كانت العناية الالهية حاضرة، فسرعان ما تكونت الخلية الاولى لمجموعة من «الاخوة» تعاهدوا على التعاون على ذكر الله والدعوة الى الاسلام وكان ذلك حوالى سنة ١٩٦٩. مجموعة من الشباب كلهم، فراشد نفسه، اكبرهم، لم يكن يبلغ فى ذلك الوقت الثلاثين من العمر. وكان معه صالح ابن عبد الله وصالح كركر وحميدة النيفر والفاضل البلدى، والهاشمى الحمدى، والشيخ عبد الفتاح مورو والحبيب المكنى وعلى نوير واخرون تجمع بينهم الرغبة فى التقرب الى الله والحمية للاسلام والرفض لما اصاب البلاد من افساد وتخريب، وكان معهم من الجيل الزيتونى الاسبق خاصة الشيخان محمد الصالح والنيفر وعبد القادر سلامة.

وبدأت المسيرة المباركة بالدخول فى جمعيات المحافظة على القرآن الكريم. وقد كانت اوعية رسمية مجمدة فنشطت وتحركت فانتبهت السلطة فطردتهم منها. ولجأ الاستاذ راشد واخوانه الى المساجد يحدثون الناس عن الاسلام وما كان فيها عندئذ الا عجوز مدنف على حد تعبير راشد نفسه، ثم اتسع الاهتمام الى الجامعة وكان الشيخ عبد الفتاح وقتئذ طالبا فى كلية الحقوق، يدخل قاعة الدرس باللباس التونسى التقليدى الذى كان يرتديه العلماء متحديا المناخ المستغرب المهيمن على الجامعة عموما، وفى كلية الحقوق بصفة اخص.

وسرعان ما تشكلت الخلية الاولى فى الجامعة واستغل الاستاذ راشد هذه الفرصة ليؤسس مع اخوانه اكبر واصلب قاعدة للعمل الاسلامى فى تونس قاعدة الجامعة.

كان هناك مسجد واحد فقط فى احدى داخليات الطلاب بالعاصمة، اضطرت الادارة

لتفريغه لطلاب اتراك مسلمين كانوا قد طالبوا بمصلى، فاخليت لهم غرفة صغيرة من غرف الداخلية سميت مسجدا.

وفى سنوات ثلاث، عمت المساجد فى كل الاحياء تقريبا، وفى ١٩٧٧ اصدر الطلاب الاسلاميون اول بيان رسمى لهم: لقد بدأ الجهد يثمر.

كانت مجلة (المعرفة) عندئذ صوت هذه المجموعة، وكان يكتب فيها عدد منهم، يتحدث راشد عن حضارة الغرب، وبرامج الضياع فى مادة الفلسفة ويفسر الشيخ عبد الفتاح ما تيسر من القرآن الكريم ليتيسر مادة الدعوة للاعضاء النشطين فى الحركة.

ومنذ ذلك الوقت المبكر نسبيا، بدأت تبرز ملامح تفكير الاستاذ راشد الغنوشى فقد دعا الى امتلاك الشعور بالتميز والاستقلال كشرط للتعامل مع الحضارة العربية، واكد ان الاسلام وحده هو القاعدة التى ينبغى ان تقوم عليها هذه الندية وهذا التفرد، ثم هاجم فى مرات متكررة برامج الفلسفة التى كانت تدرس لطلاب الاقسام النهائية فى الثانويات، وقال اننا لا يمكن ان نتعرف على ركام من المدارس والاتجاهات الفلسفية دون ميزان نحاكمم اليه هذه التوجهات والنظريات ونساهم بذلك فى تخريج جيل واثق من نفسه مدرك لمسؤولياته مستعد لتحملها.

ثم بدأت مجلة المعرفة تفسح مجال الحوار لتقييم الحركة الاسلامية فى المشرق وبرزت آراء تدعو الى عدم السقوط فى نسخ التجارب دون تقدير لخصوصيات الواقع، واكد الاستاذ راشد على ضرورة الالتزام بآداب النقاش والحوار، حتى يكون التقويم اضافة واسهاما فى الترشيد والبناء. وبدأ التفكير الاجتماعى يبرز فى كتابات الغنوشى مع احتداد المسألة الاجتماعية فى تونس وانتفاض العمال ضد الحكومة فى ٢٦ يناير ١٩٧٨، فانصرف قليلا الى البحث فى مسائل العمل والملكية الزراعية فى التصور الاسلامى، وقدم اول مادة جدية للنقاش حول هذه المباحث فى ندوة (مسجد صاحب الطابع) حيث دعا الى اعتبار الملكية ملكية انتفاع ووظيفة لان المالك الاول هو الله سبحانه وتعالى ـ ومن هذا المفهوم تتعامل الدول الاسلامية مع ثرواها لانها هى المستخلفة فى الارض ـ على اساس توظيف كل المقدرات لصالح الامة، فهى اذن مدعوة للاختيار وايجاد المعادلة بين الملكية الخاصة والملكية العامة، وملكية الدولة بناء على شورى المسلمين واجتهاد علمائهم.

وهاجم الأستاذ راشد الغنوشى التغريب ودعاته وأبرز أن القمع الذى ووجهت به حركة العمال فى تونس، وكل التحركات الشعبية فى البلدان الاسلامية، إنما هو نتيجة طبيعية لسياسات التغريب السائدة والمطبقة، بل إنه نتيجة حتمية لها ـ فما دام التغريب محاولة لقطع الشعب عن جذوره، فإن سنده الوحيد الممكن هو القوة، خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار فشل كل المحاولات التنموية التى خطط لها وأشرف عليها دعاة التغريب ورجاله.

ومع وصول أخبار الكفاح الاسلامى ضد الشاه فى إيران منذ أواخر ١٩٧٨، خصص الغنوشى عدة مقالات للتعريف بالحركة الاسلامية فى إيران والدفاع عنها واحتلت اخبارها وصور زعمائها غلاف المجلة قبل ان تكتب عنها أى مجلة إسلامية، وقرن الاستاذ راشد فى مقال له عقب انتهاء الثورة بين ثلاث شخصيات أعتبرها رموز القرن للعمل الاسلامى،

وهم الامام الشهيد حسن البنا، والعلامة المودودى، والامام الخمينى.
وخلال مشاركته فى الموسم الثقافى لاتحاد الطلاب بجامعة الخرطوم فى صائفة ١٩٧٩م، قدم الاستاذ راشد تصوراً ناضجاً لانجازات الحركة الاسلامية وعوائقها وأكد أن غياب الاستراتيجية الواضحة والتخطيط السليم وإنعدام الرؤى التقويمية والركون الى التقليد سواء كان ذلك فى مضمون المشروع الاسلامى أو فى وسائل تنفيذه، كل ذلك سيحول بين الاسلاميين وبين أهدافهم المنشوذة، الأمر الذى يحتم عملية تحديثية شاملة مضمونها مراجعة لمشروعنا واستراتيجيتنا الراهنة ولأساليب عملنا المتبعة.
ودعا الأستاذ راشد الاسلاميين الى الاستفادة من تجربة الأخوان فى مصر دون التقيد بها أو الوقوف عندها، ونادى بضرورة إيجاد الارتباط التام بين الدعوة الاسلامية وبين مطالب الشعب وطموحاته فى الاستقلال والحرية والوحدة.

***

فى ١٩٨١م كانت حركة الاتجاه الاسلامى قد غدت معطى سياسياً وثقافياً اصيلاً وواقعياً فى الساحة التونسية - كان شيئاً أشبه بالحلم، فقبل عشر سنوات كان الهرماسى* يقدر ان تونس قد انتهت عن ان تكون مرشحة لأى رياح اسلامية كتلك التى هبت فى المشرق.
الذين كانوا يتفاخرون بمعاداة الاسلام، عادوا فاصبحوا يزايدون على الحركة الاسلامية بدفاعهم التاريخى المجيد عن الاسلام.
الذين دعوا الى افطار رمضان وسخروا من عصا موسى تسارعوا الى اعلان الاحصائيات بعدد المساجد التى بنوها ونشر الخطب التاريخية المدبجة بآيات القرآن واحاديث الرسول..
الجامعة التى كانت قلعة حصينة للفكر الماركسى المفلس اصبحت الارض الخصبة للفكرة الاسلامية والمعاهد الثانوية التى كانت مشغولة باللهو والموسيقى الرسمية اصبحت تكبر الله وتسجد له فى كل الساحات.
الاحزاب التى كانت لا تتكلم عن الاسلاميين الا بالرجعية والتطرف والانغلاق جاءت وجلست مع الحركة حول مائدة واحدة.
وقبل ذلك، وبعده، الشعب الذى كان واقفا وسط النهر، لا يدرك الغرب ولا الشرق وجد خشبة النجاة تمتد له من داخله من جزء فيه كان مغمورا ببعض الرماد نفخت فيه الرياح فاستعاد حيويته، وتدافع نحو الاسلام بكل فئاته، العمال والبورجوازية الصغرى والكبرى والمثقفون والطلاب، كانت معالم الانقلاب الكبير تتضح شيئا فشيئا، وبدأت الدوائر الدولية الكبرى تحذر وتنبه، فتقرر ان توجه ضربة وقائية للحركة الاسلامية فى صائفة ١٩٨١، حوكم بمقتضاها مائة وبضعة اشخاص، وصلت احكامهم مجتمعة الى خمسة قرون سجنا، كان نصيب الاستاذ راشد منها عشر سنوات.

***

غير ان ما حدث قبل الاعتقالات بشهر واحد كان حدثا فريدا بالغ الاهمية. فقد اعلنت الحركة على لسان رئيسها عن تكوين مكتب تنفيذى علنى وتقديم مطلب رسمى للحصول على تأشيرة للعمل كحزب سياسى شرعى.

وكان قد سبق ذلك نقاش نظرى وسياسى عميق حول هذه الخطوة انتهى الى اقرارها وكان الاعلان فرصة لتقدم الحركة الاسلامية نفسها طرفا فى البلاد لا يدعى كهانة ولا وصاية ولا يزايد بشعارات الحرية والديمقراطية وانما يعتقد بحقه ونصيبه الشرعى فى النشاط السياسى وسط الجماهير لابلاغ فكرته، وبلورة مشروعه، مع احترام حق الاطراف الاخرى فى العمل. لاول مرة فى تونس على الاقل، يرتبط الاسلام أو المشروع الاسلامى بقضية الحرية السياسية ارتباطا وثيقا، فلا يمكن حسب الاستاذ راشد ان نتخلى عن واجبنا فى الدفاع عن الحرية، لان الكفاح من اجلها هو من جوهر الكفاح من اجل الاسلام، واذا ما تجاهلت الحركة الاسلامية هذه القضية او زايدت بها عن قصد فانه السقوط الرهيب كما صرح بذلك لمجلة المجتمع الكويتية.

ان المواطن العربى المسلم ظل يعانى من القهر قرونا طوالا، ومهمتنا تحتم الا نكون جزءا من القهر السائد، والا نستبدل وصاية بوصاية، وان ننفض الغبار عن الارادة الحرة التى اودعها الله خلقه ونعرض لها الاسلام كما نفهمه لتختار هى طريقها عن حرية ومسؤولية واقتناع.

وكانت المناسبة ايضا فرصة للمصارحة التاريخية المسؤولة، فقد قال الاستاذ راشد ان بلورة مشروع اسلامى معاصر مهمة لم يكتمل انجازها بعد، وان الحركه تحاول ان توفر اطارا يعين على انجازها بالتفاعل مع اسهامات الاسلاميين وكل المعنيين بالهم الاسلامى فى كل انحاء الدنيا.

ان الاسس الجوهرية واضحة ما فى ذلك شك، لكن ثمة عملية تجديدية كبرى ينبغى ان تتم لنصل الى معالجة اسلامية معاصرة تستوعب مكاسب البشرية وتضع لها مكانها فى نسق جديد يضيف للانسانية جمعاء، وفى مستوى ادنى، ينهى هذا الفصام النكد بين الامة ورسالتها، وبين الواقع والطموحات، بين الحماس والعمل الايجابى البناء.

ثم دخل الاستاذ راشد السجن ليعزل فى زنزانة انفرادية داخل واحد من أسوأ سجون الدنيا.

لكنه لم ينقطع عن العالم، ولم يركن الى الاحزان، فمن داخل السجن كتب عن المثالية والواقعية فى الفكر الاسلامى. وحرض الاسلاميين على ابراز نموذج متميز لمساهمة المرأة فى التغيير، ودعاهم الى الاقبال على الفنون والتعبير عن جمالية الفكرة الاسلامية فى شتى وجوه الحياة بمختلف الوان التعبير الفنى، وعاد فأكد اهمية المسألة الاجتماعية فى برنامج الحركة الاسلامية مبرزا دور العمال كقوة اجتماعية مهمة فى التغيير واهمية ان يكون الاسلام تعبيرهم الاكمل عن طموحاتهم وتطلعاتهم.

ومن داخل السجن ايضا، تطلع الى فلسطين، وعلق على الغزو الصهيونى للبنان فى ١٩٨٢ وقيم تجربة منظمة التحرير الفلسطينية ومشروع فاس للسلام.

ودعا الاسلاميين الى ان يعتبروا تحرير فلسطين مهمتهم المركزية تلتقى عليها براجمهم وتتضاءل خلافاتهم ، ودعا الفلسطينيين الى الكف عن التهويم فى الافاق واللعب على تناقضات الحكومات للمراهنة بدلا من ذلك على الحركات الاسلامية الثورية ، مما سيشكل نواة لانقلاب هائل فى المنطقة . ومن داخل السجن ايضا كتب عن العروبة والاسلام ، وحذر من نقل خلافات المشرق الى المغرب حيث لا تقابل بين العروبة والاسلام ، وكل يحيل على الآخر بداهة ، وحاول تمحيص الادبيات الاسلامية فى هذا الموضوع مما شابها من ردود افعال على ممارسات الانظمة القومية فى المشرق العربى ، مبرزا كيفية توظيف العامل الوطنى والقومى للتقدم فى انجاز مهمة الوحدة الاسلامية الاوسع والاشمل .

وعندما غضب الشعب فى يناير ١٩٨٤ على الزيادة فى اسعار الخبز وخرج الى الشارع فى حدة وغضب كتب من داخل السجن ينبه المناضلين الشباب الى فكرة طالما كررها مرارا قبل اعتقاله . . لا تحتقروا الجماهير، لا تكثروا اتهامها بالعجز والنفاق والخوف ، فانها هذا سبيل الفاشلين لتبرير عجزهم وقعودهم . . ولكن اعملوا وسط الناس واصبروا وصابروا واشرحوا لكل فرد علاقة الرغيف بالفكرة ، وكونوا اول الصفوف المدافعة عن الرغيف ، وعن الأجر، وعن الحرية ، وعندئذ ستنزاح الغشاوة شيئا فشيئا ، وسينحاز الشعب كله للاسلام . .

وعلى صعيد آخر اسهم الاستاذ راشد مع اخوانه داخل السجن وخارجه فى اجراء اوسع عملية تقويم ونقد ذاتى تقوم بها حركة اسلامية خلال هذه المرحلة .

فقد صدر قرار تاريخى فريد يجعل المهمة المركزية للحركة طيلة السنوات الثلاث التى تلت الاعتقال ، مهمة تقويم التجربة التاريخية للحركة فى تفاعلها مع كل معطيات الواقع وروافد التأثير، محليا وعالميا .

وتقرر ان يصحب عملية التقويم انجاز دراسات علمية معمقة عن الواقع الذى تتحرك فيه الحركة ، عن الاقتصاد ، والتركيبة الاجتماعية ، والنقابات ، والاحزاب ، والوضع الثقافى .

كما تفرغ آخرون من ذوى الاختصاص للعودة الى النصوص الشرعية يحاولون انهاء المقابلة التاريخية العلمانية الجائرة ، النقل أو العقل ، النص أو الواقع ، التراث أو المعاصرة .

اننا نسمى خيارا كهذا قرارا تاريخيا فريدا ، لاننا نعلم انه فى انحاء كثيرة لا يتفرغ الاسلاميون لاى تقويم جاد ، بل انه فى مصر ذاتها لم نسمع ولم نقرأ الى حد الآن نصا يقول اخطأ الامام الشهيد فى تلك المسألة ، او الهضيبى أو التلمسانى عليهم رحمة الله جميعا .

وانى لحركة ترى ماضيها كله صوابا ان تتجاوزه وتتخطاه الى الافضل .

ولم تقف الحركة ابان إجراء هذا التقويم الشامل الموسع بل واصلت عملها رغم وطأة ضربات البوليس والمخابرات واتى كفاح السنوات الاولى أكله ، فقد برز رجال الصف الثانى وتحملوا مسؤولياتهم كاملة ، وحفظوا كيان الحركة بل وتقدموا بعملها اشواطا الى الامام .

وتحت قيادة الاستاذ المهندس حمادى الجبالى ، تقدمت الحركة فى انجاز تقويمها ، ووطدت وجودها فى الجامعة وثبتته رغم الضربات المتلاحقة ، واصبح الاسلاميون جزء لا يتجزأ من التركيبة النقابية فى تونس ، وفرضت الحركة نفسها فى وسائل الاعلام المحلية والعالمية ،

واعـطت الانطباع لكل مراقب بانها جهة مسؤولة تفى بالتزاماتها، وتتمسك بمطالبها، لم تتشنج مرة واحدة للتورط فى ردود افعال غير مسؤولة. . ولم تتنازل مرة واحدة عن حقها فى العمل الشرعى والقانونى ولم تتخل عن التنسيق مع المعارضة الوطنية الاخرى لتكوين جبهة ديمقراطية واسعة تحد من تغول السلطة وعدوانها على الحريات.

وهكذا فشلت كل المخططات لمحاصرتها وعزلها. . كل الاحزاب والتنظيمات بمختلف الوانها السياسية، استنكرت الاعتقالات والمحاكمات، بما فى ذلك الشيوعيون ونقابات العمال وهيئات المحامين والكتاب. . المنظمات الدولية تدخلت ومنظمة العفو الدولية تبنت ملف الحركة.

وفى ساحات المجاهدة السياسية، كان الاسلاميون يعملون فى الجامعة فرسخوا ميثاقا لارساء مناخ الحرية والديمقراطية، يسمح للطلاب بالتفاعل فيما بينهم بايجابية ومسؤولية، وقدموا مشروعا عمليا لحل الازمة النقابية المستحكمة هناك وبناء اتحاد ديمقراطى ممثل للطلاب.

وعندما اعتقل البوليس القيادات الطلابية، لم يسقط المشروع، وانما تأجل قليلا، الى حين خروج المساجين الذين اشرفوا بانفسهم مرة اخرى على اتمام اكبر انجاز للحركة الطلابية التونسية فى هذه الحقبة، انعقاد المؤتمر العام الديمقراطى الذى تمخض عنه تأسيس الاتحاد العام التونسى للطلبة. . وفى المجال النقابى، ارتقى الاسلاميون بسرعة الى حيث ينبغى ان يكونوا، الى قيادة الاتحادات العمالية فى كثير من المناطق، مجسدين التحام المشروع الاسلامى بآمال المستضعفين وهمومهم وتطلعاتهم.

وعلى صعيد آخر صمدت المرأة المسلمة فى عزة واباء. ورغم ان الحكومة منعت ارتداء الحجاب فى المدارس فان الجامعات غصت بالمتحجبات عن ادراك واقتناع، وفى وسط علمانى متعفن، يغدو الحجاب هوية، ووثيقة ميلاد للمرأة الانسان المسؤول بديلا عن المتاع ومادة الشهوة التى افرزتها التجربة العلمانية.

وهكـذا شقت الحركة طريقها تحقيقا لوعد الله رغم المحن والآلام واستثمرت الضرب والمحاكمات لتثبيت وجودها وتأكيد شرعيتها، فلم تجد السلطة بدا من ان توقف هذا النزيف، واعلنت الافراج عن المعتقلين فى صائفة ١٩٨٤م.

****

عنـدما خرج الاستاذ راشد من السجن وجد عود الحركة اشد واصلب، وكلف بقيادة المسيرة من جديد، فتولاها مسنودا بعشرات المناضلين المتمرسين.

وبدأ كفاحه الذى لم ينقطع فى جبهات عديدة. . جبهة عقائدية فكرية تؤسس قواعد المشروع الاسلامى فى نفوس اهله والمتعاطفين معه على اساس التسليم للوحى وممارسة الشورى.

فما كان فيه نص شرعى قاطع، قلنا سمعنا واطعنا وما ترك لنا جعلناه شورى، يدلى فيه المجتهـدون بدلـوهم ويتـداول الناس فيه الرأى والحجة، ثم يختارون لانفسهم. وهاتان الركيزتان هما اس المشروع الاسلامى الواعد الذى نريد تقديمه للناس، نظرية فى المعرفة،

ومنهجا فى العلوم الانسانية، وتناولا منفردا فى الادب والفنون وطريقا الى طرد بقايا الاستعمار وانجاز التحرر الشامل على كل المستويات. . ولان المشروع ذو طبيعة عالمية فان الاستاذ راشد يحض على دراسة كل انجازات المدرسة الاسلامية المعاصرة؛ كتابات الاخوان، مؤلفات العلامة الشهيد باقر الصدر، رسائل الدكتور حسن الترابى، تجربة الثورة الاسلامية فى ايران، وفى نفس الوقت لابد من متابعة تنظيرات العلمانية المتراجعة ومحاصرتها وابطال حجتها.

فاذا التزمنا فى هذا الجهد كله قاعدة «الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه» انجزنا بعون الله ما نريد.

واعتنى الاستاذ راشد ايضا بالمسألة التربوية، ودعا المناضلين الاسلاميين الى ان يتذكروا دائما ان الاسلام لم يأت لينافس الدعوات الاخرى فيما هو قريب عاجل، وانما جاء ليعطى لحياة الناس معنى اسمى مما هو فى الارض، انه جاء ليهيىء البشرية لحياة الخلود فى النعيم الابدى، فلنحذر من ان تستدرجنا الجاهلية الى التخلى عن هدفنا البعيد ومنهجنا القويم فنستبدل بحبل الله المتين بيوت العنكبوت.

انما جاء الاسلام، والتعبير للاستاذ راشد دائما، ليعطى حياة الناس معنى وهدفا، فيجعلها مرحلة اعداد، مرحلة زرع للحصاد فى الآخرة، فينذرهم ويبشرهم، ينذرهم بالعذاب الابدى ان هم حادوا عن منهج الله ونظروا الى حياتهم على انها دار متعة، ويبشرهم بسعادة الآخرة ان هم جعلوا العمل للآخرة نصب اعينهم.

وعندما تتجه القلوب الى الله، وتتوق الى لقائه وتفزع من عذابه، يأخذ الاسلام بايدى الناس فى هذه الحياة فيحل مشكلاتهم القريبة، بل ان العمل للآخرة، الهدف البعيد، يجعل الاهداف القريبة «الدنيا» تجد حلها التلقائى فى الطريق. . وهكذا يتقدم المشروع المتفرد الكبير فى تونس نحو اهدافه بثبات وثقة.

فهمُ التجديد وبناء المشروع الحضارى الاسلامى يتسع الى دوائر كثيرة فى الحركة يحمله المثقفون والطلاب فى مواقع مختلفة وكل يسهم فى انجازه بنصيب.

والتقويم الذى رصدت له الطاقات انجز، والحركة تحس انها اكثر قدرة على التعامل الذاتى المسؤول، اخذا وعطاء. والاستقامة على حدود الله وكتابه شغل شاغل للجميع لا يختص به المتفقهون فى العلوم الشرعية. . وكل هذا يهىء القاعدة لملحمة نضالية واعدة ومبشرة ان شاء الله.

***

فاذا اقتربنا بعد هذا كله قربا اشد الى شخصية الاستاذ راشد الغنوشى، وجدنا يقينا ما يغرينا بالتقدم. وكيفما جلست اليه، منفردا او مع جمع من الناس، لا يتكلم الرجل الا مستحضرا قواعد معينة فى التفكير. فاذا تحدث عن ازمة اتحاد الشغل فى تونس عاد الى تاريخ النضال النقابى، وسنن الحركات الجماهيرية، ودرجة تطور الحس النضالى داخل الشعب، واثر التدخلات الخارجية والاقليمية فى المشكلة، ودور الاسلام فى الحل والمعالجة واذا سألته فتاة عن شأن نسوى خاص، شرح لها مفهوما اشمل واكمل تتخذ فيه المسألة الجزئية موقعا أكثر وضوحا، فحدثها عن المسؤولية الانسانية، ومغزى الحجاب، ودور المرأة

فى معارك الامة.

فاذا تحدث النـاس عن ازمة مع دولة شقيقة مجاورة حلل طبيعة المعسكرات واتجاهات المحاور الاقليمية التابعة وانعكاساتها المباشرة على العلاقات بين الانظمة والحكومات، قبل ان يصل الى الموقف المطلوب من المسألة الراهنة.

اريد ان اقول من هذه الامثلة، ان الرجل ليس موظفا محترفا فى ادارة التنظيمات ومتابعة اعمالها بخبرة التجربة، وانما يملك شيئا خاصا، قدرة متميزة، تضفى على كل مساهماته نكهة متفردة، وتفتح لمن حوله افاقا ارحب وأوسع وتلفت النظر الى مسائل ما يظن الفرد العادى انها يمكن ان تترتب عن المسألة المطروحة اول الامر.

امر شبيه تقريبا بالدكتور الترابى عندما يخطب، فالخطابة فى ندوة سياسية تعالج مشكلة ظرفية لا تسمح بخصوصيات بارزة للخطاب السياسى، لكن الترابى لا يسقط فى المباشرة والاسفاف والتهريج. فاذا تحدث عن الجمعية التأسيسية دخلها من باب الشورى كنظام للفرد والاسرة والمجتمع قبل ان يكون نظاما للحكم السياسى.

واذا تحدث عن مشكلة الجنوب، دخلها من باب تدافع حركة الحق فى مواجهة الباطل، وربط العارض بالثابت، والحديث بالقديم، حتى تشك فيها اذا كان يحاضر فى جامعة أو يخطب فى جمهور.

واذا ما تحدث عن الحملة الانتخـابية، ترفـع عن السباب، والمهاترة، واعطى المعركة موقعها الطبيعى وفتح صفحة الصراع التاريخى بين التوحيد والشرك من لدن نوح وابراهيم وموسى عليهم السلام حتى آخر معارك الحق زمن الخطاب.

وهكذا..

ومـا اشـد حاجتنـا اليوم الى هذه النـماذج، فلطالما عانى العمل الاسلامى من تسلط الاداريين على مواقع التوجيه فتحولت حركة الاسلام على ايديهم الى شكل هندسى يحصر الطاقات ويكبل الامكانيات المتاحة عن الانطلاق، لان مادة الهندسة هنا ليست الحجارة ولا المعادن، وانما هم بشر ذوو احاسيس وقناعات وطموحات.

ما اشد حاجتنا اليوم الى هذه النماذج، فالتيار الاسلامى الواسع يتخذ مراجعه ونماذجه فى اغلب الاحيان فى ظروف غير طبيعية، فيخطىء الاختيار، اما بالعودة الى الماضى أو بالركون الى رموز التقليد والاجترار.

ونحن اليوم فى امس الحاجة الى من يغرس فينا هم التجديد والابداع، ويرتاد بنا آفاقا جديدة فى رحاب الله والتاريخ والمستقبل، ويفجر فينا كل قابليات الخير والحق والحب والجهاد.

وبعض اوجه المأساة ان قطاعات واسعة من شباب الاسلام فى اوربا، وبعض نواحى المشرق قد احيط بها، اذا سمعت نداء التجديد جفلت وهربت واذا كتب فى الاسلام بما لم تعهده تناصرت على محاربة الكتاب، واذا قيل فى تاريخ الحركة الاسلامية بعض النقد جعلوا اصابعهم فى آذانهم وولوا مصرين، انها ـ اللهم فاشهد ـ عن حماسة وحسن نية.

ما اشد حاجتنا اليوم الى هذه النماذج، فلقد توقفت قليلا اسهامات المشارقة، وثمة فى

الساحة فراغ كبير، اما ان تملأه الافكار اليائسة المتطرفة، او التصورات التقليدية التى لم تتقدم قيد انملة منذ استشهاد الامام البنا، او ان يبرز اعلام جدد، يهدمون فى الناس اطمئنانهم الزائف الى حسن احوالهم، وصواب طريقهم ويدفعونهم الى الوان من المجاهدة الفكرية والفلسفية عظيمة، والى مساحات من العمل السياسى والاجتماعى واسعة ورحبة، والى طرق واساليب للعمل والتحرك جديدة وطريفة.

كل ذلك فى تواصل مع الماضى، وتطلع للمستقبل، وتجرد امام الحق، لا يحبسه التعصب، ولا يضلله الحماس..

لقد قدمت الحركة الاسلامية تضحيات جسيمة، واخذت من الزمن امدا طويلا نسبيا، وستظل طموحات الامام البنا، وامال الشهيد سيد قطب ومن نهج نهجهم دينا فى اعناقنا، فلننظر لم نتقدم كثيرا على درب هذه الاهداف، لعل الله يفتح بصائرنا لاوجه حق جديدة لما نعهدها من قبل.. لقد هتف سيد قطب بشباب الاخوان قائلا «ان الناس فى كل مكان يسألون عنكم، وعن سياستكم، وعن جهودكم، وعن اتجاهاتكم فاعلموا اذن ان العيون كلها مفتوحة عليكم، وان الانظار كلها متوجهة اليكم وان كل صغيرة وكبيرة عليكم محصاة، وانكم لا تعيشون لانفسكم ولا لوطنكم الصغير ـ مصر ـ وانما تعيشون لهذا العالم المترامى الاطراف. العالم الاسلامى.. انكم انتم رجال المستقبل وان المستقبل لكم انتم فى المعركة القادمة الفاصلة معركة التحرير الكبرى التى لابد ان يخوضها الوطن الاسلامى» (دراسات اسلامية). فاين نحن الآن من هذا النداء، والوضع لا يقل سوء عما كان عليه فى ذلك الزمان؟ بل انه يزيد!

***

اجدنى الآن مقتنعا تمام الاقتناع ان المرحلة الجديدة للعمل الاسلامى، الراهنة والمقبلة، تتطلب رموزا جديدة واتجاهات طريفة نسبيا فى طريقة التفكير واسلوب العمل.. ولابد ان نساهم ـ كل بطريقته ـ فى احداث هذا التغيير فلكل معركة رجالها..

وانى لاستشعر نسمات التجديد المنشود وهى تهب هنا فى المغرب، وهناك فى السودان، مضافا اليها اصوات رشيدة من داخل الارض المحتلة ومصر ولبنان، وفى بعض تجمعات المهجر، فضلا عن الدروس التى لم نستخلصها بعد من ثورة الاسلام فى ايران..

كل الامكانيات متاحة لنهضة حقيقية وضرورية داخل الحركة الاسلامية، فلتتحرك هذه الرياح فى كل اتجاه ولتتلاقح آراء حسن الترابى بافكار راشد الغنوشى وعبد المجيد النجار ومحسن الميلى وبن عيسى الدمنى ومنير شفيق ومحمد مورو ومحمد حسين فضل الله واسماعيل الفاروقى وغيرهم، ولتشق الحركة الاسلامية اخيرا وبعد طول تطواف طريقها الى العزة والتمكين والعطاء.

وفى هذا الاطار فقط، يأتى تقديم هذه النصوص للاستاذ راشد الغنوشى على اعتباره واحدا من رموز المرحلة الجديدة الذين نعلق على جهادهم وعطائهم املا كبيرا.

اخترنا فى هذا الكتاب عددا من النصوص نقدم بها الاستاذ راشد الى القراء، ونأمل ان نتمكن من تقديم مادة اخرى فى طبعة ثانية او فى كتيب مستقل اذا يسر الله ذلك. وتقدم النصوص المختارة عينات من تفكير الغنوشى واهتماماته، وكلها جديرة بأن تكون هما لازما

للمسلم يعالجها ويتقدم فى اتجاه حلها بالاسلام ولصالح المسلمين.

واخيرا، فقد بقى ان نضيف كلمة وجيزة واخيرة. . ان جامع هذه النصوص ومقدمها هو واحد من الوف الشباب الذين يدينون للاستاذ راشد شخصيا بفضل كبير فى انقاذهم من السقوط فى الدروب الرمادية الضيقة التى جرّت اليها العلمانية اغلب الابرياء والطيبين فى بلادنا، ولقد كانت محاضراته وكتاباته ومجاهداته فى الحقبة الاخيرة من تاريخ تونس املا وشعاع نور وافقا جديدا وهتاف حق وبشير مستقبل، فتحت لنا ابوابا عراضا عندما كدنا نسلم امرنا نهائيا الى حياتنا التافهة الموحشة المجردة من كل معنى والتى تمثل حصيلة ما تعلمناه فى المدارس، أو شاهدناه وسمعناه فى وسائل الثقافة والاعلام.

ومن خلال كفاحه الثقافى والسياسى، هو واخوانه الاخرين، اتيح لى وللالآف من امثالى ان يجدوا فرصة لخدمة بلادهم وينخرطوا فى تيار واسع من الذين امتزجت فى قلوبهم نضارة التوحيد بدفء الوطن وطهارة الحب وحلاوة التطلع الى بعيد، فنذروا انفسهم ـ على طريقة الانبياء ـ للحقيقة والقيم الرفيعة والمستقبل، لاتثنيهم عن ذلك جدران الرماد ومشقة الطريق ومهاترات الاقرباء أو الأعداء.

وهذا جهد عظيم جدا وانجاز رائع جدا بكل المقاييس وفى وجه محترفى تزوير الحقائق، لابد ان يرفع المرء صوته عاليا ولا يكتم شهادته، فانهم يحاولون ان يحطوا من اقدار اشرف ابناء هذه الامة ويضخموا من قيمة رموز الضياع والتغريب والانحلال. . واذا كانت الظروف الصعبة التى تحيط بالأستاذ راشد تحول بينه وبين نشر أو مراجعة ما كتب ويكتب، فانه لا عذر للذين يستطيعون تبليغ كلماته ويقعدون.

ان الغبطة لتملؤنى وانا اجمع ـ كتلميذ من تلاميذه ـ هذه النصوص واقدمها، وان بقلبى فيضا من مشاعر التقدير والامتنان له ولاخوانه الآخرين اريد نقلها لكن تعوزنى الطلاقة ويخوننى القلم. . وانا اشعر بارتياح كبير وانا اقدم لقراء العربية وجها من وجوه الاضافة الاسلامية التونسية المتميزة من خلال كتابات الاستاذ راشد الغنوشى. وآمل ان يتيسر لى من الوقت والامكانيات ما يعيننى على تدوين معالم التجربة الاسلامية وخصائصها هناك بصفة اشمل واعم فانا موقن ان لبلادنا ما تقدم وتضيف الى كفاح الامة كلها من اجل التحرر والوحدة والكرامة.

امل ان يجد هذا الكتاب ما هو جدير به من قبول وتقدير، وابتهل الى العلى القدير أن يقيض للامة الاسلامية جيلا متبصرا مجددا مجاهدا وثابا مسكونا بالغيب منخرطا فى عالم الشهادة، يعقل دروس الماضى ويستشرف آفاق المستقبل، يحرر فلسطين ويوحد الامة ويعيد لها عزها ومجدها التليد، انه سميع مجيب.

محمد الهاشمى الحامدى

سبتمبر ١٩٨٦

الفصل الأول

الفكر الاسلامى بين المثالية والواقعية

صحيفة الوحدة التونسية
بتاريخ: ٢٩/٥/١٩٨٢
٥/٦/١٩٨٢

المتأمل فى تجربة الحركة الاسلامية المعاصرة فى المشرق خلال نصف القرن الاخير وبالمغرب خلال السنوات العشر المنصرمة يستطيع بكل يسر ان يلمس مدى تأثيرها فى توجيه المجتمعات الاسلامية نحو تعاليم الاسلام ولفت نظرها الى ما فى هذه التعاليم من خير وصلاح وقوة وعدل ومنطق وتفوق على سائر المناهج والمذاهب والفلسفات . . ولقد كان لهذا التأثير الدور الفعال فى تحرير عقول المسلمين وارواحهم من تراث عصر الانحطاط وانحرافاته فى التعبد والاعتقاد والسلوك وفى تحريرهم فى نفس الوقت من بعض الآثار المدمرة للغزو الفكرى والروحى للحضارة الغربية ، ذلك الغزو الشرس الذى اوشك ان يحدث قطيعة تامة بين امتنا وماضيها وعقائدها ويعصف بعزتها ويذيب كيانها فى بوتقته لولا ان تدارك الله الامة برجال افذاذ جاهدوا جهادا كبيرا لرد الغارة الشرسة على العالم الاسلامى امثال: الشيخ رشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب وابى الاعلى المودودى ومالك بن نبى رضى الله عنهم ، فاستطاعوا على قلة وسائلهم ان يتصدوا للهجمة الغربية الفكرية التى صاحبت واعقبت الهجمة العسكرية وان يعيدوا للاسلام اعتباره لدى قطاع واسع من هذا الجيل ويكشفوا زيف حضارة الغرب وخواء مضامينها من الانسانية ، رغم تفوقها التقنى . وأهابوا بالامة الى ضرورة الاعتصام بالاسلام عقيدة وشريعة وثقافة ومنهاجا للحياة وايديولوية حضارية تحررية ، وبضرورة وعيها بدورها الرسالى فى العالم ، وان مقامها فيه مقام الامر والنهى لا التبعية والذيلية ﴿كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . . .﴾ (آل عمران: ١١١) . وهى مدعوة اليوم فى عالم الضياع والاستغلال والجور الى تحمل مسؤوليتها فى انقاذ العالم مما يعانيه من اغتراب وظلم وتدمير تحت قيادة الغرب بجميع اوجهه الرأسمالية والاشتراكية . . فلقد انكشف زيف هذه الحضارة وشعاراتها المضللة فى

الحرية والمساواة وظهر واضحا فشلها ـ رغم ضخامة وسائلها ـ فى تحقيق علاقات انسانية تحكمها مبادىء العدل والمساواة والحق وغدت حياة الادغال ارحم بالانسان من الحياة فى ظل مدنية الغـرب . . فلا بد لهذه الامة من تحمل مسؤوليتها امام الله فى الشهادة على الناس باظهار ما فى دعوة الاسلام من حق وعدل ورحمة وما تتضمنه هذه الحضارة من زيف وخواء وتدمير للانسانية وللعلاقات البشرية، ثم يبذل اقصى الجهد الواعى المنظم لاستئناف الحياة الاسلامية والعودة بالانسان الى ذاته، الى فطرته، الى الطبيعة التى فطره الله عليها والتى لن تجد تعبيرها الكامل فى غير هذا الدين لانه ينحدر واياها من مشكاة واحدة. فالذى خلق الانسـان هو الذى انزل القرآن ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرة الله التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون﴾ (الروم ٣٠). انه لا تبرأ ذمة هذه الامة امام ربها ثم امام البشرية قاطبة حتى تبذل اقصى الجهد للشهادة على الناس باقامة نظام الفطرة الذى فطر الله عليه الناس، نظام الخلافة الاسلامية (الخلافة العالمية) على اساس التوحيد والعدل.

قصور الحركة الاسلامية

والحـركـة الاسـلامية ولئن حققت انجـازات عظيمة فى محاولتها تحرير الامة من تراث الانحطاط وآثار الغزو الغربى المدمر فقد ظلت بعيدة عن تحقيق هذا الهدف (اقامة شرع الله فى الارض) اذا استثنينـا التجـربة الايرانية الجديرة بكل تقدير رغم ما شابها ولا يزال من ارتباك، ورغم الظروف العدائية المحيطة بالحركة الاسلامية التى يوقد نيرانها الغرب وعملاؤه فى المنطقة ومن طرف الاجهزة الدينية التقليدية التى لم تقدر بعد على مغادرة مواقع الانحطاط وتفهم منطلقات الحركة الاسلامية واهدافها السامية، فان المسؤولية الكبرى فى قصور الحركة الاسلامية عن ادراك غايتها فى تحقيق طموح الامة فى معانقة ذاتها والالتحام بدينها وتاريخها يعود الى اسباب داخلية للحركة الاسلامية، الى بيئتها الذاتية . . انها تعود اساسا الى نمط التفكير السائد داخل هذه الحركة والذى لا يزال رغم المحاولات المتكررة ونجاحه الجزئى مشبعا بمثالية عصر الانحطاط لا يصل بالواقع الا من خلال نصوص تجمد فهمها على ضوء مقولات ومفاهيم تبلورت فى عصور اقل ما يقال فيها انها تختلف الى حد كبير عن عصرنا . . وفى ظروف تكاد تكون مباينة تماما لظروفنا . . فغدا المسلم بهذه العقلية المثالية مصابا بها يشبه العطالة فى فهم واقعه واستيعاب تطوراته والقوى المحركة لذلك الواقع والطاقات المختزنة فيه. فكان من الطبيعى ان يعجز عن تفجير تلك الطاقات والتعامل مع تلك القوى وتحديد سياسته للتعـامل معها وتسخيرها. ونكتفى للتدليل عن عجز المسلم فى استيعاب واقعة المتطور وما يحتويه من طاقات وفشله فى تسخير تلك الطاقات بإيراد الامثلة التالية:

مثال اول: القوى العاملة أو الطبقة العاملة:

فهذه الفئة التى غدت تمثل مشكلا ضخما لكثير من الانظمة الرأسمالية وحتى الاشتراكية وتتحكم فى مصائر الانظمة والسياسات ظل الاسلاميون بعيدين عن التأثير فيها وتسخيرها تاركين المجال فسيحا لاصحاب الايديولوجيات اليمينية أو اليسارية خاصة للتحكم فى هذا القطاع عن طريق تبنى مشكلاته ذات الطبيعة الاجتماعية السياسية قبل ان تكون عقائدية اخلاقية. . فانى للاسلاميين ان يتفاعلوا مع هذا القطاع وهم يكتفون فى تناول كل المشكلات بالطرح العقائدى الاخلاقى ولا يتركون للقضية الاجتماعية غير مجال ضيق يكتفون فيه بترديد شعارات العدالة الاجتماعية دون تحديد لمضامين هذا الشعار. . فكان من الطبيعى ان تكون الاستجابة لنداءاتهم وسط العمال محدودة لانهم يطرحون عليهم مشكلات غير مشكلاتهم. . فلقد تطورت مشكلات المجتمعات وهم لا يتطورون فكانهم ينادون الناس من مكان بعيد.

ومثال ثان: القطاع النسائى:

وتأثير هذا القطاع على مصير المجتمعات لا تخفى اهميته، فيكفى ان نعلم ان نصف المجتمع على الاقل نساء والنصف الآخر يتربى بين احضانهن، لندرك الاهمية القصوى لهذا القطاع الذى ظل تفاعل الاسلاميين معه محدودا لنفس السبب وهو عدم الوعى بها لاقته وتلاقيه النساء خلال قرون الانحطاط الطويلة من مهانات ومظالم وتضييق لافاقها الانسانية ولدورها فى الحياة والحضارة، وطمس لشخصيتها وتحويلها الى شىء، الى متاع. . كل ذلك باسم الاسلام والاسلام من ذلك براء. . حتى اذا جاء الغزو الغربى يجرف فى تياره المدمر الاخضر واليابس من قيمنا مطيحا بكياننا الاجتماعى حاملا قيما خلبا: قيم الحرية والمساواة، كان من الطبيعى ان يكون تفاعل المرأة - وهى ترزح تحت اشكال شتى من المظالم - مع مغريات الغرب وكأن تلك المظالم كانت تجد مبررها فى الاسلام، اسلام الزيف، خاصة ازاء صمت (رجال الدين) عن تلك المظالم، وكان من الطبيعى ان تنطلق الثورة ضد تلك الاوضاع البالية من خارج الاسلام وان توجه المعركة ضده وان يرسخ فى ذهن المرأة ان الاسلام لا يعنى بالنسبة اليها غير الحجاب وهذا يعنى ملازمة البيت وامتاع الرجل، فلا علم ولا حرية ولا مشاركة فى صنع المصير الوطنى والانسانى وبالتالى فلا سبيل للحرية والعلم واثبات الذات غير التمرد على الاسلام وآدابه-كالحجاب-ومحاكاة الغرب فى حلوه ومره. حتى اذا انطلقت الحركة الاسلامية وجدت نفسها امام مجتمع مائع منحل فلم تر منه غير سطحه:

العرى والتبرج والخروج من البيت والاختلاط فثارت ثائرتها ضد هذه المظاهر داعية الى العودة الى الاسلام تاركةً انطباعا واضحا عند المرأة ان العودة للاسلام لا تعنى غير العودة الى اوضاع الانحطاط، وضعية الحريم وذوبان الشخصية والحرمان من حقها فى تقرير مصيرها. فكان من الطبيعى ان لا يلاقى طرح الاسلاميين الاخلاقى لقضية المرأة على انها قضية عرى وتبرج واختلاط وعمل خارج البيت غير الرفض واللامبالاة بل المقاومة والانحياز الى صف خصوم الدعوة الاسلامية ممن عزفوا ولازالوا على اوتار «تحرير المرأة» وهو شعار صحيح شريطة تحديد مضونه تحديدا صحيحا.

ان الطرح الاجتماعى الفلسفى لقضية المرأة ينتهى الى ان قضية المراة ابعد من ان تكون قضية تبرج وعرى واختلاط انها قضية اغتراب وظلم واستعباد، انها قضية انسان سلبه الانحطاط المغلف بالدين انسانيته وحقه فى تقرير مصيره وحوله الى شىء، الى متاع، وجاء الغرب بفلسفته المادية يزعم تحريره فما زاده الا استعبادا، وكل الذى فعله انه حول مواقع الاستعباد، فبعد ان كانت المرأة مستعبدة لرجل أو لاسرة غدت فى ظل فلسفة المادة والربح.. مستعبدة للمؤسسات الكبرى الرأسمالية والاعلامية والسياسية.. تتاجر بجسدها فتجعل منه دمية جميلة تزين بها واجهات المحلات واداة للاشهار وترويج البضائع والدعاية لرجال السياسة. فما احوج المرأة لحركة تحرر تعيدها الى ذاتها، الى فطرتها كأمينة على تراث الانسانية ورفيقة جهاد للرجل.. تحرر نفسها والرجل عبر حركة الجهاد ضد قوى الظلم والاستغلال فى العالم، تحرر نفسها من كل سلطان وتبعية الا الله ربها..

ومثال ثالث: الطاقة الجمالية:

ان الاحساس الجمالى من اهم خصائص الانسان. ويعبر الانسان عن هذا الاحساس بطرق مختلفة اصطلح على تسميتها بالفنون الجميلة، صورة أو لونا، ومع تطور وسائل التقنية وتعدد المشكلات الانسانية وشعور الانسان بالمأساة فى هذا العصر وتطاحن الايديولوجيات احتلت الفنون الجميلة اهمية بالغة على الصعيد الاقتصادى كمصدر اساسى لجنى المال، وعلى الصعيد الفكرى والعقائدى السياسى كخير اداة للدعاية الحزبية والعقائدية لتخدير الجماهير أو لتوعيتها وتثويرها. ورغم الاهمية البالغة التى أولاها الاسلام للجمال بكل معانيه واعتباره صفة لله وسبيلا الى الايمان بالصانع المبدع وعبادته.. فان هذه الطاقة الكبرى لا تزال معطلة فى الحركة الاسلامية.. لا يعنى بتربيتها على اعتبار ان الاحساس الجمالى مقوم اساسى من مقومات الشخصية الاسلامية.. بل لا تزال الحركة معرضة عن كثير من الفنون والاداب كالمسرح والسينما والرسم والغناء.. والتصوير، دون اى محاولة للتنظير وبيان الحد الفاصل بين ما يحل وما يحرم من الفنون، وتحريرها من المضامين الالحادية المائعة وتجذيرها فى تراثنا وقيمنا حتى تغدو سبلا ومحاريب لعبادة الله وتنمية الاحساس الجمالى لدى الجماهير وهو

قرين الايمان، وتوعيتها بقضايا البؤساء والمستضعفين ودفعها الى الثورة ضد الظلم من منطلق الايمان، فكم هى حاجة الدعوة الاسلامية ماسة الى رواد عظماء يستوعبون التجربة الفنية المعاصرة كل فى ميدانه، ويعملون على ترويضها وتحريرها وتجذيرها وتسخيرها فى ابداع فن اسلامى اصيل ومعاصر. انه لا مناص من ذلك اذا اردنا لنور الاسلام ان يتسلل الى القلوب وينيرها ويحركها ويحررها مما ران عليها من غشاوة الجاهلية المعاصرة ويعبئها بقيم الاسلام التحريرية العظيمة لتتعالى على كافة الاهتمامات والاديولوجيات، تتصل بالله العدل القوى الرحيم تستمد منه سبحانه طاقات لا تنفد من اجل تحرير البشرية من سيطرة الغرب ومهاناته واقامة حضارة انسانية مستقبلية على اساس العدل والتوحيد. فيا له من عمل عظيم لو ان له رجالا يقتحمون هذا العالم بفنونه وادابه وعلومه ومؤسساته ويستوعبون ويعدلون أو ينقصون، ويرسمون الطريق الى عالم جديد. يفعلون ذلك بجرأة وايمان موسى لا مخدر بنى اسرائيل وجبنهم ﴿قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون﴾ فاجاب رجلان منهم ﴿ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون﴾.

وفرق بين عقلية الاقتحام وعقلية الهروب.

نتائج العقلية المثالية

والعقلية المثالية التى ينظر الاسلاميون من خلالها الى واقعهم هى احد الاسباب الرئيسية المسؤولة عن عجزهم فى استيعاب ذلك الواقع وطاقاته المتحركة وتوليد فكر اسلامى يقدم للمسلم وعيا صحيحا بذلك الواقع وقدرة على تسخير طاقاته لصالح مشروعه الاسلامى الحضارى. تلك العقلية المنبتة عن الواقع هى المسؤولة عن الوضعية النخبوية التى آلت اليها كثير من الحركات الاسلامية فما عاد يلتف حولها غير مجموعات من المثقفين ثقافة متوسطة تظل معزولة عن واقع الجماهير لعدم استيعابها لمشكلات تلك الجماهير. وما تنجح فى استقطابه من الجماهير تعجز عن توظيفه وتأطيره فى مؤسسات المجتمع الثقافية والاجتماعية وتحويل تلك المؤسسات الى مواقع ضغط لصالح الاسلام، وبالتالى تظل القاعدة الاسلامية - مهما كانت واسعة - ضئيلة الفعالية والتأثير لان تكوينها الثقافى يعزلها عن وسطها ويحرمها من فهمه والقدرة على التعامل معه وتطويره تدريجيا بأن تطرح مشكلات غير التى يحس بها الناس ويتألمون منها. والحركة الاسلامية فى تونس ادراكا منها لطبيعة الاسلام الواقعية تجد نفسها مدفوعة الى ضرورة التخلص من الاطروحات المثالية للاسلام ولمنهج الدعوة اليه. فاذا كان الاسلام صالحا لكل زمان ومكان فان هذا الاسلام الخالد لن يقدر على التعامل مع واقع معين والتأثير فيه واحداث الانقلاب المطلوب فى مؤسساته وقيمه ما لم يتفاعل معه ويولى اهتماما كبيرا لخصوصياته ومكوناته. وقديما اكد فقهاؤنا على ان للعرف اعتباره كأصل من اصول التشريع.

المنهج القرآنى

ان القرآن الكريم، رغم طبيعته المتجاوزة للزمان والمكان، نستطيع من خلاله ان نستمد صورة واضحة عن حياة العرب فى عصر التنزيل من حيث معتقداتهم ومشاكلهم. وكان هذا المنهج الواقعى للقرآن ضروريا حتى يتم التفاعل بينه وبين القوم الذين قدر الله ان تكون انطلاقة هذا الدين على ايديهم.. فهو اذ يخاطبهم لا ينطلق بهم من عموميات ومجردات وانما ينطلق من واقع جغرافى وسياسى واقتصادى وعقائدى وثقافى وتاريخى يعيشونه ويشاهدونه ﴿وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل افلا تعقلون﴾، ثم يقوم ذلك الواقع بعد وصفه بدقة فيناقش بالحجة البينة فى الرفض أو التعديل ويقدم لهم البديل وينتهى بهم من الحدث السياسى أو العقائدى او الاجتماعى المحدد الى اقرار القواعد والقيم والقوانين الصالحة لكل زمان ومكان. وذلك هو المنهج العلمى التجريبى، المنهج الاستقرائى الذى ينطلق من الواقع فى جزئياته لينتهى الى القانون الذى يفسر تلك الجزئيات ويكشف عن قانونها المنظم لها الرابط بينها..

هذا المنهج التجريبى القرآنى تخلى عنه المسلمون بفعل عوامل كثيرة سياسية وثقافية واقتصادية واستبدلوه بالمنهج اليونانى التجريدى الذى ينطلق من المجردات والعموميات ليحاكم الواقع اليها وينظر اليه من خلالها... وهذا المنهج لئن كان صالحا فى دراسة العلوم النظرية كالرياضيات فقد كان ضرره بالغا فى دراسة حوادث الطبيعة وظواهر النفس والمجتمع اذ فصل العقل عن الواقع، وحول الثقافة الاسلامية الى ضروب من الجدل العقيم واحدث قطيعة خطيرة بين الواقع والعقل المسلم.

ولكى تزداد يقينا بما اقول افتح مجلة من مجلات الدعوة الاسلامية ثم حاول من خلالها ان تتعرف على طبيعة البيئة والظروف السياسية والاجتماعية للبلد الذى تصدر فيه، انك ربما تعجز عن معرفة حتى بلد الصدور اذا لم تستعن بقراءة العناوين.. واذا حدثتك عن اطراف من الواقع فلن تتجاوز التنديد بالجوانب اللا اخلاقية فى ذلك البلد كالعرى والفساد.. واما القضايا التى تتألم منها الجماهير فى ذلك البلد كقضايا البطالة والسكن والاستغلال والاستبداد وسوء الخدمات الصحية والمواصلات ووضعية الطفولة والمرأة (عدا قضية العراء والسفور) فقد غدت من اختصاص الحركات اليسارية وغدا الحديث عنها فى الادبيات الاسلامية هرتقة وانحرافا فى المنهج.

انـه ما لم يعد العقل المسلم الى واقعه يدرسه ويحلل اوضاعه ويتعرف على مشكلاته لا ليكون اسير ذلك الواقع وعبدا له يتخذه اماما وقائدا له يضغط عقله وشعوره.. ويدفعه الى اعتباره الاصل والاسلام تابعا، كلا، فهذا الدين جاء ليقود الحياة ويكون للبشرية اماما وللحق والباطل والشر ميزانا، بل ليتخذ من ذلك الواقع منطلقه فى الدعوة فيقدم الاسلام

على انه انفع وأوفق حل لما يعيش فى الواقع من مشكلات . . . ان عقائد الاسلام وتعاليمه لن تقبلها الجماهير وتتحمس لها وتضحى من اجلها ما لم ترتبط بآمالها فى حل مشكلاتها تلك العقائد والتعاليم : والا غدت دعوة الاسلام تجديفا فى الصحراء وضربا للحديد وهو بارد . فما هنـاك بد للداعية الناجح من استيعاب مشكلات الواقع وتقديم الحجة القاطعة . ان الاسلام هو المنهاج الاقوم للعلاج وتجسيد الآمال فلا بد اذا من ان يعاد الى الواقع ثقله فى الفكر الاسلامى حتى يكون هذا الفكر الاسلامى واقعيا ولا يكون وليد تأملات مجردة فى النصوص بل يكون وليدا لتفاعل عميق بين الاسلام والواقع المعاش الذى تعمل فيه الدعوة ، فيتولد من ذلك التعامل فكر اسلامى مرتبط ببيئة معينة وظروف معينة ، ولئن كان صالحا فى التأثير فى تلك البيئة وترشيد الدعوة الاسلامية فيها واحداث عملية التحول فى اتجاه اقامة مجتمع ودولة الاسلام فليس ضروريا ان يكون صالحا اذا انتقل الى بيئة اخرى ، بل قد يساهم - اذا لم تجر عليه التعـديلات الضرورية - فى تعطيل سير الدعوة وتعتيم العقول واصابتها بالشلل . ومن هذا المنـطلق ترى الحـركة الاسلامية فى تونس ضرورة اعادة النظر فى عدة منـطلقـات فكرية اسلامية عوملت فى السبعينات على انها من قبيل المسلمات والبديهيات الاسلامية ليميز ما هو اسلامى فى ذاته فيتلقى بالقبول وما هى مفهومات واجتهادات فى فهم الاسـلام ومنهاج العمل الاسلامى فرضت نفسها لسبب أو لآخر على المسلمين ردحا من الزمن وعوملت على انها الاسلام وان الخروج عنها او المس بها هو اعتداء على الاسلام وهى فى الحق ليست كذلك فى جوانب كثيرة منها ، فما ينبغى ان ترقى لهذه الدرجة ايا كانت مكانة الرجال الذين صدرت عنهم . وثابت ان ذلك التفاعل ضرورى بين الاسلام وواقعنا التونسى والمغربى لتوليد فكر اسلامى فى تونس وعلى مستوى مغربنا حتى تكون لنا القدرة على فهم مشكلات هذا الواقع وتقديم الحلول الاسلامية الناجعة لها وتفجير الطاقات وتوظيفها لصالح انجاز المشروع الحضارى الاسلامى فى هذه المنطقة .

الحركة الاسلامية والتحديث

محاضرة القيت بجامعة الخرطوم
الموسم الثقافى دورة ١٩٧٩ - ١٩٨٠

● مدخل:

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور انفسنا وسيئات اعمالنا - وصلى الله وبارك على محمد وعلى آله وصحبه وسلم. اساتذتى الكرام، ايها الاخوة المؤمنون السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ترى ماذا يفعل تلميذ يجد نفسه تجاه شيوخه واساتذته فى منصب الموجه الا ان يستعين بالله باذلا قصارى جهده فى ان يكون امينا فيما تعلمه، فان فاته فضل الابداء لم يفته فضل الامانة فى الفهم والنقل عنهم، حتى يطمئنوا الى ان جهودهم فى التربية والتعليم لم تذهب سدى بل صادفت قلوبا واعية. ذلك هو حالى - بالضبط - وقد شرفنى اخوتى اعضاء اتحاد جامعة الخرطوم بالدعوة للحضور والحديث اليكم اساتذتى واخوتى الكرام. ولا يفوتنى هنا ان ابلغكم تحيات اخوانكم الطلبة واخوانكم فى اسرتى مجلة المعرفة والمجتمع التونسيتين واكبارهم لعملكم وتجربتكم الرائدة فى القيادة الجماهيرية الطلابية وتمنيهم لكم بالنجاح فى مواجهة التحديات الخطيرة التى تواجه المجتمع السودانى وبقية المجتمعات الشرق - اوسطية والاسلامية عامة. ولئن كانت تحدياتنا متنوعة: سياسية، عسكرية، اقتصادية.. الخ فان جوهرها حضارى بمعنى ان افكارنا وقيمنا وما انبثق عنها من مؤسسات واساليب حياة لم تقدر على تلبية حاجاتنا وحل مشكلاتنا. وماتشهده بلداننا من فوضى ادارية وسلوكية واجتماعية وهزائم عسكرية وديكتاتوريات سياسية ليس الا تعبيرا عن هذا النمط الحضارى المتخلف الذى يسود بلداننا.

ان اسرائيل ومن وراءها لا يتحدثون بقوة السلاح ووفرة المال والرجال وانما بنمط حضارى يقدم لأفراد تلك المجتمعات قدرا من الاتجاهات والمسالك تتيح لطاقاتهم ان تثمر وتنتج وتتبصر على كل المستويات، على حين ان العكس تماما هو الذى يحدث فى بلداننا. ومن ثم فما نحن فى حاجة اليه ليس مجرد تقنيات نستوردها - كما يفكر فى ذلك بعض فتيان السياسة فى بلداننا - وانما ثورة حضارية تعيد البناء على اساس جديد. ثورة تزودنا بعقلية حضارية

وخلق حضارى وسلوك حضارى يستجيب لمكنوناتنا وحاجاتنا ويطلق طاقاتنا المعطلة ويعيد الحياة والحركة الى جسمنا المشلول. من هذا المنطلق نتحدث عن الاسلام والحركة الاسلامية.

ان البحث فى الاسلام والنضال من اجله خاصة لدى جيلنا الذى ترزح روحه تحت وطأة الهزائم العسكرية وتسلط الانظمة الديكتاتورية والتبعية الثقافية والسياسية والفقر والذل والحرمان، هذا البحث وذلك النضال لا ينطلقان من منطلق معرفى هو اشباع الرغبة فى المعرفة والاطلاع، ولا من منطلق صوفى يستهدف البحث عن ملجأ امين فى الاسلام ينجى الفرد من القلق والحيرة، وانما هى مشكلات الواقع المعيشى الحادة وفشل الحلول الغربية فى الخروج بالامة من المأزق. ذلك هو المحرك الكبير فى دفع الاجيال الى الاسلام وفى التزامها فى صفوف الحركة الاسلامية. فما هى الحركة الاسلامية؟ وماهى الصفات المشتركة بين فصائلها؟ ماهى تقنياتها واساليبها فى تغيير المجتمعات؟ ماهو اسهامها فى تجديد الفكر الاسلامى؟ وهل يمكن ان نتبين من خلال كل ذلك ملامح استراتيجية لحركة الاسلام فى الغد؟

تجديد الدين

اود ان القى نظرة قبل ذلك على حركة التجديد فى الاسلام، يقول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ «ان الله يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» ـ رواه ابوداؤود. لقد كان الانسان وسيبقى ابدا فى حاجة الى النبوة لكى يفقه معنى وجوده وليستبين نهج حياته وليقوم بدور الخلافة. وقد جاءت الرسالات تترى حتى نزلت آية ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا﴾ فكانت اعلانا صريحا بأن الانسان قد ترشد وقد فقه قانون السير الذى اراده الله لحياة البشر، فما عادت به حاجة الى ان يجلس الى جانبه باستمرار سائق حتى يقود سيارته. غير ان البشر تعرض لهم خلال مسيرتهم عوارض من الجهل بقانون السير او بطريقة تطبيقه إزاء حالات جديدة من التعقيد، فكانت الحاجة تدعو الى وجود رجال يعيدون للقانون نقاوته وينفون عنه ما التبس فيه من اوهام البشر وتجاربهم الناقصة ويعالجون على ضوئه ما يستجد من تطور الحياة ومشكلاتها ـ على ضوء النصوص الثابتة والغايات الكبرى للشريعة ـ مما يعيد للدين شبابه ويحفظ العلاقة بين المتطور والثابت، بين القرآن والزمان، وحتى يبقى القرآن قادرا ابدا على هداية البشر فى طريق الخير والحق والعدل. وان خلود الاسلام وبقاء امته انما يرجعان الى أمرين. الاول: مافى طبيعة هذا الدين من مرونة وانسجام مع الطبيعة البشرية وقدرة على تلبية احتياجات الانسان مهما بلغ مستوى تطوره. الثانى: ان الله ـ عز وجل ـ قد تكفل بمنح الامة الاسلامية رجالا اكفاء اقوياء يرثون الانبياء ويقومون بمهمة تنقية الدين من الشوائب وتقديم الحلول لمشاكل العصر على ضوء مبادىء الدين.

نشأة الحركات الاسلامية الحديثة :

لقد أسس النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ دولة كانت تجسيدا رائعا لمبادىء الاسلام فى العدل والحرية والاستقلال واستمرت هذه الدولة بعد وفاته تحت قيادة اصحابه، فرأت البشرية من خلالها آمالها ومثلها العليا وقد تحققت، فدخل الناس فى دين الله افواجا مما احدث بالاضافة الى ماجرته حروب الردة من خسائر فى صفوف الاصحاب الكرام ما اسماه ابو الأعلى المودودى بحق: الانقلاب الخطير فى مجرى التاريخ الاسلامى. اذ تسببت هذه الظاهرة فى تقلص عدد المسلمين فى الدنيا من ذلك النمط المثالى الرائع الذى كان مسلما حقا يطابق قوله فعله ومن جهة اخرى تصاعدت نسبة الذين هم وان كانوا قد دخلوا الاسلام اعجابا بمبادئه الا ان الناحية السلوكية واحيانا العقائدية فيهم لم تكن منطبعة كليا بطابع الاسلام. وهذه الظاهرة قادت الى انقلاب خطير. وأولى النكبات هى التباعد التدريجى بين الدين والسياسة حتى لم يبق من الخلافة مع مرور الزمن الا رسمها. وجاء الاستعمار الحديث ليهدم هذا الرسم ولتنشأ فى العالم الاسلامى الدولة العلمانية والدولة الاشتراكية والدولة التى تزين دستورها بالاسلام.

لقد احدث سقوط الخلافة وماسبقه ولحقه من غزو استعمارى صدمة عنيفة فى شعور المسلم أيقظته من نومة الانحطاط وازالت عنه الطمأنينة المزيفة التى كان يعيش عليها بأنه على كل حال هو من خير أمة اخرجت للناس. ومما زاد فى هذه الصدمة واستفزاز شعور المسلم ماصاحب الحملة الصليبية على العالم الاسلامى من غزو ثقافى وتبشيرى يجتث الثقافة الاسلامية من جذورها وينشىء جيلا من المسلمين منبتاً عن جذوره مولعا بالمستعمر ـ شأن المغلوب مع غالبه ـ فلا عجب ـ والحال هذه ـ ان كان السؤال المطروح فى العالم اسلامى فى اوائل هذا القرن: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ وكان الجواب على نحوين متناقضين لا يزالان حتى اليوم يقسمان العالم الاسلامى الى معسكرين متصارعين. الجواب الاول: ان مشكل التخلف يكمن فى الاسلام ذاته فلابد من تطويره وتحويره حتى ينسجم مع الغرب فيلحق المسلمون بركب الامم المتقدمة، وتطور هذا الجواب عند الماركسيين الى الدعوة الى التخلى عن الاسلام جملة ومحاربته. ولذلك كانت ليبرالية طه حسين تمهيدا لماركسية لطفى الخولى و عبد الله العروى.

الجواب الثانى: ان المشكل يكمن فى المسلمين لا الاسلام. تخلى المسلمون عن الاسلام فى صورته الحقيقية فحدث الانحطاط. والحل حركة تجديد تمسح عن الاسلام غبار الانحطاط فيستعيد حيويته وقدرته القيادية على ايجاد مجتمعات اسلامية ليست متقدمة فحسب بل تمثل اعلى صور التقدم. واذا كان الاتجاه الاول قد تبلور فى مجموعة من الحركات الوطنية والقومية والاشتراكية التى استمدت وتستمد صورها ومثلها من الغرب الرأسمالى والاشتراكى وهى التى حكمت العالم فى مرحلة مابعد الاستقلال وظهر فشلها واضحا فى

احداث نهضة فى العالم الاسلامى بل اتجه المسلمون فى ظل قيادتها الى مزيد من التبعية للغرب ومزيد من الهزائم العسكرية والاقتصادية والممارسات الديكتاتورية البشعة، فان الاتجاه الثانى قد عبر عن نفسه على لسان عدد من المفكرين والعلماء المجددين كالافغانى واقبال ومصطفى صبرى والسنوسى وابن باديس وتبلور واخذ شكلا واضحا على يد الامام البنا والمودودى وقطب والخمينى ممثلى اهم الاتجاهات الاسلامية فى الحركة الاسلامية المعاصرة. واخذ دور هذه الحركات - لا على المستوى المحلى بل على المستوى العالمى - يتنامى ويزداد. بالاضافة الى انها رغم انها تندرج فى خطها العام فى سياق حركة التجديد المتواصلة عبر التاريخ الاسلامى فان مفهومها للتجديد اخذ بعدا جديدا هو التأسيس أى اعادة البناء من الاساس، ذلك انه طالما بقيت الدولة الاسلامية قائمة ولو فى شكلها الانحطاطى فان عمل المجددين كان عبارة عن عملية اصلاح وترميم وتقويم للمعوج ونبذ للدخيل على الاسلام، وفى هذا الاطار كان عمل ابن حزم وابن تيمية. اما وقد سقط البناء جملة واصبح الاسلام غير معترف له بالحاكمية والسلطان فقد لزم ان يكون التجديد لا اصلاحا بل تأسيسا، ومانشهده اليوم على ساحة العالم الاسلامى هو تجديد من هذا النوع. فقد سقط المجتمع الاسلامى القديم وانتهت بذلك دورة من دورات الاسلام الحضارى، واليوم يبدأ الاسلام مع نجاح الثورة فى ايران وباكستان دورة حضارية جديدة.

ماذا نعنى بمصطلح الحركة الاسلامية؟

ان للدعوة للاسلام والتحرك به أساليب واتجاهات كثيرة كالوعظ والارشاد ونشر العلم والتربية على العبادة والذكر وانشاء مؤسسات صحية وثقافية وللخدمات الاجتماعية. ولكن الذى عنينا من بين ذلك الاتجاه الذى ينطلق من مفهوم الاسلام الشامل مستهدفا اقامة المجتمع المسلم والدولة الاسلامية على اساس ذلك التصور الشامل. وهذا المفهوم ينطبق اكثر ماينطبق على ثلاث اتجاهات كبرى، الاخوان المسلمون، الجماعة الاسلامية بباكستان وحركة الامام الخمينى فى ايران. وماتبقى من اتجاهات اسلامية اما هو تابع بشكل او آخر لأحد هذه الاتجاهات او هو مبتدىء لم يتبلور بعد، او انه قاصر عمله على جزئية من جزيئات الاسلام والعمل الاسلامى كالوعظ والدعوة والارشاد والتربية والذكر.

مقومات الحركة الاسلامية

ماهى اهم العناصر التى تشكل ماهية الحركة الاسلامية؟

١ ـ *الشمول* :

اول هذه المقومات فكرة الشمول، فالاسلام فى هذه الاتجاهات الثلاثة يؤخذ على انه كل مترابط، كل جزئية فيه ترتبط بغيرها. فالعقيدة والشريعة والعبادة كل متكامل ومن ثم لا مجال للتفريق بين الدين والسياسة والدين والدولة.. والنصوص الصادرة عن كل هذه الاتجاهات كثيرة اكتفى بنص للامام الخمينى يقول فيه: «ان اول واجبات الفقيه العارف بأحكام الشريعة هو النهضة والقيادة من اجل اعلاء كلمة الله فى الارض والجهاد المستمر لتطهير ارض الله من اعداء الله عز وجل. عرفوا الناس بحقيقة الاسلام حتى لا يظن جيل الشباب ان اهل العلوم فى زوايا النجف يرون فصل الدين عن السياسة وانهم لا يمارسون سوى دراسة الحيض والنفاس ولا شأن لهم فى السياسة. ان النضال السياسى واجب وطنى».. ومن نتائج فكرة الشمول هذه العمل على تكوين دولة اسلامية. ولقد بذلت الاتجاهات الاسلامية الثلاثة جهودا جبارة لتحقيق هذا الهدف. ومن فروع النظرة الشمولية للاسلام اعتبار المسلمين كلهم على مابينهم من خلافات كيانا واحدا فرقته احداث الزمان، وفرض على المسلمين بعث الكيان الدولى للاسلام.

ومن ابعاد فكرة الشمول ـ ايضا ـ الاهتمام بالقضية الاقتصادية والاجتماعية. يقول الامام الهضيبى: «يجب على ولى الامر ان يساعد الناس على ايجاد اعمال لهم ويتعهدهم حتى يصلح حالهم. فاذا كان دخل الانسان لا يكفيه وكان غير قادر على العمل فهو فى كفالة الدولة. فاذا لم تكف الزكاة لسد حاجات الفقراء اصبح فرضا على كل من عنده فضل من المال ان يعود به على الفقراء فاذا منع الفقير حقه فان له ان يقاتل عليه».

٢ ـ *القضية الوطنية* :

ومن هذه المقومات الاهتمام بالقضية الوطنية. انه لا تناقض فى نظر الحركة الاسلامية بين العالمية والوطنية اذ الوطنية هى منطلق العالمية، وان عناية المسلم باصلاح وطنه واجب دينى، اذ كلما تقدم هذا الوطن الا واصبح اقدر على إعانة الاوطان الاسلامية الاخرى والناس حيثما كانوا. يقول المودودى: «ان الجماعة الاسلامية ليست بجماعة تستهدف القومية الوطنية ولا تقتصر دعوتها الى أمة بعينها ووطن بعينه بل الدعوة التى ترفعها عالمية الاهداف، غير ان

الجماعة تؤمن اننا معشر المسلمين فى باكستان مادمنا لا نجعل بلادنا مثلا حيا للنظام الاسلامى فاننا لا نقدر على اقناع الناس بسلامة هذه العقيدة». فالمسلم اذا وطنى وليس احد اولى منه بهذه الصفة لانه الامتداد الحقيقى لثقافة الوطن وامجاده، وغيره ممن لا يحملون دعوة الاسلام هم غرباء عن هذا الوطن بل هم بقايا تركها المستعمر بعد انسحابه.

٣ ـ *السلفية* :

ومن مقومات هذه الحركة السلفية، ونعنى بها استمداد الاسلام من اصوله دون تعصب لما وجد فى تاريخ الاسلام من نظريات واجتهادات. فالاصل ماورد فى الكتاب والسنة وعصر الخلفاء. يقول البنا: «وتستطيع ان تقول ولا حرج عليك ان الاخوان المسلمين دعوة سلفية لانهم يدعون الى العودة بالاسلام الى معينه الصافى كتاب الله وسنة رسوله». ويقول الامام الخمينى عندما سئل عن نظام الحكم الذى يسعى اليه هل هو سنى ام شيعى؟ فأجاب: «اننا نريد ان نحكم بالاسلام كما نزل على محمد ﷺ». ومن ثم فان تهمة الوهابية ظلت تلاحق الحركة الاسلامية فى كل مكان مما جعل الامام الخمينى يندد بأولئك الذين لا شغل لهم الا بالجزئيات واتهام فلان بكذا أو آخر بكذا. يقول: «هنالك أجهزة معروفة تسعى لاثارة الضجة حول مسائل ثانوية، فعلى سبيل المثال يضيعون مناسبات ثمينة وفرصا غالية فى الحديث عن ان زيدا من الناس كافر، او فلانا مرتد او ان فلانا وهابى المذهب» وذلك بسبب عمل الحركة الاسلامية فى ايران المتواصل ضد التراث البدعى الذى ورثوه وورثناه جميعا عن عصر الانحطاط. ولا تعنى السلفية هنا ـ كما هى عند البعض ـ حربا على المذاهب الفقهية او العقدية. كلا، فهذا تمزيق لكيان الامة. وانما السلفية تعنى اولا التحرى فى معرفة حكم الله من الكتاب والسنة قدر المستطاع، ثانيا عدم التعصب للمذهب والاشتغال بالدعوة اليه حتى يصبح المذهب بديلا عن الاسلام دون التسامح مع المخالف، واعتبار اخوة الاسلام فوق اخوة كل فرقة وكل مذهب. ويلحق بالمعنى السلفى تجميع المسلمين حول ماهو معلوم من الدين بالضرورة ابعادا للخلاف وتوحيدا للصفوف حسب القاعدة: «نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه».

٤ ـ *البعد الايمانى* :

ومن مقومات الحركة الاسلامية البعد الايمانى أى ان الحركة الاسلامية تؤكد فى تربيتها على ضرورة الاخذ بالاسباب ولكن مع الاعتقاد بأن هذه الاسباب لا تؤدى الى نتائجها الا باذن الله.

٥ ـ الشعبية :

ومن مقومات الحركة الاسلامية ايضا الشعبية وهى ان الحركة الاسلامية ليست حركة فئة معينة او طريقة صوفية تحصر عملها فى مجموعة المريدين. انها ضمير الامة المتحرك واعماقها الثائرة. ومن ثم فهى ترفض مقولة الصراع الطبقى وتعتبر ان الاسلام ـ والاسلام وحده ـ قادر على ازالة كل الوان الظلم والاستغلال داخل المجتمع الاسلامى. ولكن فى مجتمع لا يطبق الاسلام حقيقة، تتولد الفوارق الطبقية. والحركة الاسلامية عندئذ تجد نفسها منحازة الى صفوف الفقراء بأمر من الله ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾. ﴿عبس وتولى اذ جاءه الاعمى . . .﴾، «اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين». فحتمٌ على الحركة الاسلامية ان تحشر نفسها فى زمرة المساكين.

ولقد استطاعت الحركة الاسلامية المعاصرة ان تحرر ـ الى حد ما ـ الاسلام من الطبقة الحاكمة. والاسلام يتحول كل يوم وفى أكثر من بلد من ان يكون ملكا لحاكم لان يكون ملكا للشعب والذى حدث فى ايران هو تسلم الجماهير للاسلام. لقد بدأت فى ايران عملية لعلها من أهم مايمكن ان يطرأ فى مسيرة حركات التحرر فى المنطقة كلها، وهى تحرر الاسلام من هيمنة السلطات العاملة على استخدامه فى وجه المد الثورى فى المنطقة.

من انجازات الحركة الاسلامية

لقد ورثت الحركة الاسلامية تركة ثقيلة من عصر الانحطاط: جمود وعطالة فى الفكر ونمط فردى قبلى ديكتاتورى من الحضارة زاده الغزو الفكرى ثقلا. ورغم ذلك فقد استطاعت الحركة الاسلامية ـ بفضل الله ـ بعد جهاد طويل خلال ربع قرن من الزمان ـ ان تنفض عن الاسلام غبار عصر الانحطاط وأن تحرره من هيمنة ثقافة الغرب وان تقدم للأمة عنه تصورا شاملا تتجاورُ وتتناسق فيه الجوانب السلوكية والعقائدية والاجتماعية. كما استطاعت ان تنزل بهذا التصور الشامل ساحة المعركة على المستوى الشعبى تناضل ضد الخرافة والبدع، تناضل على مستوى المراكز الثقافية التى أقطعها الغرب تلامذته فاحتكروا سلطة القيادة والتوجيه فيها. نزلت العناصر الاسلامية هذا الميدان فأبلت خير البلاء واستطاعت بعد كفاح مرير ان تنقذ جانبا كبيرا من هذا الجيل من بين براثن الغرب وبراثن الانحطاط، وتسلمت الحركة الاسلامية اليوم فى أغلب الجامعات فى العالم الاسلامى على المستوى الطلابى ـ على الاقل ـ مراكز القيادة. واجتماعنا هنا فى ظل هذه المؤسسة المباركة هو ثمرة لهذا الجهاد الطويل الذى خاضته الحركة الاسلامية فى السودان. ولو شئنا ان نستمر فى رصد مكاسب الحركة الاسلامية المعاصرة على المستوى الفكرى او مستوى الحركة لطال بنا الحديث، ويكفى لأخذ فكرة عن

هذه الانجازات ان نعلم ايها الاخوة ان الخلافة العثمانية فى القرن التاسع عشر استبدلت القوانين الاسلامية بقوانين غربية فيما يسمى بالتنظيمات كما فعل باي تونس نفس الشيء سنة ١٨٦٤م دون ان تحرك المؤسسات الدينية ساكنا لا بسبب جبن وانما لانعدام الوعى بأن تلك القوانين تمثل جوهرا فى الاسلام.

اما على المستوى التعبدى الشعبى فلاتزال بعض الصور الانحطاطية قائمة فى بلداننا حتى اليوم. وعلى المستوى الثقافى فقد كان الخيار امام المثقفين فى اوائل هذا القرن حاسما بين الاسلام والرضى بالجهل والتخلف او العلم مع مايصحبه حتما من تحلل والحاد.

المشكلة الكبرى للحركات الاسلامية:

قلت ان التهوين من انجازات الحركة الاسلامية خاصة من طرف هذا الجيل الذى فتح عينيه على مفاهيم اسلامية ناضجة وأساليب فى التربية والتوعية وعلى جماعة اسلامية مناضلة لهو من أخطر مايمكن ان تصاب به الحركة الاسلامية. ولكن على نفس المستوى فان اقبال الجموع الكبيرة عليها سيطرح امامها سؤالا هاما: ماذا ستفعل بهذه الجموع المقبلة عليها؟ كيف ستوظفها فى خطة التغيير فى الخطة الحضارية؟ حتى لا يغدو عملها ـ كما يقول المرحوم مالك بن نبى وهو يتحدث عن عمل الانسان المتخلف ـ الجمع والتكثير. ومعلوم ان أكواما من الحجارة مهما كثرت لن تصنع بناء مالم تدرج ضمن خطة مسبقة، ومن هنا ظل العمل الاسلامى فى حالة سماها فتحى يكن حالة التكامل والتآكل، كلما ارتفع البناء قليلا وابتهجنا بانه اوشك ان يكتمل انهار لأول دفعة من يد قوية، بل احيانا يسقط من تلقاء عدم تماسكه الداخلى.

ان حال العمل الاسلامى هذا يشبه حال التقنية القديمة. لقد كانت التقنية القديمة تقوم على مجرد التجربة والخطأ. ان الفرق بين التقليدى والمهندس هو أن البنّاء التقليدى يبدأ عملية البناء وفقا لفكرة مسبقة غير مدروسة عن نوع البناء الذى يريد فان سقط البناء أعاده على نحو آخر حتى يستقر. اما مهندس البناء فيبنى البيت فى رأسه قبل ان يجهزه فى الواقع، يبنيه كفكرة ثم يجسم الفكرة على الورق مقالا وفق حسابات هندسية، فاذا استقر البناء الهندسى على الورق انتقل يجسده على الواقع مستندا الى علم الهندسة. وبذلك تغدو التقنية كما هى فى الواقع تطبيقا للعلم، ويوفر الانسان على نفسه جهودا كثيرة. اما البناؤون المسلمون فلا يزالون مجرد رجال تقنية تقليدية، وهم فى أحسن احوالهم يمارسون تجربة المحاولة والخطأ. اما فى حالات أخرى فهم على تكرار أخطائهم ماضون دائبون وذلك راجع الى العطالة التى اصابت عقل المسلم فما عاد يفقه أبعاده ولا الواقع فى تعقيداته ولا السبيل الى نقل الاسلام الى الواقع ولا الارتفاع بالواقع الى الاسلام. ان عقل المسلم ظل قرونا طويلة مترنحا بين سكرة نواسية وشطحة حلاجية فاذا أفاق منهما عالجته بطشة حجاجية. وان آثار هذه الشطحة وتلك السكرة لاتزال عالقة تغشى الأبصار وتمنع الرؤية الصحيحة والتخطيط العلمى على ضوء المعطيات الواقعية.

الاستراتيجية والتغيير الحضارى:

انه على حين حشدت كل الاطراف السياسية خطتها للتغيير بدأ الاسلاميون يكدسون ولا يبنون. انه لمكسب عظيم ان تربى الشباب الصالح فى مجتمع يذخر بالاغراءات ولكن هذه التربية نفسها ينبغى ان لا تكون معزولة عن استراتيجية الحركة الاسلامية فى التغيير فى المجتمع. ان فى جسد المجتمع كما فى جسد الفرد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله. ولقد حدد القوميون هذه المضغة فعمدوا الى الجيش يكثفون فيه نشاطهم حتى بلغوا مراكز قيادية فيه انطلقوا منها للسيطرة على المجتمع كله. وحدد الشيوعيون هذه المضغة فانطلقوا الى النقابات خاصة وجعلوها مكانا لعملهم يجندون الطبقة العاملة ويوهنون السلطة حتى تضعف وينقضوا عليها وينقضوا على المجتمع كله. بينما الحركة الاسلامية لم تحدد بعد هذه المضغة الاجتماعية وظلت توزع جهودها على كل المستويات فتبقى ضعيفة فى كل المستويات. لا تقود افرادها وانما تتبعهم من وراء فلا تحدد للطلبة ـ مثلا ـ المنتمين اليها اختيارات وتخصصات محددة لخدمة خطتها لانها ليست لها خطة. وآية ذلك ماترى عليه الاسلاميين من اقبال على الكليات العلمية والتخصصات الطبية والهندسية لسبب واحد هو الاغراءات المالية التى تقدمها للخريجين وتضاءلت بذلك العناصر الاسلامية فى الكليات الانسانية والتخصصات العسكرية. والنتيجة ان العناصر الاسلامية آل امرها الى ان تعمل عناصر تنفيذ تبنى السدود والمشاريع الزراعية وتداوى مرضى الخصوم. ونفذت العناصر القومية والشيوعية الى مراكز القيادة السياسية والثقافية فى مجتمعاتنا حتى ان الصحف الاسلامية تعانى عجزا كبيرا فى المحررين ورجال الأعلام.

بعد نصف قرن من العمل الاسلامى انتج رجالا صالحين ولكنهم محدودو الفعالية بل هم اعوان فى ادارة الدواليب التى يعارضونها. ينجحون فى عملهم المهنى بقدر ما يفشلون فى دعوتهم. وليست فى هذا ـ ابدا ـ دعوة لشعارات فقدت دورها كشعار مفاصلة الجاهلية والهجرة والتكفير، وانما تشخيص لواقعنا المؤلم. لقد فشل العقل المسلم فى الحركة الاسلامية فى فهم واقعه والتخطيط له بسبب ما ران من غبار عصر الانحطاط ومخاوف الحاضر وبسبب ردود الافعال، فانفصل بذلك عن الواقع واستمر انفصال الدين عن الحياة فى مجتمعاتنا وانفصال الدين عن السياسة والتأثير والمشاركة فى توجيهها رغم ان الحركة الاسلامية بدأت برفض الفصل بين الدين والدولة. باختصار لا مناص للعمل الاسلامى من تنظير لاستراتيجية تخرج بالحركة والامة من الدوامة وتستجيب للتحديات الكبرى التى تواجه المنطقة. اكتفى هنا فى هذه العجالة بتقديم مبادىء ضرورية فى وضع هذه الاستراتيجية، هى مجرد توصيات وليست خطة، هى مجرد معطيات لابد من توفرها ووضعها فى الحساب.

مبادىء أساسية
فى استراتيجية العمل الاسلامى

أولا : لابد من تحديد موقفنا من التراث. ماذا نأخذ منه وماذا نترك؟ ما هو ملزم لنا وما هو غير ملزم. ما هى القيم الايجابية الباقية من تراثنا لنحتفظ بها وما هى القيم السلبية بعيدا عن موقفى التقديس والاحتقار؟

ثانيا موقفنا من الغرب : هل هو سلسلة من الاخطاء والاباطيل والارتباكات ـ كما يجتهد الاسلاميون فى تصويره ـ وانه قاب قوسين او أدنى من الانهيار ـ وكأنهم يريدون ان يبشرونا بوراثتنا له ـ مع انه حتى وان سقط الغرب فانه ليس بالضرورة ان نكون نحن الوارثين لانه يرث الأرض أصلح من فيها. فهل نحن اصلح من فيها الآن؟ واذا كان الغرب سلسلة من الاخطاء فكيف استطاع ان يفرض هيمنته قرونا طويلة على العالم؟ هل يرتفع على الباطل بنيان؟ كلا، وهل الغرب مقابل ذلك المثل الاعلى للمدينة؟ هل هو النموذج الصالح للتطبيق فى كل زمان ومكان مهما اختلفت الظروف؟ ماذا نأخذ من الغرب وماذ نترك؟ هل نستفيد ـ كما ألح الاسلاميون ـ باستعارة تقنياته مع رفض كل قيمه وتنظيماته ومؤسساته؟ وحتى لو كان هذا ممكنا نظريا وعمليا، هل هو صالح لنا؟ أليس فى تنظيمات الغرب الادارية والسياسية وعلومه الاجتماعية ما يمكن ان نحرره من اطاره المادى ونضعه فى سياق حضارى اسلامى كما فعل اسلافنا مع كثير من المعابد الفارسية والرومانية التى هدموها ولكنهم سكبوا احجارها فى بناءات اخرى بعضها مساجد لا نزال نستظل بها حتى الآن.

ثالثا : تحديد نظرتنا الى واقعنا بعيدا عن كل فكرة مسبقة. أهو جاهلى أم اسلامى؟ والسلطة التى تحكمه كذلك وفئاته وتجمعاته السياسية والدينية: نتعاون معها ام نفاصلها؟ ما هو الحد الادنى الذى يمكننا ان نلتقى فيه مع كل التجمعات الدينية والسياسية؟.

رابعا : ما هى اداة التغيير؟ القوة والاكراه ام الحرية والاقناع؟ هل نؤيد الانقلابيين فى العالم الاسلامى ام نعتبرهم غاصبين انتهازيين؟ هل نمد اليهم ايدينا اذا ما فعلوا ذلك ام نعتبر ان شر ما تبتلى به امة على الاطلاق النظام العسكرى؟ وان الانقلابى ـ كل انقلابى ـ رجل مغرور يقفز الى السلطة فى حالة غفلة من الوعى من الشعب فيستبد بالامر دون الناس جميعا، ويحيط نفسه بكل منافق لئيم، يصفقون له حتى يخيل اليه انه اتى بما لم يأت به الاوائل وان الدهر لم يجد بمثله، ويعتبر نفسه الزعيم المنقذ، بل حكيما من الحكماء، بل حَكَماً بين الحكماء؟ أم نعتبر ان الشعب بعد الله هو السلطة العليا فى المجتمع، فلا حق لاحد فى ان يكون وصيا عليه لانه ليس طفلا ولا سفيها بل هو خليفة الله فى ارضه مصرين على ان الجهاد من اجل الحرية هو جهاد من اجل الاسلام، وان من حق كل التجمعات السياسية ان تتكتل لاستعادة الحرية المغتصبة المؤودة فى العالم الاسلامى؟ اننا ينبغى أن نرفض الديكتاتورية فى

كل اشكالها ولو مارسها مسلم يدعى انه يريد ان يحمل الناس على الاسلام. اذ قد اباها الله حتى على انبيائه فكيف نجيزها نحن للعساكر المغرورين؟ ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾.

فاذا تحقق لنا نظام يعترف بالحريات فينبغى على الحركة الاسلامية ان تمارس حقها كطرف سياسى معترفة بغيرها من الاطراف السياسية الاخرى مقدمة اختياراتها للنموذج الاجتماعى الذى تريد. فتخوض المعارك الانتخابية وتضع مواطن اقدام لها فى البرلمان ومؤسسات المجتمع كالبلديات وتشارك فى الحكم ولو جزئيا لتدريب افرادها على ادارة المؤسسات وعلى قيادة الجماهير وتعبئتها وتوعيتها باهداف الحركة الاسلامية. اذ المجتمع الاسلامى لم ينزل من السماء مكتملا ولا سقط فى يوم انما بنى حجرا حجرا وسقط حجرا حجرا، هكذا اعادة البناء. وفى هذه الحالة اذ تعترف الحركة الاسلامية بالشرعية القانونية للدولة على اعتبار انها مختارة من الشعب فانها ما دامت هذه الدولة لا تحكم بالاسلام لا نعترف لها بالشرعية الدينية حتى يكون الدين هو قاعدة المجتمع والتشريع وهنا ينبغى الحذر من ان يظن الشعب ان السلطة غدت اسلامية لمجرد مشاركة بعض الاسلاميين فى اجهزتها. اما اذا كانت السلطة تغتصب إرادة الشعب، فالحركة - فى رأيى - لا ينبغى ان تترك اى لبس فى ذهن الشعب من هذه السلطة لا هى اسلامية ولا هى قانونية ما دامت لا تسمح للشعب بالتعبير عن إرادته وحريته فى التجمع. وعندئذ فليس امام الحركة الاسلامية الا الثورة الشعبية التى تنتهى بتكتيل الشعب صفا واحدا فى وجه السلطة الجائرة كما حدث فى ايران أو الثورة المسلحة التى تدفع الشعب لحمل السلاح فى وجه السلطة الجائرة كما حدث فى افغانستان ولعله بدأ يحدث فى سوريا. فهناك اذن ثلاث طرق واضحة للوصول الى الحكم كلها الشعب اداتها: الحل الديمقراطى: الثورة الشعبية والثورة المسلحة. وحل اخر اداته العسكر ما احسب انه ينسجم مع قيم الاسلام الذى اعتبر الجهاد من اجل الحرية على رأس اهداف جهاده الدائم.

خامسا: الدعوة للاسلام من خلال حاجات الناس وهمومهم. واهم هذه الحاجات والمطامح التحرر من كل تبعية للاستعمار بكل اشكاله والتحرر من الانظمة الاستبدادية فى الداخل وتحقيق العدالة الاجتماعية. فيجب ان نربط ربط اقتران بين الاسلام وحاجات شعوبنا حتى تستيقن هذه الشعوب ان نضالها من اجل الاسلام هو نضال من اجل امالها ومطامحها. ذلك ان الحركة لا تنتصر فى مجتمع الا اذا جسدت آماله. وان الحركة الاسلامية حالفها النجاح بسبب تصديها لأعداء الأمة، وانما تزحزحت عن مركز القيادة فى اوقات اخرى بسبب موقفها غير الواضح من الهموم الكبرى للامة وممالأتها للسلطان الجائر. ولقد آن للحركة الاسلامية ان تغادر مواطن الحذر والتردد وتلتحم بضمير الشعب وقضاياه معتمدة على ربها ثم على رصيدها الشعبى.

سادسا: التربية المتكاملة على المستوى الفكرى: تنمية الروح النقدية الموضوعية فى الحكم ومحبة الحق والاذعان له حتى يكون الولاء للفكرة لا للشخص ومحبة العلم وتوقير العلماء دون تعصب، والاقرار بالخطأ فى حقهم اذا وقع، وتبنى الخطأ فى احدهم فكل ابن ادم خطاء

والحكمة ضالة المؤمن، فنتحرر بذلك من العقلية المانوية التى تعتبر ان الاشياء اما خير مطلق واما شر مطلق. وعلى مستوى التربية الروحية نوثق صلات الفرد بربه وتفكره فى لقائه والاستعداد ليوم الميعاد وهى من أوجب واجبات الحركة الاسلامية فى عصر طغت فيه المادية واستفحلت الشهوات مما جعل بناءنا الحركى مهما سما على جرف هار. فلا مناص من اعتبار التقوى اسمى قيم الاسلام والميزان الاول الذى يوزن به الافراد مهما كانت صفاتهم وبذلك نقلل من امكانية الانحراف ويرتفع مستوى تضحية الافراد باموالهم وأوقاتهم وارواحهم وتغدو الشهادة اسمى امانى المسلم وتجنب الافراد الامراض النفسية كالكبر والغرور والنفاق وحب الظهور والرياء والجدل، ولكم فتكت هذه الامراض بجسم الحركة.

سابعا: ومن هذه المبادىء العالمية فى الحركة الاسلامية تحقيقا لمبدأ التوحيد وهو اساس العقائد الاسلامية وارضاء للرب، فضلا عن ان العالمية هى روح العصر بدلا عن فكرة القومية الوطنية - التى سادت فى القرن التاسع عشر فى اوربا - مما يجعل الداعين الى الاسلام ليسوا على انسجام لا مع دينهم ولا مع عصرهم. والعالمية فى العمل الاسلامى ليست البديل للوطنية فانما هى معنى يضاف اليها ويكملها ويثريها. ان العمل الاسلامى العالمى رمز لوحدة الامة وهو تعويض للخلافة وقتيا وهو اطار لتبادل التجارب والخبرات ورسم السياسات الاسلامية الكبرى دون مس بالتجارب المحلية فاهل مكة ادرى بشعابها. ولماذا يكون لليهودى وكالة يهودية عالمية ويكون للمسيحى المجمع الكنائسى العالمى وللشيوعية المؤتمر الشيوعى العالمى وللاوربيين البرلمان الأوربى والسوق الأوربية المشتركة وللعرب الجامعة العربية ولا يكون للعاملين للاسلام مؤسسة عالمية إلا أن نكون متخلفين عن ديننا وعصرنا.

ثامنا: اعتماد التخطيط وهو روح العصر. والكم مبدأ اساسى فى التخطيط. وكثيرا ماتهمل طريقة القياس الكمى وتلغى برفع شعار: المهم الكيف لا الكم، مع ان احدى اهم خصائص عصرنا - خصائص العلم الحديث - تحويل الكيف الى كم، الى مقدار قابل للقياس. والقرآن يعتبر الكم مبدأ اساسيا فى بنية الكون ﴿وكل شىء عنده بمقدار﴾ وحيث لا وجود للقياس الكمى تغدو عملية تقويم عملنا ومحاسبة انفسنا شبه مستحيلة. ولا ينبغى أن ينسينا التخطيط ابدا انه بغير مدد من الله يأتينا وتثبيت منه وتوفيق فلن نكون شيئا.

ومما يجب مراعاته فى التخطيط لتجاوز التحديات ايجاد مجالات لتوظيف طاقات الشباب الذين تملأهم الحركة بالحماس لانه ان لم توجد هذه المجالات تعرضت الحركة لكثير من الانحرافات. وليست ظاهرة التكفير والهجرة الا نتيجة لعمل اسلامى لم يوجد مجالات للتغيير فى المجتمع كالنهر المتدفق الذى ينساب فى جوانب مختلفة اذا لم يشق له الطريق.

ومن هذه العوامل اعتبار عامل الزمن اساسا فى حركتنا فلابد للحركة ان تطور نفسها باستمرار. ومنها ايضا الواقعية: ونعنى بها تقدير امكانياتنا وامكانيات خصومنا والتخلص من وسواس التآمر الذى تصاب به الحركة الاسلامية فتتخيل ان العالم كله يتآمر عليها، ﴿يحسبون كل صحة عليهم﴾. صحيح ان العالم يكرهنا ولكن السياسات لا تبنى على

المبادىء فقط، وانما تبنى على المصالح وليس من المستحيل ان تلتقى مصالحنا فى خطوة من الطريق مع مصالح أعدائنا.
ان نعيد للجماهير الوعى والسلطة وان نخطط لكل طاقات المسلمين وان اختلفوا معنا فى الرأى ولابد من التسلح بالجرأة والشجاعة للدخول على العالم الحديث ومؤسساته كالتمثيل والسينما لنحررها بدل الهروب منها فربنا يقول ﴿ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون﴾.

ان التحدى الخطير أيها الاخوة هو: هل نستطيع ان نعيش فى العالم الحديث محافظين على اسلامنا؟ لقد بذلت الحركة الاسلامية جهدا كبيرا فى اقناع الامة بالتوافق بين دينها والعلم الحديث ونجحت فى ذلك الى حد كبير. لقد استطاعت فى عالم ملوث ان تربى شبابا طاهرين. لقد استطاعت الى حد كبير ان تقضى على شعار الفصل بين الدين والدولة ولكن التحدى الخطير هو كيف نستطيع أن نروض عصرنا؟ أن نصب ثقافة العصر ونذيبها فى إطار الاسلام فيرى الناس الاسلام مجسدا فى نظريات وتطبيقات فى الاقتصاد والفن والمسرح ويعبر الاسلام عن نفسه ازاء العالم لا بالرد فقط بل بتقديم البديل، وبذلك ينتقل الاسلام من كونه دينا لفرد أو فئة الى كونه حضارة شعب وامة وطريقها الوحيد الى العزة والعدالة والحرية.
ولقد استطاعت الحركة الاسلامية أن توجد رأيا عاما مواليا للاسلام ولكن هل تستطيع الحركة الاسلامية ان تقود هذه الجماهير وتتبنى قضاياها وتحول بين جمعيات بدأت تتكون، يمكن أن نسميها جمعيات المستفيدين من الاسلام، أولئك الذين اخذوا دون سابق عهد - وكانوا بالامس فى صف العدو - أخذوا يرفعون الشعارات الاسلامية كالأخذ بالتشريعات الاسلامية وتطبيق الاسلام. هذا تحد آخر وهو محاولة من القوة المضادة لتوجيه النصر الكبير الذى اوجدته الحركة الاسلامية الى مسارات خاطئة ثم تضييعه فى الطريق.

خاتمة

ولا يفوتنى فى الاخير ايها الاخوة الكرام ان اعتذر عن تقصيرى فى الاحاطة بهذا الموضوع فهو اكبر من ان يتناوله مبتدىء مثلى، ولكن ان كنت نبهت الى اهميته فقد بلغت ما اريد.
وكثير من المسائل التى ذكرتها هى من قبيل تحصيل الحاصل بالنسبة للحركة الاسلامية فى السودان التى نعقد عليها آمالا كبيرة بالنسبة لهذه المنطقة خاصة فى ان تكون المضغة التى ينطلق من صلاحها صلاح الجسم كله. ويؤيد ذلك ما يراه مالك بن نبى من ان جانبا كبيرا من الشعوب الاسلامية قد دخل الحضارة ثم خرج، ومن الصعب ان يعاد شعب الى الحضارة بعد ان خرج. وان المجتمع السودانى لايزال مجتمعا بكرا. اما الحركة الاسلامية فى السودان فلها من تجاربها وموقعها بالنسبة لافريقيا واسيا وتاريخها الجهادى الطويل ووعى افرادها وقادتها

ما يرشحها ـ اذا احسنت التعامل مع جيرانها ـ لان تكون اول استجابة ناجحة للتحديات الكبرى المطروحة فى المنطقة . لقد ابحرت سفينتكم ايها الاخوة فلا يلتفت منكم احد الى دنيا يصيبها أو شهوة يشبعها وامضوا حيث تؤمرون الى جهاد متواصل ، الى جنة عرضها السموات والارض وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

التغريب وحتمية الديكتاتورية

مجلة (الغرباء) اللندنية
عدد(٦) س (٦) سبتمبر ١٩٨٠

المتأمل فى النماذج السياسية السائدة فى العالم الاسلامى والعربى بشكل خاص يلاحظ ظاهرتين متلازمتين بارزتين تمثلان قاسما مشتركا بين كل هذه النماذج السائدة على اختلافها.

الاول : ظاهرة التغريب :

فكل هذه النماذج تستوحى مثلها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية عامة من الغرب فى شكله الرأسمالى أو الاشتراكى، اذا صرفنا النظر عن تطلعات الايرانيين الى نموذج جديد. فما عدا ذلك تعتبر اوروبا لدى الجميع هى النموذج المحتذى للتقدم والحضارة، حتى ان الهدف من كل برنامج ثقافى أو اقتصادى للتنمية هو، بحسب العبارة المكررة عندنا، «اللحاق بركب الامم المتقدمة، والنسج على منوالها» فى ثقافتها وتنظيماتها الادارية وعمارتها وازيائها، واعتبار ان التقدم يقاس بمستوى الانتاج والانتاجية والدخل الفردى، الخ.

النخبة المثقفة والتغريب :

ومرد هذه الظاهرة فى العالم الاسلامى الى ان النخبة المثقفة التى قادت حركة التحرير من الاستعمار الاوربى، هى نخبة تربت غالبا فى احضان الغرب. ولئن كانت عصرية الا انها لم تكن مؤصلة، فما كان تصورها للاستعمار يتعدى وجوده العسكرى السياسى الى كونه بناء فلسفيا ثقافيا حضاريا، بمعنى عام، وما كان تصورها للاسلام بالمقابل يتجاوز كونه تراثا حضاريا ومجموعة مبادىء أخلاقية وروحية لا علاقة لها بالبناء الاجتماعى ان لم تكن سبب ارتباك له. فما كان تصورها يرقى الى اعتباره هو ايضا بناء عقائديا وحضاريا شاملا، اذ ان الاسلام الذى نشأت فى ظله تلك النخبة كان الانحطاط لا يزال يطمس معالمه الحضارية.

ورغم ان الاسلام كان هو وقود الثورة ضد الاستعمار والمحرك الاساسى للجماهير الا ان جوانبه العاطفية كانت هى المسيطرة على الالباب، فكيف يمكن لهذا الاسلام العاطفى او الروحى ان يمد القادة السياسيين بتصور لنموذج اجتماعى منبثق عن تصوراته العقائدية خاصة وان الفكر الاسلامى لم يكن يومئذ قد تخلص من قيود الانحطاط وبدأ انطلاقته. فلا عجب والحال هذه ان تكون اوروبا بعد جلاء جيوشها عن العالم الاسلامى هى المثل الاعلى الذى استوحى منه القادة اسلوب الحياة السائدة اليوم فى العالم الاسلامى، وهو اسلوب لا يمكن وصفه بأنه غربى لانه ليس كذلك، وهو بالتأكيد ليس اسلاميا لان صانعيه لا هم بالمؤصلين اسلاميا ولا هم بالغربيين لانهم مقلدون والمقلد لا يكون اصيلا، انه نموذج يشبه المسخ فى عالم البيولوجيا.

الظاهرة الثانية: العنف أو الديكتاتورية:

ولان هذه النماذج السائدة فى العالم الاسلامى مستوحاة من الغرب عن طريق النخبة المثقفة فقد ظلت بناء فوقيا لم يستطع ان يتغلغل فى اعماق الجماهير التى ظلت مشدودة الى الاسلام ونماذجه الاجتماعية التاريخية، وفقدت ما كانت عليه من حماس فياض ابان الكفاح ضد الاستعمار، وبدأ شعور المرارة وخيبة الامل والاغتراب يسيطر عليها وهى تجد نفسها فى وسط اجتماعى كل ما فيه غريب عنها: فنونه وآدابه واشكاله المعمارية وتنظيماته الادارية وحتى لغته فى بعض الاحيان وأزياؤه. فكان طبيعيا جدا ان تمنى بالفشل كل مخططات النهضة فى العالم الاسلامى. اقتصادية، عسكرية، الخ. . بدليل انه لا يوجد بلد اسلامى واحد حتى الآن يمكن ادراجه ضمن قائمة الدول المتقدمة. وكيف لا تمنى بالفشل برامج تتجاهل ثقافة الجماهير بل تعاديها فى أحيان كثيرة مما يدفع تلك الجماهير الى حالة قاسية من اليأس والفتور واللامبالاة والانصراف الى التافه والعاجل من الاهتمامات والاستعداد للانقياد وراء كل داع للثورة؟ فماذا يبقى امام النخبة الغربية التى تقود لكى تحافظ على مراكزها ومصالحها وامتيازاتها، بعد ان تنكرت لثقافتها الاصلية فغدت معزولة عن الجماهير، الا ان تتنكر لثقافتها الغربية التى تقدس الحرية فتعمد الى اساليب القمع ومصادرة الحريات العامة وتركيز اجهزة قمعية عسكرية وبوليسية مدعومة بميليشيات لتحمى نفسها من الجماهير الثائرة. انها مضطرة بحكم كونها نخبة غريبة عن الامة:

أ/ ان تصادر الحريات العامة وتقيم نظاما قمعيا يحميها.

ب/ ان تنشىء طبقة جديدة تتمتع بامتيازات تجعلها محظوظة ومرتبطة بالنظام القائم وتتمكن بواسطة تلك الامتيازات من انشاء مجتمعات صغيرة ترفل بكل ما طاب ولذ من حياة الغرب وفنونه ولهوه وزينته، مجتمعات تمارس فيها حتى طقوس الغرب الدينية كالاحتفال باعياد الميلاد. . انها كالجزر الصغيرة اللاهية وسط محيطات من الفقر والحرمان. ولأن هذه

النخبة السياسية والثقافية والاقتصادية تعيش معزولة عن الجماهير وآلامها وآمالها وروحها وفى خوف مستمر عن ثورتها تتهالك على اللذائذ وتغرق فى الكؤوس على نغمات الموسيقى واصوات الغناء وضجيج الرقص فى حفلات ومهرجانات الغناء والرقص وما أكثرها فى عالم الفاقة والحرمان. انها تفعل ذلك املا فى نسيان الهاجس الذى يلاحقها ـ ثورة الجماهير. وحتى لا يحصل ذلك تعتمد على النخبة التى تحولت الى طبقة للسيطرة على مقاليد التوجيه الثقافى والتربوى والسياسى باذلة كل جهدها فى اجتثاث الجماهير من أصولها الثقافية وفرض التغريب عليها وتحمى هذه الديكتاتورية الثقافية السياسية الاقتصادية ديكتاتورية عسكرية بوليسية.

ج/ ان ترتبط هذه الانظمة النخبوية بمراكز القوى الدولية المالية والسياسية والعسكرية لحمايتها اقتصاديا وعسكريا مقابل صيانة الانموذج الغربى بعد رحيل الغرب والمحافظة على مصالحه فى الابقاء على البلاد مصدرا ثريا لتزويد صناعته بالمواد الاولية بأبخس الاثمان وسوقا لبضائعه ومنتزها لسواحه احيانا.

وحيثما قلبت نظرك فى العالم الاسلامى متصفحا الانظمة السائدة، وخاصة فى العالم العربى تجد الارتباط الجذرى الحتمى بين ظاهرتى التغريب والعنف والاستغلال حتى فى النماذج الاشتراكية حيث نشأت طبقة جديدة، وذلك لان التغريب، وهو اقتلاع امة من جذورها، هو بحد ذاته نوع من العنف وهو لا يستمر الا فى حماية الديكتاتورية وهى ليست ديكتاتورية سياسية فحسب بل هى ديكتاتورية اقتصادية تتمثل فى اغداق الامتيازات على الجهاز السياسى والثقافى والعسكرى الذى يحمى التغريب ويشكل فى الاخير طبقة قائمة بذاتها.

نتيجة خطيرة :

وهذا التحليل ينتهى بنا الى نيتجة خطيرة وهى ضرورة تجذير مطالب الجماهير السياسية والاجتماعية فى الحرية والعدالة، لان الحرية وكذا العدالة انما نمتا فى أوروبا فى ظل ثقافة معينة ذات تصورات معينة للانسان والحياة والوجود، فكيف يمكن فى العالم الاسلامى ان نتحدث عن الحرية أو العدالة دون القيام بفحص دقيق لمكوناتنا الثقافية التى يمثل الاسلام محورها، نبحث فيها عن موقع هذه القيم فى هذه الثقافة فيكون حديثنا عن الحرية أو العدالة ليس من قبيل التلويح بالشعارات البراقة وانما بحثا عن انموذج حضارى جديد ينبثق عن اسلامنا وعصرنا، لا اقصد اسلام الانحطاط، وانما الاسلام فى صورته الاصلية، وهو ثورة شاملة ضد الاستبداد والاستغلال والتبعية فى كل اشكالها ودعوة ملحة الى الترقى المعنوى والمادى حتى يقترن فى وعى الجماهير ان النضال من اجل الاسلام هو نضال من اجل الحرية والعدالة والكرامة والتقدم وان العكس صحيح ايضا.

الثورة الايرانية والتطلع نحو عالم جديد:

وفى هذا الصدد تعتبر الثورة الايرانية على حداثة سنها بابعادها الاجتماعية فى الحاحها على حقوق المستضعفين فى الحياة الكريمة والقضاء على الامتيازات، وابعادها السياسية فى الحرية، حيث تمكنت كل الاتجاهات السياسية والعقائدية من حقها الطبيعى فى التعبير والتنظيم وهو حق اعترف به الدستور الاسلامى الايرانى، تعتبر بذلك تطلعا الى عالم جديد، الى حضارة اسلامية جديدة تنبثق مع مطلع القرن الخامس عشر مبشرة بنموذج جديد للاجتماع البشرى يلتئم فيه ما فرقته حضارة الغرب من شمل القيم: الحرية العدالة، التقدم المادى والانسانى.

فهل من عجب أن تُحاصَر هذه الثورة بكل عنف وخبث من القوى الدولية وامتداداتها فى المنطقة العربية الاسلامية ويغدو الحديث عنها مثيرا للرعب فى افئدة الطغاة والنخبة المتغربة التى يوشك الخوف من عودة الاسلام ان يتحول عندها الى كابوس مضن يدفعها الى مزيد من القمع والديكتاتورية ـ ولكن العنف يولد العنف والنتيجة واضحة، وشاه ايران المخلوع الذى ضاقت به الارض شاهد ناطق.

فى المبادىء الأساسية للديمقراطية وأصول الحكم الاسلامى

تمهيد :

ان الحديث عن الحريات السياسية فى العصور الحديثة لا يكاد ينفصل عن النظم الديمقراطية على اعتبار ان الديمقراطية تقدم افضل اطار أو جهاز للحكم يمكن للمواطنين فى ظله ممارسة الحريات الاساسية ومنها الحريات السياسية! وهى اقل الانظمة سوءا ـ حسب دفاع احد السياسيين.

فما هى المبادىء الاساسية التى تمثل جوهر الديمقراطية؟
هل شهدت تطورا؟ ما هو؟ ما دوافعه؟ تقويم النظام الديمقراطى؟
ما هى المبادىء الاساسية للحكم الاسلامى؟

المبادىء الاساسية للنظام الديمقراطى

١/ نظرة اجمالية :

ان النظام الديمقراطى ليس بناءا مصطنعا من طرف منظرين أو قانونيين أو مفكرين سياسيين، انه نتيجة لتطور تاريخى بعيد المدى. . استمدت كثير من قوانينه من الانظمة السياسية التى سادت فى اوربا فى القرون الوسطى وتحولت تدريجيا حتى اصبحت اساسا لنظام جديد مستفيدة عناصر قديمة بما يتفق مع منطقها، وكان للتطور العلمى تأثيره فى نمو الانتاج وفى تقدم وسائل النقل وكذلك كان لاتصال الاوربيين خلال هجومهم وحروبهم الصليبية مع المسلمين اثر فى انقلابات البنيات والقيم الاجتماعية، كان النظام الديمقراطى الحر ثمرتها[١] . لقد كان لاتصال أوربا بالعالم الاسلامى وقع الصدمة النفسية التى ساهمت فى ايقاظها من غفوة الاقطاع وغيبوبة الدين الكنسى وديكتاتورية الملوك الارستقراطيين.

ولا شك انه كان للفكر النهوضى دوره الريادى فى الثورة على العهد القديم ورموزه ومؤسساته وقيمه. . وكان طبيعيا لحضارة قد كبلتها سلطة الملوك الاطلاقيين ان تجعل هدفها تحرير الانسان من الاستبداد فتعلن المساواة للاطاحة بالامتيازات والتحررية لتأكيد قيمة

(١) دوفرجى6(p.43
INSTITUTIONS POLITIQUES ET DROIT CONSTITUTIONNEL
P. Universitarice de FRANCE 1980

الانسان ازاء مؤسسات الكنيسة والاقطاع وتنادى بالشعب مصدرا للسيادة بديلا عن سيادة الملك. . والتعددية على انقاض الانفرادية وفصل السلطات لمنع التركز والاستبداد. ان اهم المبادىء التى نادت بها الديمقراطية الليبرالية مضمونا لها هى: السيادة الشعبية والانتخاب وفصل السلطات والحريات العامة «التعبير، الصحافة، تكوين النقابات، تعددية الاحزاب. . » وهى فى جملتها أريد منها تمكين المحكومين من ادوات للضغط بجدية للوقوف فى وجه الحاكمين والتأثير فى قراراتهم.

لقد ظلت التحررية والمساوة والتمثيل والتعددية والتنافس المضامين الاساسية للديمقراطية الغربية حتى الحرب العالمية الثانية حيث تجمعت جملة من عوامل التطور الاقتصادى والتقنى والسياسى والاجتماعى لاحداث نوع من الثورة على ذلك النظام، فلم يعد دور الدولة فيه حياديا فى الصراع الاجتماعى الدائر مقتصرة على حفظ الامن الداخلى والخارجى بل اضطرت تحت الضغوط الجديدة المتنامية. (النقابات، والرأى العام، والاحزاب المنظمة القوية، وعديد الجماعات الاخرى المنظمة) من اجل الحصول على توازن جديد الى التدخل الفعال فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية مما جعل النظام الديمقراطى فى الغرب نفسه يتجاوز مرحلة الحريات الشكلية المتمثلة فى اعلانات حقوق الانسان وسيادة الشعب والبرلمانات والانتخابات وحق الاغلبية فى ان تقود وحق الاقلية فى ان تعارض وتتحول الى اغلبية بحكم «التداول» لينتهى الى جوهر يتمثل فى نظام من التواصل بين جماهير من المواطنين وبين المنظمات الحاكمة. . نظام يبيح للجماهير ان تنادى وللدولة ان تجيب. . نظام يمكن الجماهير من التأثير الفعال والمشاركة فى ادارة الشؤون العامة والتحكم فى صنع مصيرها بحق لا مجرد انتخاب ممثلين عنها وذلك يقتضى التوفر المستمر على الادوات الضرورية لتلك المشاركة من ضمانات اقتصادية واجتماعية هى فى الاصل ملك الشعب، ومعطيات اعلامية صادقة متجددة حول سير المؤسسات العامة وادوات اعلامية حرة[٢]

اما المفكر الاسلامى مالك بين نبى، فقد ذهب ابعد من ذلك فى تحديد جوهر النظام الديمقراطى على انه مشروع لكافة الشعب على الصعيد النفسى والاخلاقى والاجتماعى والسياسى، فليست الديمقراطية مجرد عملية نقل السلطة الى الجماهير والاعلان عن ان شعبا هو بموجب نص دستورى صاحب السيادة، ففى «انكلترا» ليس النص الدستورى ـ وهو نسبيا غير موجود هو الذى يضمن حقوق وحريات الشعب الانكليزى ولكن العقلية البريطانية نفسها هى ذلك الضامن للديمقراطية. ويغوص علامتنا المغربى مالك حفيد ابن خلدون فى ثنايا النهضة الاروبية متتبعا جذور الاحساس الديمقراطى الذى تفجر فى الاعلان الشهير لحقوق الانسان فى «امريكا» وكان تتويجا روحيا وسياسيا للثورة الفرنسية فنجد جذور ذلك الاحساس منغرسة فى حركة الاصلاح الدينى والنهضة اللذين شكلا العنصر الاساسى الثقافى فى شخصية الانسان الاوربى فى مجال الروح والفن والعقل، لقد شكل كل ذلك المذهب الانسانى بما قدمه من تقدير معين للانسان المواطن[٣].

(٢) دوفرجى ـ المصدر السابق ص ١٢

(٣) حول الديمقراطية فى الاسلام: مالك بن قبى ص ١٤، ١٥ ترجمة المؤلف راشد الغنوشى (رشاد النورى) والحبيب

وخلاصة كل ذلك ان النظام الديمقراطى شكل ومضمون . . شكل يتمثل فى اعلان مبدأ سيادة الشعب وانه مصدر كل سلطة ، وهى سيادة يمارسها عبر جملة من التقنيات الدستورية التى تختلف فى جزئياتها بين نظام وآخر وتكاد تتفق على مبادىء المساواة والانتخاب وفصل السلطات والتعددية السياسية وحريات التعبير والتجمع والتنقب والاقرار للاغلبية بالتقرير والحكم ، وللاقلية بحق المعارضة من اجل التداول ، وانتهى تطورها الى الاقرار للمواطن بجملة من الضمانات الاجتماعية . اما مضمون النظام الديمقراطى فهو الاعتراف بقيمة ذاتية للانسان يكتسب بمقتضاها جملة من الحقوق الفعلية تضمن كرامته وحقه فى المشاركة الفعالة فى ادارة الشؤون العامة والقدرة على الضغط على الحاكمين والتأثير فيهم من خلال ما يمتلكه من ادوات المشاركة والضغط والتأثير فى صنع المصير ، والامن من التعسف والاستبداد . انه حرية المحكومين فى اختيار حكومتهم[٤] وتبعيتها لهم . ولا شك ان افضل الانظمة على الاطلاق ذلك الذى ينبنى على الاعتراف بكرامة الانسان ويتوفر على جملة من التقنيات التنظيمية والتربوية تكفل تلك الكرامة وتقدم ضمانات ضد الجور وتهيىء المناخ الضرورى لتفتح ملكات الانسان وترقيه ومشاركته فى صنع مصيره فتتضاءل حتى تختفى أو تكاد الهوة بين الحاكمين والمحكومين على الصعيد السياسى والاقتصادى والثقافى ، ويغدو الحاكم بحق خادما للشعب من الناحية القانونية وفردا عاديا من افراد العائلة الاجتماعية هو فيها الاخ الاكبر أو الاب أو الولى . .

ان المشاركة على الصعيد الاجتماعى والسياسى هى جوهر المنال الذى يرنو اليه النموذج الديمقراطى وليس التمثيل . . ان المثل الاعلى للديمقراطية ان يصبح المحكومون حاكمين ليحققوا لانفسهم بأنفسهم ما يتوقون اليه من اهداف وغايات[٥] ولاشك ان حجم المشاركة الشعبية فى ادارة الشؤون العامة مقياس رئيسى فى الحكم على مدى ديمقراطية نظام ما ، فبقدر ارتفاع تلك النسبة يقرب النظام من مثاله .

٢/ الدولة فى التصور الغربى :

أ/ القانون والدين : لم يثبت البحث فى تاريخ الجماعات البشرية ان واحدة منها قد خلت من آلهة يدين لها الناس بالخضوع أو من اله واحد يتولى الامر كله . ومن هذا الخضوع لارادة عليا نشأت فكرة القانون ، فالارادة الالهية التى يعبر عنها بمناسبة كل قضية احد رجال الدين هى ماهية القانون ، بل ان قواعد القانون الاولى كانت فى بدء نشأتها قواعد دينية ، وكان القانون فى كل مجتمع نشأ معتمدا على الدين ممتزجا به حتى ان رجال الدين كانوا هم انفسهم رجال القانون[٦] . اما الكهانة واعمال السحر والشعوذة فقد نشأت مضاهاة للدين الحق الذى

(٤) الديمقراطية فى الاسلام ـ عباس العقاد ص ٥٢ .
(٥) عبد الهادى ابو طالب ـ القانون الدستورى والمؤسسات الدستورية ص ٣٠ .
(٦) مقاصد الشريعة ص ١٨ ، ١٩ .

كان ينزل به الوحى على الانبياء لهداية الناس الى عبادة الله الحق من خلال الخضوع لجملة من قواعد السلوك التى كان لها النصيب الأوفر فى اخراج الناس عن سلطان اهوائهم واغراضهم وقبولهم الخضوع لسلطان موحد يعلو هو قانون الله «الشريعة» . . غير ان تحول الدين الى مؤسسة فى كثير من الحضارات تحتكر تأويل الدين والحديث باسم الله جعل الملوك يسارعون الى استغلال النفوذ الكبير للمؤسسة الدينية من اجل اضفاء صبغة القداسة على سلطانهم حتى غدت ارادتهم هى الارادة الحقيقية لله، وتم التمايز بين سلطان القانون وارادة الحاكم حتى جاز لهذا الاخير ان يقول انا الدولة، وانا ظل الله فى الارض كما زعم قرينه رجل الدين إنه الدين وكثيرا ما تنازعا السلطان للانفراد به. وكان ذلك وبالا على الدين والسياسة وقاعدة اساسية للتسلط.

ب ـ **الثورة السياسية المعاصرة**: ولذلك لا عجب ان تركزت الثورات فى الغرب منذ قرنين على تحرير القانون عن ارادة رجال الدين وسلطان الملوك من اجل الانتقال من حكم الفرد الى حكم القانون. . وتجريد الملوك من السيادة والهيمنة التى يزعمون استمدادها من الله مباشرة بل قد يزعم بعضهم انه الله نفسه كما فعل فرعون بمقالته الشهيرة ﴿أنا ربُّكُمُ الأعْلَى﴾ اى صاحب السلطان المطلق الذى لا سلطان بعده، ولم يكن حكام «فارس» و«بيزنطا» وسواهم اقل تواضعاً اوتسلطاً فلقد كانت ارادتهم ابداً هى القانون. . ولقد كان الملك فى ظل النظام الفرنسى مثلاً «قبل الثورة يضع القوانين المنظمة لنشاط السلطات العامة ولكنه لم يكن يتقيد بها»[٧]، فكان صاحب السيادة المطلقة. ولذلك كان هدف الثورات المعاصرة تحديد سلطة الملوك ورجال الدين ونقل السيادة الى الشعب او ممثليه باعتباره صاحب السيادة وبذلك تم الانتقال من سلطة الفرد الى حكم القانون وذلك هو المضمون الاساسى للدولة الغربية الحديثة [٨].

واضح ان الدولة الغربية المعاصرة تقوم على دعامتين: الشرعية والسيادة:

١/ **الشرعية**: ان اهم ما تفخر به الدولة الغربية الحديثة انها دولة قانونية بمعنى ان تصرفات الحكومة تخضع لقواعد ثابتة واكيدة يستطيع الافراد المطالبة باحترام هذه القواعد امام قضاة مستقلين[٩]. وذلك هو المقصود بالشرعية وهى اساس عمل الدولة الحديثة [١٠]فالشرعية هى بالتحديد تقيد السلطة بقانون قائم بقطع النظر عن عدد الحاكمين [١١]، وصدور ذلك القانون وفق الاجراءات المتبعة. . وينضاف الى هذا المعنى السلبى للمشروعية أى امتناع الدولة عن اى فعل لا يتماشى مع النظام السائد معنى آخر ايجابى هو ضرورة التزام السلطة باحترام القيم الاساسية والأهداف العليا للمجتمع [١٢]واجتهادها فى تحقيق الصالح العام بها

(٧) نظام الحكم الاسلامى مقارنا بالنظم المعاصرة ص ١١٦ ط ٢ د. محمود حلمى.
(٨) د. محمد طه بدوى. بحث فى النظام السياسى الاسلامى من كتاب مناهج المستشرقين ص ١١٢.
(٩) الدولة. ص ١٢. تأليف جاك دوينيو دوقابر ـ ترجمة د. سيوجى فوق العادة. منشورات عويدات. بيروت.
(١٠) د. بدوى بحث فى النظام السياسى الاسلامى ص ١١١.
(١٢) د. بدوى بحث فى النظام السياسى الاسلامى ص ١١٢.

يؤدى الى القبول الطوعى من قبل الشعب بقوانين وتشريعات النظام السياسى وبعدالته وملاءمة مؤسساته لحاجات المجتمع وقيمه[13].

٢ ـ **السيادة** : مفهوم رئيسى من مفاهيم الدولة الغربية يتخلص فى اعتبار الدولة سلطة عليا لا تعلوها سلطة اخرى وخاصة فى مجال التشريع فهى لا تعرف بجانبها او فوقها سلطة اخرى، انها سلطة فوق الجميع وتفرض نفسها على الجميع[14]. ان صاحب السيادة هو السلطان الحاكم شخصاً او هيئة، الذى يتولى سلطة التشريع فى المجتمع فهو بفضل سلطته على تغيير القانون يعتبر مالكاً للسلطة الشرعية العليا فى الدولة وتخضع له السلطات الاخرى، انه المشرع الأكبر. ففى العصور الوسطى كان البابا يتولى هذه السلطة بصفته نائب المسيح، وقبل ذلك كان قسطنطين تمثل ارادته قوة القانون، ثم ظهرت الدولة الحديثة كوارثة لتلك السيادة.. بمعنى ان لها سلطة تشريعية عليا من ناحيتين: انه لا توجد سلطة اعلى منها وان سلطتها غير منازعة. ان سيادتها مطلقة فى المجال الداخلى من حيث كونها المشرع الاعلى، وفى المجال الخارجى عدم التبعية فى تنظيم علاقاتها مع غيرها من الدول بما فى ذلك حقها فى إعلان الحرب وحتى ضم ارض الدولة المهزومة[15].

ان مفهوم السيادة مفهوم قانونى اذ يراد منه اعطاء القانون صفة الشرعية اذ القانون هو ما صدر عن الحاكم، صاحب السيادة من امر او نهى، هو قانون باعتباره السلطة الآمرة ومن جهة اخرى لا يعتبر اى شىء لا يأمر به الحاكم قانوناً.. واذا كان القانون هو ما يأمر به الحاكم يصبح علينا ان نعرف من هو الحاكم؟ ولا سبيل لذلك الا من خلال جملة من القواعد القانونية هى ذاتها فى حاجة الى مصدر للشرعية.. اذ ان السيادة انما جىء بها لاعطاء القانون الصفة الشرعية[16].

ورغم هذا المأزق المنطقى الذى تنتهى اليه نظرة السيادة فهى تظل مقبولة لدى القائمين بها طالما افضت الى هدف عملى اذ ان حياة القانون كما قال القاضى «هولمز» ليست المنطق بل التجربة[17].

ولقد رسخت هذا المفهوم للدولة المتمحور حول كيان ذى سيادة مطلقة لا يحتاج فى تبرير شرعية اوامره وضرورة الخضوع له الى غير إثبات صدورها عنه مهما كانت مصادمة للأخلاق والدين وقانون العدل ـ رسخت هذا المفهوم للدولة كتابات عدد كبير من المفكرين السياسيين الغربيين امثال الانجليزى «هوبز» والايطالى «ميكيافيل» والالمانى «هيجل». فلقد رأى هذا الأخير ـ مثلاً ـ ان الفكرة التى تحكم التاريخ البشرى هى «العقل».. وان العقل يتحقق تدريجياً فى التاريخ عبر صراع الافكار وان أعلى درجات ذلك التحقق الدولة الوطنية التى هى

(١٣) الموسوعة السياسية ج ٣ ص ٤٥١.

(١٤) د. عبد الحميد متولى. القانون الدستورى والانظمة السياسية ج ١ ص ١٣٥.

(١٥) فكرة القانون. المصدر السابق ص ٢٠٤ ـ ٢٠٨.

(١٦) نفس المصدر ص ٢١٠.

(١٧) نفس المصدر ص ٢١١.

تجسيد للعقل، وهى الحقيقة المطلقة التى تفوق حقيقة المواطنين الذين يجب عليهم ان يخضعوا كلياً لاهداف الدولة العليا، وان الصراع بين الدول الوطنية ظاهرة ضرورية لتقدم البشر وحريتهم. امّا الصراع بين الدولة والمواطن فغير متصور لأن الدولة دائماً على حق باعتبارها تجسيداً للفكر المطلق، فإرادتها معيار للاخلاق وفعلها ميزان للحق[١٨]. ولقد كانت الحروب الحديثة بين الدول القومية للانفراد بالمجد والثروة ولو كان ذلك على حساب قيم العدل والحرية ذات صلة واضحة بهذا المفهوم للدولة الاله، التى تتضمن فى ذاتها مصدر شرعيتها وهى مصدر لكل شرعية «وليست مسؤولة امام احد ولذلك فان ممثل او ممثلى السيادة فيها فى حصانة من انطباق القانون عليهم»[١٩]. وواضح ان الكبرياء القومى والرغبة الجامحة فى التحرر من سلطان الكنيسة وامراء الاقطاع والملوك الاطلاقيين كان وراء الجهود الكبيرة التى بذلت فى مجال الفكر والعمل لاقامة هذا السلطان الجديد ذى السيادة المطلقة «الدولة» وقبول ما يحيط به من غموض[٢٠] ووهم[٢١] ولا منطق[٢٢]، الأمر الذى يجعل النظام الغربى يرتكز شأن الصور التى تخيلها الناس للعالم قديماً على فيل[٢٣].

هذا التصور للدولة الذى أقامه المفكرون الوضعيون او الهاربون من استبداد الكنيسة وملوك الاطلاق.. التصور الذى يجعلها المبدأ والغاية لكل شيء ولا تعلو سيادتها سيادة ولا تحتاج لان تبرر قراراتها امام أحد.. على الرغم مما حققه من اعلاء سلطان القانون وتقييد تصرفات الحكام به ومن اقرار للشعب بحقوق تقوم على حراستها سلطات قضائية وإعلامية مستقلة وحريات للتعبير والتجميع، الى جانب توزيع للسلطات.. على الرغم من ذلك فقد قاد هذا التصور الى حروب طاحنة وتسلط للاقوياء على الضعفاء، وظهور للدكتاتوريات الفاشية والنازية والبروليتارية.. وقدم خير مبرر للطغيان والاستعمار الامر الذى اقتضى جهوداً لتليين هذا المفهوم للسيادة بما ينسجم مع ثورة الاتصال التى كادت ان تلغى مفهوم المسافات وحكمت بوحدة المصير البشرى وبما يتيح الفرص امام الدول للحوار وتبادل المنافع والحد من اخطار الابادة الجماعية التى اتاحها التقدم التقنى.. انه امام كل ذلك لا مناص للمجموعة البشرية اذا ارادت ان تواصل العيش من الحد من هذا المفهوم للسيادة الوطنية لحساب قانون اعم وأشمل هو القانون الدولى والمواثيق الدولية لحقوق الانسان وهى مستمدة

(١٨) فكرة القانون. المصدر السابق ص ٢٤٢.

(١٩) الدولة: المصدر السابق ص ١٥.

(٢٠) فى المصدر السابق ص ١٤، ١٥ ورد «ان معنى الدولة صعب التعريف، فهى مزيج من الكبرياء والتواضع ومن السلطة الشخصية والنظام للقبول ومن ارادة السلطة والاخلاص للخدمة العامة، وشعور وجدانى بالمسؤولية ازاء المصير الجماعى للبلاد وازاء سلطة عليا تحتفظ بسموها فى الوقت الذى لا تلزم نفسها بأى شيء. يتوج كل ذلك عدم مسؤولية رئيس الدولة.. واذا كانت الدولة تتمتع بفكرة مقبولة بصورة عامة ولكنها مبهمة فان التاريخ يمنح كل دولة اسلوبا وكيانا خاصا بها.

(٢١) حاول «روسو» فى بحثه المستميت عن اساس الدولة يعطيها شرعية وصيغة مستمدة من داخلها ان يتخيل مرحلة كان الناس يحيون فى حالة طبيعية اى افراد طلقاء ولكنهم بمحض ارادتهم الحرة تعاقدوا على ان ينشؤوا حياة جماعية يتنازل فيها كل منهم عن جزء من حريتهم الطبيعية لفائدة الحياة الاجتماعية فاقتضى ذلك وجود قانون أو سلطة هما تعبير عن الارادة العامة للمواطنين.. ولقد رفض الوضعيون فكرة العقد الاجتماعى واعتبروها وهما وخيالا ـ «فكرة القانون» ص ٢٣٩.

ـ غالباً ـ من فكـرة القانون الطبيعى انطلاقاً من ان الطبيعة البشرية واحدة فى كل زمان ومكـان، اذا تعمقت فى غورها فانك ستجد قواعد اخلاقية اساسية راسخة. ان القانون الطبيعى يجسد لدى القائلين به المفهوم الرئيسى لقانون اعلى ينظم ويضبط القانون الوضعى البشرى [٢٤]. انه يمثل قانوناً اخلاقياً مستقلاً عن قانون الدولة يمكن بواسطته معرفة ما اذا كان قانون الدولة ظالماً او غير اخلاقى، فعلى الدولة ان تهتدى بمبادىء القانون الطبيعى لكى تكون شرعية[٢٥] وأكثر عدلاً.

ولقد قامت مدرسة القانون الطبيعى فى القرن السابع عشر فى اوربا على اعتبار الفرد اسبق واسمى من المجتمـع وان هذا الأخير انما قام لخدمة الفرد وان للفرد بحكم آدميته حقوقاً يستمدها من طبيعته لا مما تصدره الدولة لان هذه الحقوق سابقة عن وجود الدولة فلا يجوز للدولة اهدارها[٢٦] فاذاً فقدت الثقة فيها حق للشعب استعادة السلطة.

ولقد خرج القانون الطبيعى الى حد ما من حالة الغموض والميتافيزيقية التى كان عليها يوم ان كان ثوباً فضفاضاً يمكن لكل رجل دين او ملك ظالم ان يرتديه لاضفاء الشرعية على أوامـره ونـواهيه. خرج من تلك المـرحلة عنـدما اصبح ينظر اليه على انه مصدر الحقوق الديمقراطية الاساسية التى تقيد حرية الحكام والتى تجسدت خاصة فى الوثيقة العالمية لحقوق الانسان وتضمنتها معظم الدساتير الأمر الذى بوأها مقام الحكم على كل ما تصدره الدولة من قوانـين وخـول للمحـاكم الامتناع عن العمل بمقتضى اى تشريع يتناقض مع تلك الطبيعة. . مثل حرية المعتقد والتملك وسائر الحريات الشخصية والعامة.

ولقد وجد القانون الدولى فى فكرة القانون الطبيعى الاساس الصالح للدفاع عن وجوده على اعتبار علو قانون الطبيعة عن كل الخصوصيات الوطنية، ولكن ذلك زاد أنصار فكرة السيادة كمقوم أساسى للدولة حرجاً، اذ ان الاعتراف بقانون دولى يعنى الاعتراف بسلطة خارج مجال الـدولـة تحد من سلطانها وتقيد إرادتهـا التشريعية اذ تفـرض عليهـا الخضوع لمقتضيات وقواعد القانون الدولى وذلك ما جعل انصار السيادة المطلقة للدولة يرفضون اعتبار أية صلاحية للقانون الدولى كسلطان يعلو سلطان الدولة، ولكن الدولة من منطلق سيادتها يمكن لها الاعـتراف بالقـوانين الدولية كنوع من التحديد الذاتى ويمكن لها ايضاً إعتبار سيادتها مطلقة فى غير المجال الدولى أى ما يخص علاقتها بغيرها، فضلاً عن ان جهاز القانون الدولى لا يزال بسيطاً اذ لا يملك فى أحيان كثيرة قوة التنفيذ ويحتاج فى نفاذ احكامه كما هو الحـال فى احكـام محكمة «لاهاى» الدولية الى تصديق المعنيين بالأمر الى قبول الاحتكام

(٢٢) يقول: دريـ ين لويد «وهكذا نجد انفسنا متورطين فى حلقة مفرغة، اذ ان السيادة تثار لاعطاء القانون صبغة الشرعية، ثم يثار القانون لخلق الحاكم» ومع ذلك يقبل اللا منطق من اجل الوصول الى قامة هذا البناء المصدر السابق ص ٢١٠.

(٢٣) المصدر السابق ص ٢٣١.

(٢٤) نفس المصدر ص ٥٧، ٥٨.

(٢٥) د. سليمان الطماوى. الوجيز فى نظام الحكم والادارة ص ٣٥.

(٢٦) د. يحيى: المطول فى القانون الدستورى نقلا عن العيلى المرجع السابق ص ١٧

اليها . . ولكن أياً كان التبرير او منهاج التوفيق بين مبدأ السيادة وهو جوهر الدولة الغربية والاعتراف بمواثيق لحقوق الانسان وبقانون دولى كقيمة تعلو سلطان الدولة وتفرض عليها الانسجام معها لدى ممارستها لسيادتها ، فمما لا ريب فيه ان ثغرات من الشك قد فتحت فى جدار مبدأ السيادة المطلقة الموحدة كمقوم أساسى للدولة الحديثة ، مما يترك المجال لامكانية القول بسيادة محدودة وان تباينت المذاهب فى نوع ومصدر القيمة او السلطة او السيادة التى تحد من تلك السيادة وتعلوها وتفرض عليها الانسجام معها والخضوع لمقتضياتها . .

هل هى قانون الطبيعة؟ ام قانون الأخلاق؟ ام المواثيق الدولية لحقوق الانسان؟ ام القانون الدولى؟ ام سلطان الدين؟

ولكن الثابت ـ كخلاصة ـ أن مبدأى الشرعية : اى خضوع الدولة للقانون والسيادة الشعبية اى اعتبار سلطان الدولة التشريعى ـ أساساً ـ لا يعلوه سلطان وعدم خضوعها لأية سلطة خارجية واستمداد سلطاتها من الشعب عن طريق الانتخاب العام ، ان هذين المبدأين وهما جوهر الدولة الغربية ولئن مثل الاقرار بهما خطوة هامة فى تأكيد سلطة القانون والشعب فوق سلطة شخص الحاكم ، وفى الاقرار للمواطن بحقوق ثابتة وتمكينه من أدوات لمقاومة الجور فان المشكلة السياسية المتمثلة فى كيفية كبح جماح رغبة الانسان فى التسلط على الآخرين مستغلاً ضرورتهم الى الاجتماع ، ان هذه المشكلة لا تجد لها حلاً مرضياً فى اطار مفهوم الدولة الغربية من خلال مقوميه الاساسيين : مبدأ الشرعية وسيادة الشعب .

فلقد رأينا عجز مفهوم الشرعية عن ان يقدم لتلك المشكلة حلاً اذ ان الدولة حسب ذلك المفهوم هى عادلة طالما ظلت متقيدة بنظامها القانونى الذى هو من وضعها وحتى اجهزة الرقابة الدستورية او القانونية هى الاخرى ليست الا جزءاً من اجهزة الدولة . انه بمقتضى هذا المبدأ ليس أمام المواطن الامريكى الا ان يمول العدوان على «نيكارغوا» ودعم اغتصاب اسرائيل للأراضى العربية طالما صدر بذلك قانون من الكنونغرس ، وذلك مهما بدأ له ذلك مناقضا للمبادىء العليا للعدالة والحرية والواردين فى الدستور الامريكى . . ان جل ما يملكه ان ينتظر لحظة التعبير عن ارادته كلما مضت ثلاث سنوات لتجديد هيئات الحكم . . انه محروم من حق مقاومة الجور سواء بالكف عن دفع الضريبة طالما انها تصرف فيما يناقض المبادىء العليا للعدالة او إعتماد السلاح لتغيير ذلك المنكر .

أما مبدا السيادة الشعبية فهو ينتهى عملياً فى ظل الديمقراطيات الحديثة ـ وهى تكاد تكون كلها غير مباشرة ـ الى سيادة المجالس النيابية حيث يعتبر عضو البرلمان نائباً عن الامة كلها ، اى ليس نائباً عن احد عملياً اذ انه ليس مسئولاً امام احد ليقدم له حساباً خلال الدورة النيابية كلها ، انه فى نهاية الدورة فحسب وخلال حملته الانتخابية لتجديد النيابة يجد نفسه مضطرّاً للعودة الى أصحاب السيادة الحقيقيين فى محاولة لاغرائهم مجدداً لتجديد انتخابه . . ان اصحاب السيادة عاجزون خلال الفترة النيابية كلها من مساءلة نائبهم وسحب وكالتهم ان اقتضى الامر ، وذلك ما يجعل سلطان الشعب فى تلك الديمقراطيات لا يتجاوز لحظة الانتخاب فضلاً عما يرتكب فى تلك اللحظة من فواحش التسلط على

الناخبين بمختلف وسائل الدعاية والتضليل التى تتوسل بها المؤسسات الرأسمالية والجماعات الضاغطة على أفكار ومشاعر الناخبين.

ان مبدأ السيادة الشعبية على أهميته لم يزد فى ظل الفكر الغربى عن ان أطاح بطاغ واحد هو «البابا» او قرينه «الملك» ليقيم فريقاً من الطغاة هم أعضاء المجالس النيابية[٢٧] اصحاب السيادة الفعلية يمارسونها نظرياً بالنيابة عن الشعب وينهضون بها فى الواقع الى حد كبير نيابة عن تجمعات الضغط المالى والسياسى فى غياب مساءلة شعبية يومية مباشرة ومنظومة قيم عليا معصومة عن الخطأ يستهدى بها الشعب ونوابه ويمارس النيابة والرقابة على حد سواء على ضوئها . . ولقد فشل القانون الطبيعى ـ رغم اهمية الفكرة ـ فى الوصول الى مضامين واضحة محددة له يمكن ان يستهدى بها المشرع فى تشريعه والشعب فى متابعته . . اما القانون الدولى فمهما بلغ سموه فيظل غالباً شعارات براقة لا تعصم من هوى ولا تحد من طغيان طالما ظل مجرداً من قوة التنفيذ . . الأمر الذى لا يخفف شيئاً من طغيان هذا الوثن المعاصر المسمى الدولة . . والعياذ بالله .

أين النظام الديمقراطى من مثاله؟

إن تعريف الديمقراطية بأنها حكم الشعب يفترض اشتراك جميع افراد المجتمع فى شؤون الحكم بالتساوى، وهو أمر متعذر لا بسبب الاستحالة الواقعية لعدد كبير من المواطنين غير الـرشـداين او المحـرومـين من حقوقهم المدنية ان يشتركوا بل انه حتى فى نطاق الشعب السياسى وهم المتمتعون بحقوقهم السياسية ليست هناك مقاييس ثابتة لتحديد هؤلاء، فلقد كان عددهم فى أثينا لا يزيد عن ٢٠ الفاً بينما كان عدد السكان ٣٢٠,٠٠٠ فكان الارقاء والنساء والأجانب محجوبين عن المشاركة، ولم يكن يدعى للانتخاب فى بريطانيا ـ زمنا طويلا ـ الا ميسورون، وظلت المرأة محرومة من الانتخاب الى سنة ١٩٢٨ فى بريطانيا والى سنة ١٩٤٥ فى فرنسا وتأخـرت المـرأة السويسرية الى سنة ١٩٧١ . ولا تزال بعض الولايات الامريكية لا تسوى بين البيض والسود فى الحقوق السياسية. ورغم انه من الناحية النظرية تتساوى قوة أصوات المالكين للاحتكارات الكبرى ولمديرى المشاريع والنخبة الفنية المسيرة وملاك الصحف وقنوات البث الاذاعى والتلفزى والعاملين فيها من المسيرين والصحفيين وجماعات الضغط السياسية والثقافية والنقابية تتساوى قوة أصواتها مع اصوات العاطلين عن العمل او العمال فى الصناعة والزراعة وهم الذين يمثلون غالبية الشعب السياسى فان الواقع يشهد ان هؤلاء الاخيرين هم تبع غالباً لتوجهات الفئات الأولى ـ على قلة عددها ـ الأمر الذى جعل تعريف الديمقراطية بأنها حكم الشعب بالشعب للشعب يعد رؤية مثالية لا يمكن تحقيقها. فذهب بعض المنظرين المحدثين الى تصحيح النظرة الى الحكم الديمقراطى فاعتبروه ليس حكم الشعب ولكنه الحكم المتعدد الاطراف الذى تزاوله النخبة من المواطنين والقادة والسياسيين ويقوم فى ظله حوار بين ممثلى الجماعات والمصالح . . ولكن تلك النخبة تزاول الحكم بإرادة جماهير الناخبين الامر الذى يجعل الديمقراطية العملية ليست الا حكم

(٢٧) انظر بدوى البحث السابق ص ١١٦

النخبة باسم الشعب [٢٨] ولكن خصوم النظرية التقليدية فى الديمقراطية مضوا أبعد من ذلك فى نقدها فشككوا فى مصداقية تلك الانابة، انابة الجماهير للنخبة هل هى انابة واعية حرة ام هى انابة الجاهل المضلل الذليل التى تشبه فى جوهرها الاكراه والخداع؟ لقد أقامت الديمقراطيات الغربية المساواة وحذفت الامتيازات الأرستقراطية ولكنها ولدت بالتدريج اللامساواة الاقتصادية التى تتجه الى إيجاد أرستقراطية جديدة تقوم على الملكية والاحتكارات الكبرى التى تمارس نفوذاً واسعاً على الاحزاب والصحافة والرأى العام [٢٩].

ولكن هل يعنى ذلك ان الوزراء والنواب ورؤساء الحكومات والاحزاب والصحافة مجرد دمى فى يد الرأسماليين كما يزعم التبسيط الدعائى الماركسى؟.

يجيب دوفرجى كبير الفقهاء الدستوريين ذو التوجه الاشتراكى بالنفى ذلك ان هؤلاء يستطيعون ان يعتمدوا على الناخبين للصمود فى وجه الضغوط الاقتصادية رغم تأثير تلك الضغوط فيهم، مما يجعل القرارات فى الاخير لا يمليها طرف واحد بل انها تؤخذ فى إطار قوى متوازية وهكذا فالنمط الديمقراطى هو فى الحقيقة لا يمثل ديمقراطية كاملة بل نصف ديمقراطية PLOUTO democratique لأن السلطة تقوم مرة على الشعب واخرى على المال [٣٠].

ولقد ظهرت محاور اخرى للصراع مع تطور الاوضاع فى الغرب نتيجة رجحان جانب السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية (البرلمان) فقويت السلطة المركزية على حساب نفوذ الولايات ونشب واشتد الصراع بينهما، وغدا الكفاح التقليدى ضد الملك كفاحاً ضد السلطة المركزية لضمان حقوق الولايات وغدت النظرية التقليدية فى تقسيم السلطة لا تمثل ضماناً كافياً لمنع تسلط السلطة المركزية على الولايات واستحواذ السلطة التنفيذية على النصيب الأوفر من النفوذ فى المركز.

ومهما يكن من امر محدودية تجسيد المثال الديمقراطى فى حكم الشعب نفسه بنفسه يبقى الحكم الديمقراطى خاصة بعد نمو الأبعاد الاجتماعية فيه (الضمانات الاجتماعية) قائماً على نوع من التوازن بين الرأى العام لجماهير الناخبين وبين جملة النخب ومراكز الضغط رغم رجحان الكفة فى كثير من الاحيان لفائدة الاخيرة.

أما الديمقراطيات الشعبية التى قامت على أساس النظرية الماركسية فيتركز نقدها للديمقراطية الغربية على انها لا تعطى غير حريات شكلية بينما النفوذ الحقيقى فى يد ملاك رؤوس الاموال وانه لا سبيل لامتلاك الشعب لحرياته طالما ظلت الملكية فى يد فئة الرأسماليين التى لن تكون الدولة الا خادمة لها، مما يجعل الطريق الوحيد لحرية الجماهير هو امتلاكها لوسائل الانتاج بمصادرة كل ملكية فردية، أما فى تلك الديمقراطيات. . فان ذلك التوازن مفقود. . اذ ان ملكية الشعب انما تعتبر فى الواقع ملكية الحزب الواحد بل النخبة المسيطرة فيه واحياناً الزعيم الأوحد الذى يضع بيده مقاليد كل شىء الامر الذى يجعل الجماهير عزلاء

(٢٨) المرجع فى القانون الدستورى ص ٣٤، المرجع السابق.
(٢٩) دوفرجى المصدر السابق ص ٥٦.
(٣٠) دوفرجى ـ المصدر السابق ص ٥٤.

من كل سلاح لمواجهة دولة وحزب قد استحوذا على كل وسائل السيطرة الاقتصادية والثقافية والاعلامية والامنية والعسكرية. . ومن قبيل الهراء والدعاية الرخيصة بعد ذلك لوك شعارات مهترئة حول ملكية الشعب وحرية الشعب. . طالما ان الشعب قد جرد حتى من سلاح الاحتجاج والاضراب والتجمع ومن اى وسيلة من وسائل الضغط غير اللامبالاة والتقاعس فى الانتاج والموت البطىء.

الخلاصة :

إن مصطلح الديمقراطية ـ كما بين بحق أستاذ العلوم السياسية د. عبدالله نفيسى يتسع ليشمل انظمة سياسية متنوعة وهو مطاط لدرجة انه يتحمل من الديمقراطيات الشعبية فى المعسكر الشيوعى، الى الديمقراطيات البرجوازية فى المعسكر الرأسمالى عددا غير محدود، ويبقى للمصطلح فى كل الاحوال حدان:

١ ـ نظام الحكومة.

٢ ـ مجموعة مؤسسات من مهماتها انجاز حاجتين أساسيتين:

أ ـ القدرة على سير الارادة الحقيقية لاكثرية الشعب فيمن يمثلها وكيف سيحكمها وهذا يعنى حرية تشكيل الأحزاب وحق الانتخابات والتصويت الحر.

ب ـ توفير الطرق الكفيلة بضمان قيام النواب المنتخبين بأداء ما أراده الناخبون فعلاً والقدرة على استبدالهم عند الاخلال بذلك الواجب مما يعنى ايجاد وسائل لمراقبة الحكومة[٣١].

أما صاحب العالمية الثانية فلم ير فى الديمقراطية غير ثمرة لفلسفة الصراع الأوربية تنحصر مهمتها فى ضبط الصراع والاحتفاظ به ضمن حدود ما قبل الانفجار وتقديم قنوات لتسريب الضغط وليست الصراعات التى تمزق العالم اليوم الا تجسيداً لنتائج تلك الروح الفاوستية[٣٢].

ومهما اتسع نطاق المشاركة الشعبية فانه لن يتعدى النطاق الامر الذى يجعل الديمقراطية مرتبطة لا محالة بفكرة القومية او العنصرية فقيمها ابعد ما تكون عن الانسانية، وحرياتها وحقوقها لا تتجاوز فى افضل الحالات نطاق الشعب بل الطبقة المهيمنة. فلا عجب ان تجد اعرق الديمقراطيات المعاصرة أوغلها فى الوحشية والاستبداد بالشعوب الاخرى (الديمقراطية الانجليزية او الفرنسية). ولأنها لا تستند الى قيم مطلقة غير قيم اللذة والسيطرة وحق الأقوى فان حريتها لا تحدها غير القوة، مجتمعها مضطرب منقلب ممزق. . تتخبطها الاطماع وتحكمها شتى ضروب الخداع والغش والبطش طالما ليست هناك قيمة

(٣١) د. عبد الله نفيسى: مجلة المجتمع الكويتية ٨ ربيع الاول ١٤٠٤هـ.
(٣٢) محمد ابو القاسم حاج احمد: العالمية الاسلامية الثانية ص ٢١٠ ـ دار المسيرة.

مطلقة تعلو ارادة الانسان، فرداً كان ام طبقة او شعباً ـ فلا امن معها للضعيف سواء كان أقلية داخل الشعب حيث ارادة الأغلبية تمثل مشروعية مقدسة لا مجال للقيام ضدها، او كان شعباً آخر أعوزته أدوات القوة للوقوف فى وجه خصمه فليس امامه الا الخضوع او الفناء وفق شريعة البقاء للأقوى، وارادة المنتصر هى شريعة الحق (٣٣).

ولأن الديمقراطية مفهوم اجمالى يتسع لأشد الانظمة تناقضاً فانه يعسر الحكم على نظام معين من خلال انتسابه اليه، الأمر الذى يفرض الوقوف طويلاً فى فهم طبيعة اى نظام الى ظروف نشأته وجملة القيم والافكار والأدبيات والفنون والفلسفات الشائعة بين أهله حول الانسان وعلاقاته. . ثم تتبع جملة المسالك الفردية والجماعية التى أفرزتها تلك القيم والأفكار والادبيات فى علاقة الناس ببعضهم وعلاقاتهم مع الآخر. فليست العبرة بالاشكال الديمقراطية والاعلانات مثل اعلان سيادة الشعب وحقوق الانسان ووجود تمثيل برلمانى واحزاب. وانتخابات وأغلبية ـ فقد وجدت تلك الاشكال الديمقراطية ولا تزال موجودة فى أعتى الديكتاتوريات كالنازية والفاشية وسائر الانظمة القومية والطبقية فى مشرق الارض ومغربها. . ولا تزال كثير من المظالم والفواحش من مثل عدوان الشعوب على بعضها بالاحتلال او الاستغلال. ومن مثل انتشار الفسوق والفساد والرشاوى والغش والضلال تستمد شرعيتها من جهاز الديمقراطية. ألم تزل أعرق الديمقراطيات ـ فى بريطانيا وفرنسا ـ تحتفظ بوزارات للمستعمرات او لما وراء البحار؟ وتشرع للقمار واللواط والوأد المعاصر (الاجهاض، تحديد النسل) ولفرض شروط مجحفة فى مبادلاتها مع الشعوب الضعيفة مستهترة بالاوضاع المأساوية التى تعيشها تلك الشعوب، أليس وجود حوالى ربع البشرية فى حالة مجاعة يموت تحت وطأتها كل سنة عشرات الملايين شاهداً صارخاً على فشل الديمقراطية المعاصرة وجهازها القانونى وخلفياتها الفكرية الانسانية فى تنمية الشعور الانسانى وإحلال كرامة الانسان محلاً اسمى من الرفاه والمجد القومى اللذين تبذر فيهما المليارات فى الديمقراطيات الغربية والشرقية؟ أليس بالقياس الى هذه المأساة تتضاءل منجزات الديمقراطية المعاصرة وما وفرته اجهزتها فى بلاد الغرب من حريات وحقوق للانسان، ، انسان الغرب وضمانات لمنع الجور طالما ان مصير الانسانية ينبغى ان يكون واحداً، ولقد جعله التطور التقنى ووسائل الاتصال ـ فعلاً ـ واحداً، الأمر الذى يجعل العدوان لا على شعب بل عى انسان واحد عدواناً على البشرية كلها يهدد أمنها وسلامتها ما لم تنهض لوضع حد لذلك العدوان؟

إن موطن الداء ليس فى أجهزة الديمقراطية: الانتخاب البرلمان، الاغلبية، السيادة، بقدر ما هو كامن فى فلسفات الغرب وادبياته التى فصلت بين الروح والجسد (فلسفة ديكارت) ثم تجاهلت الروح ووأدتها وحاربت الله وجاهدت جهاداً كبيراً لاحلال الانسان محله فلم يبق فى الكون والانسان غير المادة والحركة واللذة والسيطرة والصراع وشرعة القوى. انه هنا تكمن مصائب الانسانية وليس فى النظام الديمقراطى او تقنياته المعروفة التى يمكن ان

(٣٣) فلسفة دارون وهيجل ونيتشة واضحة فى التبرير والتشريع للاقوياء فى حكم الضعفاء.

تعمل بنجاح وتشكل جهازاً صالحاً لتنظيم العلاقة بين الحاكمين والمحكومين ونقل الشرعية من الشخص الحاكم الذى يعلن فى صلافة مع لويس ١٤ او مع بورقيبة، واضرابهما كثيرون «أنا الحزب» «أنا الدولة» مستمدين الوحى من سلفهم فرعون ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ ﴿ما أريكم الا ما أرى﴾ نقلها من شخص الحاكم الى مؤسسة للحكم. نعم يمكن ان يعمل الجهاز الديمقراطى بنجاح فى كبح جماح الاستبداد والرق لو تهيأت له فلسفة وقيم انسانية صالحة تعترف بأبعاد الانسان كلها ومنها بعده الروحى والخلقى من حيث حاجته الدائمة الى الخالق، وعدم قدرته على الاستقلال عنه الا بالتفريط فى انسانيته وسموه..

إنه لا بد من فلسفة تعترف للانسان بكرامة تجنبه السقوط فى هاوية الاستبداد من جهة وهاوية الرق من جهة اخرى [٣٤]. ولكن النظام الديمقراطى على ما هو فى الغرب يبقى فى غياب النظام الاسلامى افضل الانظمة التى تمخض عنها تطور الفكر البشرى، كما انه يبقى اطاراً صالحاً لضمان حرية الشعوب فى تقرير مصيرها واختيار نوع النظام الذى تريد ان تعيش فى ظله فما ينبغى اذن الاتكاء على عيوب هذا النظام لرفضه ولو كان ذلك لحساب الديكتاتورية، فان حرية منقوصة خير من الاستبداد. وان مجتمعاً محكوماً بقانون ناقص افضل من مجتمع قانونه ارادة الطغاة واهواؤهم.

(٣٤) الاسلام والديمقراطية: مالك بن نبى.

المبادىء الأساسية للحكم الاسلامى

مقدمات

مقدمة ١ فى اعتبار السلطة فى الاسلام ضرورة أو طبيعة اجتماعية ضرورية :

لم يعد احد من الدارسين ممن أتى الاسلام بقلب سليم باحثاً عن الحق وقد توفر على إلمام كاف بعلوم الاسلام وتجربته التاريخية يساروه ادنى شك فى الطبيعة الخاصة للاسلام من حيث كونه نظاماً شاملاً للحياة، وان الحقيقة فى نظر الاسلام كما يؤكد «إقبال» . . هى بعينها تبدو ديناً اذا نظرنا اليها من ناحية وتبدو دولة اذا نظرنا اليها من ناحية اخرى[٣٥]. ولم يخرج عن هذا الاجماع من القدماء غير عالم واحد من المعتزلة وفرع صغير من فروع الخوارج اعتبروا إقامة الامام او الدولة الاسلامية ليس واجباً دينياً وانما مصلحة شرعية يؤخذ بها قدر الحاجة اليها . . أما فى العصر الحديث ونتيجة لتأثير سيطرة الغرب على بلاد المسلمين فقد برزت فى الوسط التعليمى الغربى الذى أسسه المستعمرون مبادىء فصل الدين عن الدولة وتحميل الاسلام وسياساته مسؤولية الانحطاط. ولكن المعاهد الاسلامية التقليدية هى نفسها قد انطلقت منها بعض الاصوات الداعية الى نفس التفكير العلمانى من مثل الشيخ المصرى على عبدالرازق الذى كان لكتابه «الاسلام وأصول الحكم» الصادر فى نهاية الربع الأول من هذا القرن شهرة كبيرة وتدافعت الآراء حول ما تضمنه من نفى الدولة عن الاسلام والتأكيد بأن محمداً ﷺ كسابقيه من الرسل لم يكن غير مبلغ لرسالة وان ما استحدث بعد ذلك من نظام الخلافة كان مجرد عمل اقتضته ظروف البيئة ولا علاقة له بالدين ولا يقتضيه. لقد تدافعت مناكب المفكرين والعلماء حول الكتاب تأييداً ومناصرة او نقضاً وتقييماً واستنكاراً. ولم تلبث تلك الضجة حول الكتاب ان خبت وفقد الكتاب وهجه نتيجة حملة النقد العاتية التى قامت بها المؤسسات الدينية الرسمية ضد الكتاب وصاحبه متعاونة فى ذلك مع دعاة الحركة الاصلاحية ومفكريها الذين لم يكتفوا بنقد الكتاب وتسفيه الأدلة القائم عليها وتعرية الدوافع الكامنة وراء الكتاب فى ظرف اتسم بتمكن الغزو الغربى من الاجهاز على ما تبقى من الخلافة العثمانية. . بل اضافوا الى ذلك جهوداً ايجابية تمثلت فى تكثيف الكتابة فى النظام الاسلامى لتجلية خصوصياته بين الانظمة وإبراز معالمه من ناحية. . وبعث حركات واحزاب اسلامية للدعوة الى إعادة الخلافة او لاقامة حكومة اسلامية بشكل عام من ناحية اخرى. . وكانت جهود الدعوة الاسلامية فى مصر منذ العشرينات وما تلاها وسار على نهجها ـ على نحو او آخر ـ من دعوات فى معظم مناطق العالم الاسلامى ، منذ ذلك التاريخ وحتى الآن متأثرة بدرجات مختلفة بتلك المعركة التى اندلعت نارها فى العشرينات بين حركات لائكية ـ علمانية ـ (ليبرالية ، ماركسية ، قومية . .) تتخذ من دعوة على عبدالرازق وخلفائه فى

(٣٥) تجديد الفكر الدينى فى الاسلام. محمد اقبال.

مصر وتونس والهند سند الدعم لانفكاكها عن النص الاسلامى لحساب توثيق الصلة مع الغرب، وكانت انظمة الحكم التى عمرت المنطقة حتى الآن فى غالبيتها المطلقة متأثرة بمضامين هذه الدعوة ان لم تكن ثمرتها. . وبين حركات اسلامية تجاهد وسط محن متواصلة لتحرير الاسلام مما حاولت تلك الدعوات اللائكية الصاقه به من تأويلات مجافية لروحه التوحيدية. وكانت اهم الادلة التى استند عليها دعاة الوصل بين الاسلام والسياسية هى:

١ ـ **الدليل التاريخى**: ويتمثل فى ان احداً لم يعد قادراً على إنكار حقيقة انه قد قام بعد الهجرة فى المدينة مجتمع سياسى متميز مستقل برقعته الترابية وبنظامه القانونى الموحد وقيادته. . تربط افراده وشائج ومواثيق واهداف مشتركة. وان ذلك المجتمع قد قام بكل وظائف الدولة من دفاع وقضاء وتعليم، وإبرام معاهدات وابتعاث السفارات، وانه ما كان من بناة ذلك النظام من يشك فى طبيعته من حيث ان سلطة التقنين العليا لله ورسوله (الكتاب والسنة) وان المصادر الأخرى للتقنين «الاجتهاد» انما هى مصادر ثانوية تعمل فى إطار المرجعية والمشروعية العليا (الكتاب والسنة «الوحى»).

٢ ـ **دليل الاجماع**: فلقد ثبت ان علماء المسلمين وعقلاءهم عامة لم يساورهم فى كل عصورهم ريب فى ضرورة اقامة الامام «الحكم الاسلامى» لانفاذ الشريعة وخدمتها عملا بقاعدة ان ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب، فاذا كانت الامة كافة مأمورة بإقامة الشريعة وهى جملة النظام الاسلامى الذى اختاره الله لحياة البشر وهو واجب النفاذ، وهم آثمون ان لم يقيموه، لا سبيل الى إقامته الا فى مجتمع سياسى مستقل بأرضه وقيادته مشبع قناعة بالشريعة وأصولها فان اقامة ذلك النظام «الحكومة الاسلامية» واجب شرعى تأثم الامة كلها ان لم تبذل اقصى الجهد وتسترخص الاموال والانفس لاقامته.

ويتأكد هذا الاصل بالنظر الى الشريعة من حيث شمول مضامينها لحياة الناس الاقتصادية والاجتماعية والخلقية والسياسية وللعلاقات الدولية وللعقوبات. . ففى الشريعة اوامر عامة كإقامة العدل والشورى والمساواة وفيها شرائع تفصيلية تأمر بوسائل محددة لكفالة المحتاجين وتوزيع الثروة منعاً للتكديس. . الخ وفيها امر للأئمة بالعدل والشورى وللأمة بالسمع والطاعة والنصيحة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وفيها اوامر بمحاربة كل ضروب الفساد واوامر بحماية الامة من أعدائها وصيانة الاسلام والدفاع عن المسلمين وتوفير حرية الاختيار للناس كافة والتعريف بالاسلام وحمل رسالته، وفيها نظام مفصل للاسرة ونظام دولى ونظام للعقوبات، ونظام للتعليم، فكيف يمكن لغير جاهل او مدخول النية ان يخطر على باله ان ذلك كله ممكن التحقق فى إطار سياسى يقوم على مبادىء واهداف معادية او محايدة للاسلام وعلى يد رجال لم تتشبع ارواحهم بقيمه؟ ان ذلك من أشنع ضلالات الملحدين وضحايات الغزو الفكرى، انه ابليس والردة المعاصرة[٣٦].

٣ ـ **السلطة الاجتماعية**: ولا يعنى التأكيد على ضرورة السلطة فى الاسلام او للاسلام كونها جزءاً منه فليس فى الاسلام امر مباشر بإقامتها ولكن عدم قيامها يأتى او يكاد على جملة الشرائع التى جاء بها الاسلام لانه طالما ان الاجتماع ضرورى لحياة البشر ورقيهم وانهم فى اجتماعهم لا مناص لهم من سلطة تقيم العدل بينهم وان الاسلام هو شريعة لاقامة العدل

فان هذه السلطة لا يخلو حالها اما ان تقوم على انفاذ تلك الشريعة فتكون اسلامية واما ان تقوم على إنفاذ شريعة اخرى فتكون غير إسلامية سمها عندئذ ما شئت الا ان تنتسب الى الاسلام.

ان السلطة بهذا التصور لئن لم تكن جزء من الاسلام فهى وظيفة اساسية لقيامه فتندرج بذلك ضمن الوسائل لا ضمن المقاصد.. وقيامها تبعاً لذلك لا يحتاج الى تنصيص من الشارع لأن سنن الاجتماع تقتضيها ضرورة.. وانما الذى احتاج الى تنصيص وعناية هو الضمانات الاساسية لعدم خروجها عن وظيفتها: إقامة العدل.. كالأمر بالشورى والمساواة وإشاعة الثروة ومنع إتيان الحكام الأموال يأكلونها بالباطل، وإلزام الامة كلها وخاصة علماءها بالحسبة على الحكام وإشاعة العلم كل ذلك لانتاج رأى عام يقظ يقوم بالرقابة العامة لحراسة الشريعة ضد كل انتهاك من الحكام والمحكومين من خلال الممارسة الدائمة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر..!

ان الاسلام لم يحتج الى امر باقامة السلطة لأن سنن الاجتماع تقتضى ضرورة قيام تلك الوظيفة عادلة او ظالمة تماماً كما هو الشأن مع وظائف الحياة.. فلم يأمر الاسلام بالاكل والشرب والتنفس والراحة لان الناس بطبيعتهم يفعلون ذلك وانما احاط إشباع هذه الغرائز بجملة من القيم والتعاليم من شأنها قيام تلك الوظيفة بطريقة ايجابية تحفظ الحياة ورقيها، فمنع الاسراف والتقتير والبغى والاحتكار كما احاطها بجملة من الآداب تضفى على الأداء جمالاً.

وهذه النظرة للسلطة فى الاسلام على انها وظيفة اجتماعية لازمة تمثل موقفاً وسطاً بين موقف اللائكيين (العلمانيين) نفاة هذه الوظيفة وهم دعاة نشطون لتعطيلها مصادمين سنن الدين والاجتماع، وبين طائفة من المسلمين ذهبوا فى غلو شديد الى اعتبار السلطة فى الاسلام وظيفة دينية كالصلاة والصيام قد نص عليها الوحى كما نص على قائمة اسمية لمن يجب ان يتولاه بعد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم وتتكون تلك القائمة الاسمية من إثنى عشر اماماً وان الايمان بتلك القائمة يمثل أصلاً من أصول الدين اى على نفس مستوى الايمان بالله ورسله واليوم الآخر، فليس للمسلمين الا ان يسلموا بتلك القائمة تسليماً وبذلك النظام الوراثى

(٣٦) للعلامة ابى الحسن الندوى رسالة صغيرة فى هذا الشأن عنوانها «ردة جديدة ولا ابابكر لها» اذ ان المرتدين كما هو معلوم لم يرفض ـ الكثير منهم ـ الجوانب العقائدية من الاسلام والشعائر التعبدية، وانما كان رفضه للجانب الاجتماعى السياسى المتمثل فى الخضوع لسلطة مركزية من وظائفها جباية الزكاة حتى ان عمر بن الخطاب ذاته قد ارتبك فى امر قتالهم طالما انهم مقرون بالعقيدة مقميون للصلاة غير ان الرؤية لدى ابى بكر كانت فى غاية الوضوح: الزكاة كالصلاة تلازم العقيدة فمن انكر هذه انكر تلك «والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة» وقمع بذلك فى المهد اول حركة علمانية لانكية، فى التاريخ الاسلامى، انه لم يقاتل فى المرتدين حركة فكرية كان يمكن ان تواجه بمثلها وانما قاتل فيهم حركة مسلحة ضد السلطة الشرعية لغرض التجزئة عودا الى الوضع الجاهلى: التجزئة وغياب السلطة السياسية.

الذى اختلف دعاته انفسهم فى ترتيبه وتسلسله[٣٧] ولكنهم متفقون على أن ائمتهم قد بلغوا من العلم والقرب مبلغاً لم يصله نبى مرسل [٣٨] وهذا بلا ريب غلو ثيوقراطى أملته وكرسته المظالم السياسية، والعصبيات العرقية، والمصالح الحزبية الضيقة. وانما الحق وميزان الاعتدال ما ذهب اليه جمهور المسلمين قديماً وحديثاً من ان السلطة وظيفة اجتماعية لحراسة الدين والدنيا، الدين أس والسلطان حارس [٣٩] وهى بهذا الاعتبار سلطة مدنية ديمقراطية لا تختلف عن الديمقراطيات المعاصرة الا من حيث علوية سيادة الشريعة او التقنين الالهى على كل سيادة اخرى فى هذا النظام. . أما ما تبقى فهى وسائل يؤخذ بها على حسب مساهمتها فى تحسين اداء تلك الوظيفة ألا وهى ما تنص عليه او تضمنه بحسب ما يوافقه أو بحسب ما يخالفه.

ان الدولة الاسلامية وسيلة لا غنى عنها ـ طالما ان الانسان اجتماعى بطبعه وان الاسلام نظام شامل للحياة ـ لايجاد بيئة اجتماعية تتيح لأكبر عدد ممكن من افرادها ان يعيشوا روحياً ومادياً فى توافق مع القانون الفطرى الذى جاء من الله وهو الاسلام. . ان الدولة الاسلامية ليست الا الجهاز السياسى لتحقيق مثل الاسلام الأعلى فى ايجاد امة تقف نفسها على الخير والعدل تحق العدل وتبطل الباطل فى الارض كلها[٤٠] حتى تكون عبادة الله والتقرب اليه بالطاعات وفعل الخيرات وإقامة العدل امراً مرغوباً ميسوراً مجزياً. . ومحادته بالكفران والمعاصى وانتهاك الحرمات وإشاعة الشرور واقتراف المظالم اموراً بغيضة عسيرة مرهوبة فى المستوى الاجتماعى على الاقل.

ان تصور إتاحة الفرصة امام اكبر قدر ممكن من الناس لتحقيق المثل الاسلامى الاعلى من العيش دون قيام سلطة اسلامية وترك الجهاد من اجل إقامة تلك السلطة والاطمئنان الى ان أمة الاسلام بخير طالما حافظت على بعض الشعائر المعزولة عن واقع الحياة وانظمتها هو من جهة اولى انحراف شنيع عن الاسلام ووقوع فى الضلال والاثم المبين وهو من جهة اخرى استسلام لاعداء الاسلام، وتكريس لاستمرار الهزيمة والتجزئة والتبعية والهوان وإيكال الاسلام لمصيره.

من اجل كل ذلك كان الرفض بل الثورة على الدولة العلمانية «اللائكية» «الكهنوت الجديد» التى عاشت امتنا فى ظلها التجزئة والتبعية والتخلف، والعمل الدائب الفردى والجماعى واسترخاص الاموال والانفس فى سبيل اقامة دولة الاسلام واجباً شرعياً ومصلحة

(٣٧) اختلف الشيعة الامامية وهى القائمة فى ايران اليوم عن الشيعة الزيدية والشيعة الاسماعيلية فى ترتيب تلك القائمة بل فى افرادها.

(٣٨) انظر الحكومة الاسلامية لآية الله الخمينى، طبعة المكتبة الاسلامية الكبرى بطهران، ص ٥٢.

(٣٩) انظر كتب السياسة الشرعية فى تعريف الامامة: للماوردى ولابى يعلى ولابن قيمية من القدامى ولضياء الدين الريس وفتحى عثمان ومحمد سليم العوا والمودودى وغيرهم. . اما عبارة الامام الغزالى «الدين اس والسلطان حارس. ومالا اساس له فمهدوم ومالا حارس له فضائع» فقد وردت فى كتاب: الاقتصاد فى الاعتقاد.

(٤٠) محمد اسد من كتابه الوجيز العميق «منهاج الحكم فى الاسلام» ص ٧٠، ٧١، ٧٢.

* راجع نص وثيقة دستور دولة المدينة فى نهاية هذا العدد.

وطنية استراتيجية. فانه طالما ظل هذا الواجب معطلاً فستظل الامة محرومة من بركات الاسلام وثمار حضارته فى الدنيا الآخرة. . العدل والحرية والوحدة والأمن والتقدم والسلام العالمى والنعيم المقيم فى الدارين.

مقدمة ٢ فما هى مقومات الدولة الاسلامية فى المدينة؟

إن الدولة الاسلامية كما تجسدت فى المدينة على عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وخلفائه الراشدين من حيث الشكل تتوفر على جميع العناصر التى تتوفر عليها كل دولة وهى الشعب (الأمة) واقليم وسلطة، ونظام قانونى. وقد حدد دستور المدينة (الصحيفة) بشكل دقيق الفئات التى تتكون منها الدولة. . من مسلمين ويهود ومشركين قد نص عليهم الدستور قبيلة قبيلة، جميعهم يكونون امة من دون الناس «الأمة السياسية» وقد نصت الصحيفة على حقوقهم وواجباتهم.

أما الاقليم فهو المدينة «يثرب» موطن الدولة الاسلامية الأول. ولقد قام رئيس الدولة بوضع علامات تبين حدود الدولة وجعلها حرماً آمناً مشعراً المنتقلين منها واليها بأن كياناً سياسياً جديداً قد ولد [٤١] كما حددت الصحيفة موضع السلطة فى الدولة الاسلامية من اجل تنظيم امور الشعب والامة. ونصت كذلك على النظام القانونى الذى يخضع له الجميع والمتمثل فى الشريعة التى هى مرد كل نزاع.

وأكدت الصحيفة واجب التناصر والمساواة بين جميع الفئات فى الدولة والدفاع المشترك عن حرم الدولة ومنع الولاء لاعدائها، والتكافل داخل كل فئة من تلك الفئات ومنع العدوان مطلقاً. . وحرية الاعتقاد وممارسة الشعائر الدينية.

وتعد هذه الوثيقة الدستورية المكتوبة التى كانت من اول انجازات النبى فى المدينة لدى المطلعين عليها من فقهاء القانون الدستورى سبقاً دستورياً لا مثيل له فى تاريخ القانون الدستورى جديراً بمزيد من الاهتمام والدراسة خاصة وقد تعرضت الصحيفة لبعض المشكلات العويصة مثل مشكلة المواطنة فى مجتمع متعدد المذاهب والمعتقدات - فاعترفت للجميع دون اى استثناء بحق المواطنة وان جميعهم يكونون امة من دون الناس وهى الامة السياسية التى يشترك أفرادها فى الارادة المشتركة فى التعايش السلمى والولاء للدولة والدفاع عنها - ذلك الى جانب الامم العقائدية امة يهود، وامة الاسلام. . الخ. . ولا شك انه وقد عددت الصحيفة جميع الفئات العقائدية المكونة ليثرب. ما كانت لتستثنى فئات اخرى، ذات عقائد اخرى قد ارتضى اهلها الدخول فى هذا العقد لو كانت موجودة فليس هناك موجب لاستثنائهم - الامر الذى يقطع بوجود مفهوم واضح للمواطنة فى تلك الدولة يتكون

(٤١) يمكن الرجوع للوثائق السياسية للعلامة محمد حميد الله أو لمحاضرة د. معروف الدواليبى «الدولة والسلطة فى الاسلام» ص ٢٨ ضمن ندوة اليونسكو الدولية حول «رؤيا الاسلام الخلقية والسياسية» ولقد اورد ابن هشام فى السيرة نص الوثيقة، او الصحيفة.

من الاشتراك فى الاقليم مع ارادة العيش المشترك فيه والنهوض بها يترتب على ذلك من حقوق وواجبات، ومن عنصر عقائدى هو الذى يضفى على تلك الدولة صبغتها المذهبية ويزودها بالقاعدة او الفكرة القانونية التى تقوم عليها وبالشريعة المنظمة لها وهى العقيدة الاسلامية والشريعة الاسلامية. . فحسب هذا التصور الذى قدمته هذه الصحيفة ونصوص القرآن لمفهوم المواطنة فى هذه الدولة انه على الرغم من اهمية العقيدة والشريعة فى تأسيس تلك الدولة وتنظيماتها فانه لا يتمتع بحق المواطنة فيها الا من كان مقيماً على ارضها مسلماً كان او غير مسلم.

ان المواطنة متاحة لكل من طلبها فالتحق بإقليم الدولة وادى الذى عليه. . أما الذين رفضوا ذلك ـ وان كانوا مسلمين فليس على الدولة من ولا يتهم من شىء الا ان يلتحقوا بها. . اما اذا آثروا الاقامة فى إقليم خارج الدولة فهم وان كانوا جزء من الامة العقيدية فهم خارج الامة السياسية (٤٢).

وهذا الوضوح الذى قدمه دستور المدينة يدحض ما ذهب اليه بعض المستشرقين وتبعهم بعض رجال القانون الدستورى عندنا مثل الاستاذ عياض بن عاشور الذى زعم فى مقال بمجلة «بوفوار POUVOIR» الفرنسية: «ان الامة ليس لها كيان واضح ملموس وانما هى تصور غامض، ولذلك فان هذه الامة لا يمكن ان تكون لها ارادة ولا يمكنها ان تعبر مباشرة عن نفسها وانما الذى يعبر عنها هو فئة الارستقراطية التى تحتكر السلطة والعلم» (٤٣).

مقدمة ٣ أساس الحكومة الاسلامية :

ان انظمة الحكم لا تتمايز بمؤسساتها السياسية والقانونية التى تدار من خلالها السلطات وتتخذ القرارات رغم اهمية ذلك، بقدر ما تتمايز بنوع الافكار والعقائد والقيم والقواعد التشريعية الرئيسية التى تمثل مضمون نظام معين وروحه العامة وتشكل الشخصية الفردية والعلاقات الجماعية لمؤسسى ذلك النظام وتصوراتهم عما هو عدل وحق وخير وعما هو ظلم وباطل وشر وعما يجعل هذا العمل خيرا أو شرا عدلاً أو ظلما، حقا أو باطلا. . انه بغير كبير عناء يمكن نقل مؤسسات نظام معين من امة الى اخرى، أما نقل الروح العامة ونظام الافكار وقواعد التشريع فأمر عسير، ولن يعمل نظام بنجاح دون روحه العامة. . وذلك مرد خواء المؤسسات الغربية وفشلها فى ان تؤتى خارج اطارها التاريخى والثقافى حتى تلك الثمار الضئيلة التى اتتها داخل ذلك الاطار. فقد كنا اكدنا سابقا ان الديمقراطية مثلا ليست مجرد اعلان دستورى لحقوق الانسان وانتقال السلطة الى الشعب واعتماد اسلوب الانتخاب فى قيام السلطة التنفيذية والتشريعية ـ فكم من اعلانات ولا ديمقراطية ـ بقدر ما هى تقدير معين

(٤٢) يراجع ابو الاعلى المودودى فى تفسيره لآية الانفال ﴿والذين لم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا﴾.

(٤٣) مجلة (POUVOIR) العدد ١٢ سنة ١٩٨٠ نقلا عن د. معروف الدواليبى فى محاضرته السابقة الذكر وقد جاء رده على «عياض» ضمن رده على المستشرق «زارتمان» فى السياق التالى «ويأتى بعد وليام زارتمان الاستاذ عياض بن عاشور من تونس ونت احسب اننى سأجد فى كلمته ما يصحح مزاعم زارتمان واذا به يشرب معه من نفس الكأس» ص ٨ نفس المصدر.

للانسان وللكون وللحياة، تقدير يرسخ فيه كرامة الانسان وحريته وينأى به عن السقوط فى هاوية الرق أو الاستبداد[٤٤]. ولا شك ان حسنات النظام الديمقراطى انما تعود الى ايجابيات ذلك التصور الانسانوى (Humanisme) الذى قدمته فلسفة عصر النهضة والاصلاح الدينى، وان قصوره فى تحقيق التوازن فى شخصية الفرد بين مطالبه الروحية والمادية وفى تحقيق التوازن بين مصالح الفرد والجماعة وبين مصالح الشعوب القوية والضعيفة وايجاد السلام والتعاون بينها بدلاً عن الاستغلال والتسلط انما يعود الى تصور تلك الفلسفة سواء فى صبغتها الاصلاحية الدينية التى كرست الفصل بين العقل والروح، والروح والمادة، والدين والحياة ومحاولة المحافظة على توزيع السلطة بين الله وقيصر، أو فى صيغتها الفردية التنويرية التى الهت العقل وخلقت دينا ماديا فرديا لئن اطلق العقل من عقاله يجوب الآفاق ويستكمل مسيرة المعرفة ليوظفها توظيفا ابليسيا فى اشباع اهواء التسلط والمتعة الآثمة. . فقد اطلق الغرائز المحمومة ايضا دون ضابط ولا رادع. . او فى صيغتها المادية الماركسية أو النازية التى كفرت بالله والكنيسة والحرية لتحل محلها آلهة جديدة هى الانتاج والطبقة والحزب والزعيم والدولة. . وتنصب كنيسة جديدة فى قيادة الحزب و«بابا» جديد هو رئيس الحزب. . انه فى كل الاحوال سمه ما شئت. . «نابليون» أو «هتلر» أو «موسليني» أو «لينين» أو «ستالين» أو «ديغول» أو «ريغن». . انه فى كل الاحوال رمز التسلط الداخلى أو الخارجى والثمرة الطبيعية للانسان المتمرد على الله الطامح للحلول محله. قد تسعد البشرية فى ظله يوما سعادة المخدر المخمور لتشقى دهرا، وقد تعرف الابتسامة طريقها فى ظله الى فرد أو آحاد او حتى شعب لتنوح مئات الملايين. . قد تضىء اسلاكه بعض الطرقات لتمتلىء القلوب ظلمة وتعاسة. . قد تعبر ناقلاته القارات وصلا لتغير عليها نفاثاته وصواريخه الناقلة للدمار قطيعة ومحقا. . انه النبات المسموم الذى تحدث عنه القرآن «كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما. . وفى الآخرة عذاب شديد» أو هو شنجرة الزقوم التى ولئن كثرت ثمارها وأزينت فما تزيد الجائعين الا عذابا ونكدا. .

انه اذا كانت الفكرة المركزية فى الحضارة الغربية وحكوماتها الانسان المقطوع عن الله او المتمرد على الله بديلا عن الفكرة المركزية فى حضارة القرون الوسطى الاوربية وفى حضارات الشرق الاقصى الانسان الفانى فى الله من خلال عبوديته للكنيسة ورجال الدين وانصرافه عن حياة الصراع والكدح، فان الفكرة المركزية فى الحضارة الاسلامية ومنها الحكومة الاسلامية وهى انها اداة رئيسية من ادوات تلك الحضارة ـ هى الانسان المستخلف عن الله. . هذا الكائن المكرم بالعقل والارادة والحرية والمسؤولية. . الذى أوكل اليه خالقه مهمة عمارة هذا الكون واكتشاف طاقاته وتسخيرها لتحقيق الخير والحق والمساواة والعدل والحرية والمعرفة والثروة للجميع وفق الضوابط والمناهج والقيم والعقائد التى جاء بها الرسل عونا من الله ورحمة لهذا المخلوق حتى يحقق هذا المخلوق الحر بارادته واختياره سنن الله فى حياته كما تحققت تلك السنن لدى الكائنات جبلة وغريزة، فيحقق هذا المخلوق بالعلم والحرية

(٤٤) مالك بن نبى، المصدر السابق.

والجهاد التناغم مع الاكوان كلها تسبيحا وصلاحا وارتقاء فيكون بحق سيدها، أو يستسلم لدوافع الهوى والشيطان فيرتكس فى هوة الطغيان أو درك الرق، فيسعى فى الارض فسادا أو افسادا أو مذلة وهوانا فيشقى فى الدنيا ولعذاب الآخرة اشق أو ينجح فى الابتلاء والتحدى فتكون له جنتان فما اكبره من تحد وما اخطره من رهان.

ان نظرية الاستخلاف وهى الركن الاساسى فى الفلسفة السياسية الاسلامية تتضمن:

١/ الاعتراف بوحدانية الله وانه ـ سبحانه ـ رب كل شىء ومليكه والحاكم بغير معقب ولا شريك وان قانونه يعلو كل قانون.

٢/ وان الانسان كائن مكرم بالعقل والحرية والمسؤولية والرسالة قد اكتسب بمقتضى ذلك التكريم حقوقا لا سلطان لاحد عليها ويحمل تكاليف لا انفكاك له منها، وهى فى جملتها تشكل عهدا أو عقدا ان يعبد الله لا يشرك به احدا وفق شريعته وانه ان فعل ذلك استحق من ربه بركات الرضوان والفوز فى دارى الدينا والآخرة. واذا كانت خلاصة النتيجة الاولى لعقد الاستخلاف من الناحية الدستورية علو سلطان الشريعة عن كل سلطان آخر بما تضمنته من عقائد وشعائر واخلاق ونظم هى فى حقيقتها جملة من القواعد القانونية العامة وبعض التفصيلات تمثل فى مجموعها «الاطار القانونى والعقائدى والاخلاقى للدولة الاسلامية يمكن اجماله فى كلمة واحدة النص، اى نص الوحى ـ كتابا وسنة ـ قطعى الورود والدلالة، وهو الدستور الاعلى للدولة الاسلامية. فان خلاصة النتيجة الثانية لوثيقة الاستخلاف من الناحية الدستورية اى فى التنظيم العام للحكومة الاسلامية: تتلخص فى كلمة واحدة هى الشورى فالنص والشورى أو العقل والنقل أو الالتزام والحرية «شريعة الله وشورى الناس»[٤٥] هما المبدآن الرئيسيان اللذان تتأسس عليهما الدولة الاسلامية وهما ثمرتان لازمتان لنظرية الاستخلاف الركن الاساسى فى العقيدة السياسية الاسلامية.

▪ الاسلام والعنف

مقدمة :

كثر الحديث فى الفترة الاخيرة من تطور الاحداث فى تونس عن «الاتجاه الاسلامى» ودوره فيها جد من حوادث عنف. وازالة لكل التباس وظن واثم، واخراجا للقضية من مجال المزايدات والتوظيف السياسى نحب لقرائنا الكرام ان يتابعوا بانتباه هذا المقال التوضيحى.

على اعتبار ان الاتجاه الاسلامى حركة تغيير شامل للواقع بالاسلام لبناء مجتمع اسلامى، فلا مناص لكى نحدد موقفه من قضية العنف ان نحدد نظرته للاسلام ولمنهاج التغيير كما مارسه الانبياء عليهم السلام، وللواقع الذى هو مجال هذا التغيير، ثم نتبع هذا الجانب النظرى من الموضوع بتتبع تاريخى لهذا الاتجاه وواقعه.

ماذا نفهم من الاسلام؟

ان الاسلام منهاج شامل للتحرر او هو ثورة تحررية شاملة، انه تحرير للبشرية من الطاغوت، طاغوت الشهرة والخرافات والاستبداد والاستغلال وهو دعوة الى التوحيد وما ينتج عنه من معانى المساواة والعدل والاخوة والحرية وحب الحق، انه منهاج شامل للحياة يوجب على المؤمنين ليكونوا صادقين فى ايمانهم ان ينظموا حياتهم الخاصة ويعملوا على تنظيم الحياة عامة وفق ارادة الله التى كانت دعوة النبى العربى محمد ﷺ اخر واشمل تعبير عنها، والمتمثلة فى القرآن والسنة.

مبررات الدعوة للاسلام فى مجتمعنا :

تنطلق هذه المبررات اساسا من التناقض الذى يحس به المؤمن احساسا حادا بين الصورة المشرقة للاسلام التى تغمر كيانه وبين الواقع الآسن والغارق فى الوحل، ميوعة وانحلالا وتغريبا ثقافيا وحيفا اجتماعيا واستبدادا سياسيا، وولاءا لا لله ولرسوله وللمؤمنين، وانما للاهواء والمصالح والعصبيات والقوى الدولية الشيطانية. وباختصار ان المسلم غريب وان غربته فى هذا المجتمع تزداد على قدر نمو معارفه وانعتاقه من الاستلاب الثقافى ولان الاسلام يقتضى من معتنقيه ان يكونوا فعالين، ايجابيين اصحاب رسالة خلفاء لله فى دعم الحق والعدل والخير فى العالم ومطاردة الظلم والكفر، كان لزاما على هؤلاء ان يجتمعوا على هذه الدعوة ويتفقوا على منهاج فى تقويم انفسهم وواقعهم، فكان الاتجاه الاسلامى.

منهاج الدعوة الى الاسلام:

واذا كان الاسلام ربانيا فمنهاج الدعوة اليه فى مفهومه العام لم يترك للاجتهاد الشخصى وانما تولى الوحى والبيان النبوى تحديد ذلك المنهاج. ويتلخص هذا المنهاج فى مرحلتين:
أ/ مرحلة بناء المجتمع المسلم أو اعادة بنائه واصلاحه:

ومنهاج الدعوة فى هذه المرحلة يتلخص فى «البلاغ المبين والصبر الجميل» كما اوضحته عديد الآيات والمرحلة المكية فى السيرة النبوية حيث كان النبى عليه الصلاة والسلام يصدع بالحق فى ابطال العقائد والمفاهيم الخاطئة وما ارتبط بها من مظالم اجتماعية ومفاسد خلقية واستبداد سياسى، ويدعو الى عقائد الاسلام مبشرا بثمارها فى سيادة العدل والمساواة والحرية والسعادة فى الدارين متحملا بكل صبر ما يلقاه من اضطهاد من القوى المضادة لحركة التغيير، رافضا كل محاولة من اصحابه لرد العنف بالعنف، داعيا اياهم لمواصلة الهجوم الفكرى على رموز الجاهلية مع تحمل الاذى والآيات فى ذلك كثيرة منها:

﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن﴾، ﴿فاصدع بما تؤمر﴾، ﴿لا اكراه فى الدين﴾، ﴿ان عليك الا البلاغ﴾، ﴿فاصبر صبرا جميلا﴾.

فكان حرص النبى وكل الانبياء شديدا على الا تلتبس دعوتهم فى هذه المرحلة باى تهمة عنف أو اكراه تكريسا لمبدأ حرية المعتقد والرأى، وحرموا بذلك القوى المضادة من ان يقوموا بأى ممارسة عنيفة تستغلها فى التشهير بهم - فتقيم حواجز بينهم وبين الرأى العام - ووصفهم بالارهاب والتآمر، وكان امتناعهم عن مجابهة القوة بمثلها وهم قادرون على ذلك تفويتا للفرصة على الخصوم من ناحية وآية على صدقهم من ناحية اخرى اذ لا يصبر على البلاء والعذاب الا صاحب عقيدة، فكانت مشاهد التعذيب المسلطة عليهم وهم صامدون فى تحدى قوى البغى بمثابة المفجر للوعى الشعبى واقناعه بأن وراء قوة السلاح والمال قوة اعظم هى قوة الايمان، فيتحول الرأى العام بدافع الاعجاب بالبطولة والثبات فى وجه الطغيان وبما فطر عليه الانسان من كره للظلم الى متعاطف مع اولئك الدعاة ومع ما يؤمنون به، ناقم على مضطهديهم، مستهين بسلطان الجور امام قوة الحق.. وبديهى ان صبر الدعاة على الاذى ليس دافعه استمالة الجماهير وانما انتظار الاجر من الله على الالتزام بنهجه.

﴿وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾، ﴿اتقتلون رجلا ان يقول ربى الله﴾.

وهى تهمة تحرج القوى المضادة للتغيير لان الجماهير ترفض بفطرتها اضطهاد صاحب المبدأ لمجرد ايمانه بمبدأ ودعوته اليه ما تجنب استخدام القوة. فاذا كانت هذه الجماهير اسلامية، ولو عن غير وعى، كان ذلك من باب اولى. وعندها ترى القوى المضادة للاسلام - ولو كانت ملحدة - تحرص على اظهار احترامها للاسلام، فكيف تضطهد الدعاة الى الله، انه لابد من رميهم عندئذ بأية تهمة عدا انهم دعاة للاسلام، ومن ثم فكم تكون فرحة تلك القوى عظيمة

بتورط الدعاة او بعضهم فى ورطة العنف، وكم يكون اضرار الدعاة بدعوتهم فادحا.

فهكذا كان شأن الانبياء فى منهاجم لانشاء المجتمع المسلم وهكذا تكون اعادة البناء كما اكد ذلك الامام مالك «لا يصلح اخر هذه الامة الا بما صلح به اولها». وفى هذا الاطار نجد كثيرا من التوجيهات النبوية الداعية لتجنب استعمال العنف مع الحرص على الاصداع بكلمة الحق اذا فسدت احوال المجتمعات، تجد تفسيرها لا على انها دعوة للاستكانة وانما هى دعوة الى تصحيح المفاهيم وتقويم الموازين مع التسلح بسلاح «الصبر الجميل» حتى يستعيد الشعب وعيه.

ب/ مرحلة قيام المجتمع المسلم:

فاذا اثمر عمل التوعية الاسلامية استجابة الجماهير فى قطاعها العريض لهذه الدعوة، فرضيت بتحكيم الاسلام فى حياتها، قامت للاسلام دولته وكان على تلك الدولة ان تنفذ حكم الله وتمارس مهامها فى نشر العدل ومنع الظلم بين رعيتها.

مسالك الجهاد:

وكثيرا ما ترد شبهة الجهاد عند الحديث عن انتشار الاسلام والدعوة اليه مما يوهم بأن انتشار الاسلام وانتصاره لم يتم الا باستعمال القوة.

والحقيقة ان القوى المضادة للاسلام، لانسانيته وعدله ورحمته، لم تستغل مبدأ فى تشويه هذا الدين وصرف البشرية المضطهدة عنه كما فعلت ذلك مع مبدإ الجهاد.. ولقد ساهم المسلمون فى استقرار هذه الشبهة اما بعدم القيام بالبيان المبين فى هذه المسألة أو بقيامهم باعمال غير واعية وغير مسؤولة تتيح لخصومهم الفرصة فى تصويرهم على انهم ارهابيون مع انهم فى الواقع ضحايا الارهاب. فكان يكفيهم ان يبينوا للناس معنى الجهاد وهدفه، فالجهاد هو بذل الجهد فى نصرة الاسلام، فكل جهد لنصرة الاسلام فى انفسنا أو واقعنا يراد به وجه الله هو جهاد.

والجهاد يتنوع بحسب المرحلة التى تمر بها الدعوة الاسلامية، ففى مرحلة بناء المجتمع الاسلامى أو اعادة بنائه ـ كما هو حالنا ـ لا يزيد الجهاد عن مجموعة الاعمال السلمية التى يقوم بها الدعاة من اجل تحقيق الاسلام فى انفسهم وتوعية الجماهير بحقائقه وتنفيرهم من المفاهيم الخاطئة وما يرتبط بها الدعاة من اجل تحقيق الاسلام فى انفسهم وتوعية الجماهير بحقائقه وتنفيرهم من المفاهيم الخاطئة وما يرتبط بها من الوان الظلم والاستغلال وتجميع صفوف المؤمنين وتربيتهم على التحرر من عبادة العباد لعبادة الله وحده وليس من عمل الدعاة هنا اقامة الحدود وحمل الناس على قوانين الاسلام طالما ان الناس يسلموا قيادتهم للاسلام، فاذا رضيت الجماهير فى قطاعها العريض تحكيم الاسلام فقامت للاسلام دولته، مارست تلك الدولة سيادتها ونفذت احكام الله فنشرت العدل ومنعت الظلم والاستغلال والفساد ولو بالقوة.

وعلى اعتبار ان الدولة الاسلامية تقوم على رسالة اممية كان عليها ان تعمل على نشر الاسلام عن طريق (البلاغ المبين) فاذا قامت فى طريق الدعاة قوى طاغوتية تستبد بشعوبها وتحول بينها وبين ممارسة حرياتها ومنها حرية المعتقد كان على دولة الاسلام ان تزيح تلك الكيانات المستبدة ولو باستعمال القوة لا لغرض فرض الاسلام على تلك الشعوب وانما لتمكينها من فرصة التعرف على الاسلام فتقبله عن بينة أو ترفضه عن بينة بدون اى اكراه، فهنا ينضاف الى معنى الجهاد معنى آخر هو القتال من اجل كسر القوى المهيمنة فى العالم وتمكين الشعوب من حق تقرير مصيرها بما فيه الموقف العقائدى.

لقد كانت حركة الجهاد بكل معانيه ثورة ضد الاستبداد والاستغلال ودفاعا عن مبدأ عظيم لم يعترف به العالم الا فى هذا القرن هو مبدأ حرية المعتقد والدعوة اليه، وقد عاشت فى ظل الدولة الاسلامية شعوب شتى ومذاهب شتى لم تحمل على التنكر لعقائدها أو لغاتها.

الاتجاه الاسلامى والعنف :

ان العمل الاسلامى منذ انطلاقته فى بداية السبعينات الى يوم الناس هذا وهو يستوحى المنهج الاسلامى فى الدعوة الى الاسلام واقتصر عمله على توعية الجماهير بحقائق الاسلام مفندا حجج الايديولوجيات المناقضة للاسلام ناقدا صور التدين الموروثة من عصر الانحطاط متوسلا الى ذلك بمختلف ادوات التثقيف والنشر المتاحة له.

ولقد اثمرت بفضل الله الجهود المتواضعة التى بذلتها الحركة فتنامى الاقبال على المساجد التى كانت قد اقفرت الا من عجوز مدنف، واشتد الاقبال على المنشورات الاسلامية، وسرت روح جديدة فى مجتمعنا، فتسارعت حركة بناء المساجد فى المؤسسات التربوية والادارات والاحياء والمدن وتذكر التونسى بعد سنوات طويلة من الجدب ان له ربا واحدا هو الله ينبغى ان يعبده وحده وان له دينا يقتضى منه التزامات وتضحيات وليس مجرد النطق بكلمات. ان دينه يمثل اقوم منهج لحياة البشر فما باله يهيم على وجهه فى دروب الحضارات والايديولوجيات يبحث عن ذاته، تذكر ان حاله :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأ   والماء فوق ظهورها محمول

فصحا وهاله ما عليه واقعه من تفلت وانبتات وانحلال ومظالم شنيعة يأباها الدين الحنيف فانطلق الى مناهل الاسلام يرتوى من معينها والى شخصيته يعيد صياغتها والى مجتمعه يحاول تصحيح مساره المنحرف مبشرا بتعاليم «الدين الجديد» كما لو كان جديدا حقا.

وكان من الطبيعى ان تصطدم هذه الحركة التغييرية بمقاومة من المجتمع شأن كل مجتمع يدافع عن نفسه ضد كل تغيير، ومقاومة اشد من طرف النظام شأن كل نظام يبحث عن الاستقرار والبقاء، ومن طرف القوى الطامحة للتغيير ولكن فى اتجاهات اخرى. ولقد استطاعت القوى الفاشية والرأسمالية من داخل النظام ان توظف اشعاعات الثورة الايرانية

وما حملته من رياح التغيير فى العالم العربى والاسلامى ، فكانت حملة الحزب وهو يعد لمؤتمره سنة ٧٩ ضد الحركة الاسلامية تلك الحملة التى توجت أواخر ٧٩ بايقاف مجلتى الاتجاه الاسلامى «المعرفة» و«المجتمع» ، واعتقال عدد من وجوه العاملين للاسلام وايقاف نشاطهم المسجدى ، ثم جاءت فى بداية ٨٠ هزة قفصة فغيرت الموازين والممارسات والرجال والشعارات ، ولكن الموقف المتوجس من تنامى التيار الاسلامى لم يتغير واستمر المسؤولون الجدد على تعطيل الاعلام الاسلامى بل اضافوا ضحية اخرى جديدة «الحبيب» وسلسلة اعتقالات متتالية .

وكان من الطبيعى ان يتفاعل الاتجاه الاسلامى مع مرحلة التحولات وتفاقم الازمات التى يمر بها مجتمعنا وشعور الاضطهاد يتعمق عنده يوما بعد يوم .

فكان للاتجاه الاسلامى من موقعه المتنامى فى القاعدة الشعبية المتضررة من المنهاج المتبع فى تسيير البلاد مواقف معارضة .

صمود ضد الاستدراج الى العنف

ان الاسلاميين باعتبارهم جزء من القاعدة الشعبية المسحوقة يعانون مجموعة من التوترات والضغوط يشتركون مع غيرهم فى مجموعة منها ويختصون فى مجموعة اخرى تنطلق من احساسهم الحاد بالتناقض بين الصورة المشرقة للاسلام وبين الواقع المتردى بما فيه واقع التدين التقليدى الذى يمثل هو الآخر مصدر ضغط اضافى عليهم ، فضلا عما يلاقيه الشاب المسلم من ضغط عائلى بسبب انتمائه لحركة معارضة متجذرة ، فاذا خرج الى الشارع او الى المؤسسة وجد قمعا آخر فى شكل سخرية به وبمظهره خاصة اذا كانت فتاة ، ويصل الامر حد تسليط مختلف العقوبات كالزجر والطرد لا لشىء الا لان هذا العنصر يمثل سلوكه نموذجا يخالف النموذج المألوف . فاذا كان هذا القمع على مختلف المستويات يجد دعما ضمنيا أو صريحا من قبل الاجهزة الرسمية وجد الشعور بالاضطهاد مجاله الواسع للتغلغل فى شخصية المسلم الملتزم .

فاذا اضفنا الى هذا القمع الاجتماعى والسياسى الرسمى ما تمارسه فصائل المعارضة بدافع الغيرة والحسد والخوف من تنامى الاتجاه الاسلامى ـ ما تمارسه من دس وايغار للصدور بل من عنف ضد كل منافسيها السياسيين الذين استطاعت باساليبها الارهابية ان تصفيهم تقريبا وتخرجهم من حلبة الصراع ، حتى اذا جربت ذلك مع الاتجاه الاسلامى تصدى لها دفاعا عن الحرية فى الجامعة وحق كل اتجاه فى خدمة قضاياه والدفاع عنها والتعريف بها .

اذا وضعنا ذلك فى الحساب ادراكنا حجم التوترات التى تتفاعل فى نفس كل تونسى وكل معارض بشكل خاص وفى صفوف الاتجاه الاسلامى بشكل اخص ، والتى تفسر استعداد هذا الاتجاه بل كل اتجاه معارض بل القاعدة الشعبية عامة للعنف ، لا ضد النظام فحسب بل حتى ضد بعضها بعضا .

ولكن السؤال الذى ينبغى ان يطرح هو كيف استطاع اتجاه سياسى معبأ عقائديا تتسلط عليه كل هذه الضغوط ان يمسك زمام نفسه طوال هذه المدة فلم يتورط فى اعمال العنف المتجددة والمتصاعدة فى مجتمعنا، فما اندفعت الجماهير من المساجد المكتظة يوما تحرق او تكسر أو تضرب، الذى يفسر هذا الصمود فى وجه العنف هو المنهاج الحركى الذى يؤمن به هذا الاتجاه والذى يتلخص فى «البلاغ المبين والصبر الجميل» وهو يتناقض مع العنف اساسا تناقضا لا ظرفيا أو مصلحيا فحسب بل مبدئيا - كما سلف - فضلا عن مردوده السىء على الحركة وتوفيره الفرصة لاعدائها ان يلوثوا المناخ السياسى والاجتماعى المهيأ لطرح مقولاتها ومبادئها فى محاولة لاجهاض تطلعات الجماهير نحو الاسلام رائدا ومنقذا. فالعنف فضلا عن كونه يتناقض مع مبادئنا ومناهجنا لا يخدم غير مصلحة اعدائنا، اعداء الانسانية. نحن نثق فى الانسان وقدرة تفاعل هذا الدين مع طبيعته فى جو من الحرية والصراع الديمقراطى، فماذا تجنى حركة مثلنا من العنف غير الخسارة؟.

ان رفض الاتجاه الاسلامى للعنف هو الذى يفسر المقاومة الشديدة التى ابدتها قواعده فى الثانويات للتصدى لاعمال التخريب التى يغذيها شعور الفتيان بالحيرة والقلق وغموض المستقبل وديكتاتورية الادارة، كما تغذيها اطراف سياسية داخل النظام وخارجه تتبنى العنف منهاجا. ورغم ما اجتهد بعض الحاقدين ممن لا خلاق لهم فى الباس الاتجاه الاسلامى لبوس العنف فى الاحداث المدرسية الاخيرة، فانى أؤكد، وسيكشف التاريخ ذلك، انه لو لا تصدى الاتجاه الاسلامى فى المدارس لاعمال التخريب لما بقى شىء قابل للكسر او الحرق لم يكسر ولم يحرق ولو صدق رجال الادارة فى المدارس لادوا هذه الشهادة ولكشفوا المسؤولين الحقيقيين عن ظاهرة الفساد والتخريب الذى يؤمن المسلم انه من اعظم الاثم.

والاتجاه الاسلامى لم يتردد فى ادانة اعمال العنف سواء تلك التى حصلت فى المدارس أو فى الكليات أو فى المؤسسات. واذ ندين اعمال العنف والتخريب من موقع مبدئى وسيلة فى معركة تحديد مصر تونس، فنحن نحمل المسؤولية الكبرى فى ذلك لاختيارات النظام ثم لاولئك الذين ينظرون للعنف من داخل اجهزة الحكم ولسان حالهم «التونسى ما يمشى الا بالقوة» ولاجهزة القمع التى تسير بخطى حثيثة فى طريق تقريب صورة السافاك لاذهان التونسيين ويقابلهم فى صفوف المعارضة اولئك الذين يرفعون جهارا شعار العنف الثورى ضد ما اسموه بالرجعية، منادين «لا حرية للرجعية» اولئك الذين يشكل العنف القاعدة الاساسية فى منهاجهم للسيطرة على البلاد والعباد.

ونحن اذ نبين هذه الحقائق لا نفعل ذلك من موقع الكيد لاحد أو الخوف من احد، فنحن قوم لا نفتأ نروض انفسنا على العمل من منطلق الايمان انه ﴿لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا﴾، وانما ذلك جزء من واجب البلاغ الذى نقوم به ليتحمل الجميع مسؤوليتهم عن وعى.

ونحن نذكر فى الاخير بما اكده المفكر الاسلامى جودة سعيد بأننا (نريد ان نساهم فى بناء مجتمع جديد لا تشيع فيه رائحة الدم والتلمظ للثأر ومضغ روح الانتقام والعدوان).

حبل الله وبيوت العنكبوت

من الاخطاء الشنيعة فى هذا العصر النظرة الذرية للاسلام التى تحاول تمزيق الاسلام الى أشـلاء تفقـده بهاءه ووحدته وقوته. . فيقدم على انه جزء من الحياة أو على انه الحياة فحسب فى أحسن الأحوال.

واذا كان الجهل بالاسلام او الكيد له هما الدافع الى تقديم الاسلام كجزء من الحياة، فان الشعور بالنقص الذى يدفعنا الى الدفاع عن الاسلام هو الذى جر كثيراً من دعاته الى تقديمه على انه منهاج للأرض فحسب. فالرغبة فى الانتصار للاسلام امام أعدائه الذين ركزوا هجومهم بإلحاح على انه غير صالح لحل مشاكل هذه الحياة وان الزمن قد تجاوزه وان مشـاكـل العصر لاتحـل الا بحلول عصرية، هذه الـرغبة فى الدفاع عن الاسلام دفعت الكثيرين الى الالحاح على ان الاسلام منهاج حياة فتكلموا وأعادوا فى هذا المناهج الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والاخلاقية وتفننوا فى ابراز افضلية المناهج الاسلامية على غيرها، وقد استطاعوا بذلك ان يعيدوا الثقة فى الاسلام لعدد كبير من المبهورين بالمناهج الغربية.

غير ان هذا الاسلام الذى عادوا اليه ليس الاسلام الربانى وانما هو اسلام بشرى ولدته الرغبة البشرية فى الدفاع. انه اسلام الارض وليس اسلام السماء، (اسلام الدنيا والاخرة)، انه الاسلام الذى تستغرقه الحياة وليس الاسلام الذى يتسغرق الحياة وما بعدها. انه دين دنيوى يعطى لمعتنقيه املاً فى الفوز بخيرات الدنيا فى التقدم والازدهار والقوة والنصر املا يلهيهم عما أعده الله لعباده الصالحين من نعيم مقيم ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾، ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾.

دنيا تغر وقلوب غلف :

وهذه النظرة الذرية للاسلام على انه مجموعة مناهج أقدر من غيرها على حل مشاكل الحياة ينتج عنها تضخيم لحجم الدنيا فى شخصية الداعى المسلم. واذا كان كل خطأ فى التصور ينتج عنه انحراف فى السلوك فلا عجب ان تفرز هذه النظرة الى الاسلام تعلقاً بالدنيا ونعيمها والتنافس على خيراتها مما يجفف ينابيع الايمان فى القلب ويفقده الانس بالله والرغبة فى لقائه فتنطلق الغرائز قوية عاتية، وتغدو صلوات المؤمن حركات وتمتمات لا انس فيها ولا خشوع، قد قام اليها متكاسلاً يتمطى كمن ألزم بالقيام بعمل شاق لا لذة له ولا راحة فيه فيتعجل الانتهاء منه ليهنأ ويرتاح، لسان حاله او مقاله ينطق: «هيا ـ تعجلوا أريحونا منها». على حين كان الداعية الأول عليه السلام يقول: «أرحنا بها يا بلال»، نعم قد تجد من هؤلاء من يبهرك بقوة عارضته فى مجادلة خصوم الاسلام وافحامهم، وتجد منهم من يملك عليك اعجابك

بقـدرتـه على بيان تفوق مناهج الاسلام الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على غيرها من المناهج، نعم نجد ان من هؤلاء الخطيب المصقع، والمجادل الدلق، والعالم المتبحر فى فرع من فروع الدين، ولكن قل ان تجد منهم العابدين من ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ وندر ان تجد منهم من تخطل اعينهم بالدمع وهم يتلون آيات الله، وقل ان تعثر على من ينفق فى سبيل الله لا يخشى فقراً تطاردهم الدنيا فى يقظتهم ومنامهم، ليس منهم إلا طامع فى المزيد، هان عليهم أمر الآخرة وشغلوا عن اهوال المحشر وصعقة الموت وسؤال الملكين.

و «إسلام» هذا شأنه أنى له ان ينتصر، انه كغيره مناهج الارض، فأنى له أن يتغلب على مناهج الأرض وهى مسلحة بمخالب وأنياب ذرية كثر عددها وافرة عدتها، انه غير الدنيا يعطل طاقتنا ويحد من فاعليتها. فاذا اردنا لهذه الطاقات المعطلة ان تتحرك فتكتسح هذا الباطل الجاثم على حياتنا فلا مناص من العمل على ارجاع الدنيا الى حجمها الطبيعى فى شخصية الانسان المسلم، وتعريتها عن البهرج الذى احاطتها به اوهامنا حتى ينظر اليها كما ارادها الله «مطية للآخرة»، فرصة لامتحان قوانا على اخضاعها لسلطان الله وارادته. ومجالاً لاستخراج ما استودعه الله فى نفوسنا من خير وصقلها مما علق بها من شرور.

انها الفرصة الوحيدة للفوز برضاء الله ونعيمه المقيم عن طريق العمل على تنفيذ ارادته فى اعلاء كلمة الحق والخير واستئصال جذور الشر حيثما كان.

وليس فى الـدنيا فيما عدا ذلك ما يستحق اهتماماً وعناية. وانها فيها سوى ذلك ﴿متاع الغرور﴾، وهى «ملعونة وملعون ما فيها»، وهى «أهون على الله من جيفة نتنة».

هل من سبيل؟ :

ما السبيل الى منع حجم الدنيا من التضخم فى شخصية المسلم الى أبعد مما أرادها الله؟

لا سبيل الى ذلك بغير العمل الدائب على المحافظة على فكرة اليوم الآخر حية حاضرة باستمرار فى نفس المسلم حتى تقدر على منع حجم الدنيا من التوسع ومن ثم من أن تطغى. وطغيان الدنيا يعنى توجه فاعلية الانسان ونشاطه الى تحقيق اهداف قريبة يجعلها همه. من شهادة ووظيفة وبيت وزوجة، مما يصرفه عن الطموح والعمل لتحقيق الغايات البعيدة فى نصرة الحق والعدل وازهاق الباطل والظفر برضا الله والسعادة الأبدية فى الآخرة.

وأهم الوسائل فى توجيه مشاعر المؤمن وعواطفه وفاعليته الى التعلق باليوم الآخر والتطلع الى الحصـول على نعيمـه والنجاة من عذابه التفكر الدائم فى الموت، والاحتفاظ بصورته حاضرة فى المؤمن تصد هجمات الدنيا على قلب الانسان وتحرره من اهوائها.

وأمر الرسول عليه السلام لنا فى هذا الصدد واضح «اكثروا من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات». رواه الترمذى. اذ ان طغيان مشاغل الدنيا واهتماماتها لا يكون الا بالغفلة عن

الموت ونسيانه «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا».

ومما يبعد عنا الغفلة عن الموت القيام بين الحين والآخر بزيارات فردية او جماعية لمقرنا الدائم «المقبرة» وذلك تنفيذاً لأمر رسول الله عليه السلام «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها»، رواه مسلم. فحبذا القيام بزيارات بين الحين والآخر لعالم الأموات. اولئك الذين حللنا محلهم فى مساكنهم ونواديهم وسرنا فى شوارع كانوا يخطون فيها جيئة وذهاباً. وكان منهم أصحاب الجاه والسلطة والثروات الطائلة والقصور الانيقة والوجوه النضرة والقامات الفارهة حتى جاء ملك الموت وانتزعهم انتزاعاً مما كانوا ينعمون فيه، لم يصطحبوا من كل ذلك شيئاً غير ما قدموا من عمل، ذهبوا وعاد أهلوهم يسكنون مساكنهم، وطوى النسيان ذكرهم ﴿وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا انفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم﴾. ذهبوا لم يحملوا معهم غير ما قدموا من عمل، فما ترانا قدمنا من عمل نواجه به ضغطة القبر؟

أذكروا هادام اللذات :

يقول الرسول الكريم عليه السلام: «ان للقبر ضغطة لو سلم او نجا منها احد لنجا سعد» رواه احمد، وقال: «. . . وإن القبر اول منازل الآخرة فهو اما روضة من رياض الجنة او حفرة من حفر النار» رواه الترمذى. انه بداية الطريق نحو مصيرنا النهائى ومستقبلنا الحقيقى ينفخ فى الصور ويحشر الناس جميعاً ليقف كل منا امام ربه مجرداً من ألقابه وأوسمته وجاهه وعزه. يقول الرسول عليه السلام: «ما منكم من رجل الا سيكلمه ربه يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى شيئاً الا شيئاً قدمه ثم ينظر أشأم منه فلا يرى شيئاً الا شيئاً قدمه، ثم ينظر تلقاءه، فتستقبله النار». يقول رسول الله ﷺ : «من استطاع منكم ان يقى وجهه النار ولو بشق تمرة فليفعل» رواه الترمذى، وقال حديث حسن صحيح. . نعم ينظر يميناً وشمالاً باحثاً عن انصاره فى الدنيا وأقاربه فلا يجد غير عمله، فلا يغادر ذلك الموقف حتى يسأله ذو العزة والجلال عن خمس، يقول الرسول عليه السلام: «عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من اين اكتسبه وفيما انفقه، وماذا عمل فيما علم» رواه مسلم.

انها الغفلة وانه الشيطان الرجيم الذى أقر العزم واقسم المرات امام الله على إغواء بنى آدم واشغالهم بالفانية عن الباقية ﴿قال لأغوينهم اجمعين﴾، ﴿قال لأزينن لهم فى الأرض﴾. ذلك وحده ما يجعل نفوسنا تخلد الى الارض وتتعلق بمتاعها الزائف ﴿ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً﴾ ذلك وحده ما يلقى الوهن فى قلوبنا ويجعل كلماتنا لا روح فيها وصلواتنا تمتمات لا خشوع فيها وقلوبنا وجلة من مواجهة الطاغوت وهتك أستار الهيبة الزائفة التى يحيط بها نفسه والاصداع بكلمة الحق عالية تهز النفس الغافلة وتزلزل دعائم الباطل المستحكمة.

فلنداوم على تذكير انفسنا بالموت واهواله والساعة ﴿والساعة أدهى وأمر﴾ روى ابن ابى الدنيا ان رسول الله ﷺ اذا انس من اصحابه غفلة نادى فيهم بصوت رفيع، «اتتكم المنية راتبة لازمة اما شقاوة او سعادة» اخرجه الحافظ العراقى فى الأحياء.

وقال جابر «كان اذا خطب رسول الله ﷺ فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر بجيش» اخرجه الحافظ العراقى فى الاحياء.

وعن الحسن ان الرسول عليه السلام ذكر الموت وألمه فقال: «هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف» اخرجه الحافظ العراقى فى الاحياء.

وقال جابر: «روى عن النبى ﷺ فى خبر وفاته انه كان عنده قدح من ماء يدخل يده ثم يمسح بها وجهه ويقول: «اللهم هوّن على سكرات الموت» متفق عليه.

ومما يذكرنا بالموت ويقلص من حجم الدنيا فى قلوبنا ما سنه الرسول عليه السلام للأمة من تشييع الموتى الي قبورهم ومن عيادة المرضى، ومن الوقوف على آثار الشعوب الغابرة التى شغلتها زخارف الدنيا عن ذكر الله حتى عاجلها الله بعذابه ﴿أو لم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق﴾.

حب الدنيا وكراهية الموت :

ولقد حصر الرسول عليه السلام فى الحديث الذى رواه الترمذى، والذى أخبر فيه الرسول عليه السلام بحالة من الضعف والوهن ستصيب الامة فيحتقرها اعداؤها وتجتمع كلمتهم ضدها لنهب ثرواتها، على الرغم من كثرة عددها ووفرة ثرواتها، حصر الرسول سبب ضعف الأمة ووهنها فى امرين: حب الدنيا وكراهية الموت. «يوشك ان تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها، قالوا أو من قلة نحن يا رسول الله؟ قال: كثير ولكن غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن. قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت» رواه مسلم.

والتعلق بالدنيا وتضخم حجمها فى الانسان مرده دائماً الى فرارنا من الموت وسكراته والقبر وضغطاته، والمحشر واهوائه، ذلك وحده سبب انكسارنا وذلنا وهواننا بين الامم، وانتشار الباطل والفساد والالحاد والهزء علينا بقرآننا ونبينا ولا من مجيب.

ان الناس وقد جعلوا الدنيا اكبر همهم ومبلغ علمهم لا يقبلون دعوة لغير ما يصلح دنياهم. ولقد نساق فى هذا السبيل فنقدم لهم الاسلام على انه قادر على حل مشكلاتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وننسى أن نحدثهم ان الاسلام لم يأت ليحل مشكلاً عاجلاً، كفلسطين أو الفلبين او غيرها من المشاكل القريبة العاجلة فحسب، وانما جاء ليهيئهم لحياة الخلود، ليعطى حياتهم معنى وهدفاً فيجعلها مرحلة اعداد مرحلة إعداد وزرع للحصاد فى الآخرة، فينذرهم ويبشرهم، ينذرهم بالعذاب الابدى ان هم حادوا عن منهج

الله ونظروا الى حياتهم على انها دار متعة، ويبشرهم بسعادة الآخرة ان هم جعلوا العمل للآخرة نصب أعينهم. وعندما تتجه القلوب الى لقائه وتفزع من عذابه فيأخذ الاسلام بأيدى الناس فى هذه الدنيا فيحل مشكلاتهم القريبة، بل ان العمل للآخرة الهدف البعيد، يجعل الاهداف القريبة «الدنيا» تجد حلها التلقائى فى الطريق.

«ومن جعل همه الآخرة كفاه الله هم الدنيا والآخرة» ويقول الرسول عليه السلام: «ان الدنيا خلقت للمؤمن ولكن المؤمن خلق للآخرة».

فليس فى الدنيا ما يستحق ان يعيش من اجله المؤمن. انه اكبر منها يمتطيها ليصل بها الى هدفه البعيد ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب﴾.

الاسلام لم يأت لينافس الدعوات الاخرى فيما هو قريب عاجل، وانما جاء لعيطى لحياة النـاس معنى اسمى مما هو فى الارض، انـه جاء ليهيىء البشرية لحياة الخلود فى النعيم الابدى. فلنحذر من ان تستدرجنا الجاهلية الى التخلى عن هدفنا البعيد ومنهجنا القويم فنستبدل بحبل الله المتين بيوت العنكبوت.

الفصل الثانى

العروبة والاسلام

١٩٨٣

لقد كان احتلال لبنان ومجازر صبرا وشاتيلا والمواقف المخزية والمتواطئة للانظمة العربية وسلبية الجماهير تعبيرا صارخا عن فشل حركة التحرر العربى فى تحقيق ما لوحت به من اهداف ـ خلال قرن ـ فى تحقيق العدل والحرية والمساواة والوحدة، تلك الاهداف التى ـ على نبلها وضخامة الجهود التى بذلت فى سبيلها ـ لم يزدد منها وطننا العربى الا بعدا، حتى كادت الجماهير ان تغرق بسبب ذلك فى خضم لا نهاية له من اليأس والفوضى وتتجه نحو مزيد من التقلص والانكماش تاركة المجال فسيحا للحكام العملاء والمتخاذلين ليمارسوا ما شاؤوا من ضروب القمع والعمالة، لا يخشون رقيبا ولا يرعون حرمة.

لقد عجزت حركة التحرر العربى ـ بمختلف فصائلها وتنظيماتها وشعاراتها ـ عن تحسس نبضات الجماهير، منبتة عن همومها وقيمها وعواطفها، وأنّى لها ذلك وهى مُسْقَطة فى هياكلها واسسها ورؤاها وايديولوجيتها اسقاطا، بل متسلطة على الجماهير تسلطا. فلئن كانت الاهداف المعلنة واضحة النبل ولا تكاد تختلف فى كثير من الاحيان الا فى الترتيب (حرية اشتراكية وحدة، أو وحدة حرية اشتراكية) فان الوسائل التى اعتمدتها والاسس التى قامت عليها والشرائح الاجتماعية التى تعاملت معها قضت عليها بالانبتات والاغتراب عن الروح الحقيقى للجماهير. فلا عجب ان تتجذر القطيعة وتتسع الهوة بين الجماهير وتلك الأنظمة والتنظيمات وان يدفع اليأس والعجز تلك التنظيمات والانظمة الى النقمة على الجماهير ونفض اليد عنها ومحورة خططها حول الاستيلاء على الجهاز الحكومى من اجل استخدامه اداة لفرض مخططاتها على الجماهير وحملها بسيف السلطان على مارفضته بحريتها واختيارها وذلك بدلا عن تقويم تجربتها ومراجعة مناهجها. فكانت منذ بداية الخمسينات سلسلة الانقلابات «الثورية» التى ولئن أطاحت بأنماط من الحكم متخلفة، فانها لم تجتث العمالة والاستبداد، بل جل ما فى الامر انها غيَّرت الأسماء والعناوين. بل ان الارهاب أخذ طابعا أكثر صرامة وأجهضت حتى شكليات الديمقراطية التى كانت متوفرة فى مرحلة ما قبل الثورة وزاد اغتراب الجماهير ـ تحت نير تلك الانظمة والتنظيمات ـ عمقا حتى غدا المواطن لا يكاد يفقه شيئا أو يصدق شيئا من الخطاب السياسى الذى يردد على مسامعه قهرا آناء الليل واطراف النهار، وخلت أو كادت حياته من الهموم غير القوت وانتظار الموت وخشية البطش. فماذا يتنظر من مواطن فاقد لكل معنى من معانى انسانيته ان يهتم بغير الهموم الصغيرة، شأنه شأن العبد كما قال عنتر لما دعاه والده الى رد العدوان عن القبيلة، فاجابه «العبد لا يحسن الكر والفر، ولكن الحلب والصر» فادرك والده قلق ولده بالحرية واهمية الحرية بالنسبة للمقاتل فبادر الى

اجابته (كر وانت حر) فانقض كالصاعقة على الخصوم حتى ردهم على اعقابهم خاسئين.
لقد كانت خيبة الجماهير مريرة وشاملة على جميع المستويات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية! فاين الوطن العربى اليوم من الاشتراكية والحرية والديمقراطية والوحدة؟.

الفصل بين الموقف العقائدى والسياسى

ان مسؤولية هذه الوضعية ـ اليأس والعطالة التى عليها الجماهير ـ تتحملها اساسا الانظمة والتنظيمات وخاصة تلك التى حكمت وحتى التى لم تحكم، فهى التى افرغت النضال الجماهيرى من محتوياته وأسسه العقائدية والروحية والاخلاقية التى كانت الوقود المفجر لطاقات الجماهير على مدى القرون الطويلة والبوتقة التى التحمت فيها الذوات الفردية المتباينة وتحولت من ذرات رمل متكومة الى بنيان مرصوص، الى قوة لا تقهر. انها مسؤولية الفصل بين الموقف العقائدى للمواطن والموقف السياسى الاجتماعى تحت تأثير الفكر العلمانى الغربى المباشر أو غير المباشر، ذلك الفصل النكد الذى جعل الدعوات الاجتماعية والسياسية الى الحرية والعدالة مجرد شعارات جوفاء لا يسندها اى اساس عقائدى يؤصلها ويوجهها ويحرك طاقات النضال من اجل تحقيقها حتى تستعذب الجماهير وتستلذ الموت فى طريقها لبناء الحياة وتستعلى على الضرورة، فيكبر وجودها ويتسع عطاؤها وينفسح مفهوم الزمان والمكان لديها ليمتد وجودها عبر اللامتناهى فى الحياة الابدية وتضيق هوة التناقض بين المصلحة الفردية والاجتماعية، لان الفرد عندئذ يشعر انه بقدر ما يضحى بمصالحه العاجلة ـ لصالح الجماعة ـ بقدر ما يحقق مصالحه الاجلة ـ ارحم من فى الارض يرحمك من فى السماء ـ فيستلذ كل عطاء آملا فى حياة الخلود.
ولقد حرم ذلك الفصل عقائد الاسلام فى فرصة التجربة والاختبار وتركها تهويمات روحية ومواعظ اخلاقية لا علاقة لها بصيرورة الحياة المتجددة وتيارها المتدفق مما اقعد الفكرة الاسلامية وجمدها فى شعائر تعبدية وقوالب تراثية عاجزة عن استيعاب التطور وابداع صيغ جديدة للاسلام قادرة على استيعاب تلك التطورات والتحكم فيها وتوجيهها وفق القيم الاسلامية ضمن البرنامج الالاهى لحياة البشر.

إنشطار حركة التحرر

لقد ظلت حركة التحرر منشطرة بين:
أ ـ تيارات قومية علمانية بدرجات متفاوتة فى انبتاتها عن العمق الجماهيرى الذى يمثل الاسلام لحمته وسداه. فمن تنظير حصرى لا يرى فى الدين غير عامل ثانوى فى بنائه القومى، الى تنظير عفلقى ـ وان كان اقل علمانية واكثر تأكيدا على دور الدين فى البناء الحضارى العربى

ـ الا انه لم ير لمحمد ﷺ مكانة غير كونه إحدى وأبرز تجليات القومية العربية، هادما من الدين عنصر الوحى وهو مركز الحضارة الاسلامية وروح الاسلام وبعده العالمى، الى ناصرية عومت الاسلام ضمن مبدأ فضفاض هو احترام المبادىء الروحية والديانات السماوية فافرغ الاسلام فى «فلسفة الثورة» من كل خصوصياته.

ب ـ تيارات ودعوات اقليمية ضيقة حملت سيئات سابقاتها فى محاولة ارساء مفهوم علمانى للدولة والمجتمع يستوحى نماذجه من الغرب الرأسمالى أو الاشتراكى، بل اسوأ ما فيهما، وأضافت اليها الغاء البعد العربى منخنقة ضمن حدود ضيقة. فلم يكن امامها غير الارتماء فى احضان الغرب من اجل الاستعانة به بل توكيله فى حل مشكلاتها.

ج ـ تيارات دينية ـ لئن بذلت جهدا كثيرا فى نفض ركام الانحطاط عن الاسلام وتحريره من بعضٍ ظلمات القرون والوقوف به فى وجه تيارات التغريب العاتية، مستنقذة طرفا من الجيل مُثَبتةً اقدامه فى ارض صلبة من تاريخه وثقافته وعزته، حاملة بشدة على تيار التقليد الغربى، مبلورة مجموعة من المبادىء العامة حول النظام الاسلامى، الا انها ظلت قاصرة عن استيعاب التجارب المعاصرة فى الميدان السياسى الاجتماعى ونحت صورة معاصرة للاسلام، منجذبة الى الماضى كصورة وحيدة للتطبيق الاسلامى، عاجزة عن فهم الواقع الاسلامى وتحليله وبلورة البديل الواضح عنه، وذلك بفعل استمرار مجموعة من الافكار الهدامة التراثية واستمرار فعاليتها فى الفكر الاسلامى المعاصر، مما ابعده عن خوض غمار الصراع الاجتماعى والسياسى لاكتشاف الابعاد الثورية للاسلام وتحريره من الافكار الرجعية التى تلبست به عبر القرون وتسربت الى كتب التفسير والحديث والفقه، فغدت معوقا اسياسيا فى اكتشاف قوة الاسلام وقدرته القيادية. ومن ثم كان حجم الفكر الاسلامى السياسى والاجتماعى ـ بسبب ذلك وبسبب سيطرة الاستبداد باسم الاسلام محدودا بالقياس الى الفكر العقائدى والشعائرى، فلم ينم فى المسلم الحس الاجتماعى السياسى الثائر على الظلم والاستبداد والفوارق الطبقية وبؤس الجماهير والنقمة على القوى القمعية والاستعمارية نمو حسه الاخلاقى والعقائدى ضد الالحاد والزنى وشرب الخمر وانتهاك حرمة الصيام بالافطار فى رمضان.

ردود الافعال بين الفكر القومى والفكر الاسلامى

ولان الفكر القومى كالفكر الاسلامى نميا فى بيئة يسودها التخلف الحضارى وتتصارع فيها قوى يعوزها الوعى أو الاخلاص فقد طوردت الفكرة الاسلامية من الحقل القومى ـ بتأثير الفئات والطوائف غير الاسلامية التى كان لها تأثير فعال فى انطلاقة الفكرة القومية

العلمانية فى مرحلتها الاولى ـ كما طوردت الفكرة القومية من الحقل الاسلامى ـ بدافع رد الفعل ـ ، وتسنى للمستعمر ان يدفع ذلك الصراع الى اوجه لتجذير التمزق داخل الوطن العربى وتكريس عقدة الصراع والعداء والحساسية بين الفكرة الاسلامية والقومية، بين العروبة والاسلام.

ورغم ان مغربنا لم يعرف ـ بحمد الله ـ تلك الملابسات بسبب عدم وجود طوائف غير اسلامية، مما لم يكن منتظرا معه تبعا لذلك ان يثور جدل ما ـ فى هذه الربوع ـ حول صلة العروبة بالاسلام، فكأنهما فى الحس العام مسميان لشىء واحد، اسمه عروبة أو اسلام. فلقد كان ولا يزال عسيرا على اطفالنا وعلى عامة الناس ان يتصوروا مكان الفصل بينهما. ولكن لان كلاً من الفكر القومى والفكر الاسلامى فى مغربنا لم ينشأ نشأة ذاتية بل نشأ متأثرا بالتيارات الفكرية الاسلامية والقومية الواردة علينا من المشرق، فقد تسربت الى بيئتنا من خلال ذلك هذه الحساسية أو الجفوة بين العروبة والاسلام ـ وان بقى انتشارها حتى الآن محدودا وكأنه لا يجد البيئة الملائمة للنمو، مما يقتضى ضرورة الاسراع بتدارك الوضع قبل ان يستفحل حتى لا نجد انفسنا يوما ـ ان لم نكن قد وصلنا الى ذلك فعلا ـ ازاء صراعات هامشية مفتعلة لا يستفيد منها غير خصوم العروبة والاسلام.

وان ما يقتضيه هذا التدارك تقديم تحديد واضح لكل من هذين المفهومين وطبيعة العلاقة بينهما درءا لكل التباس وحرمانا لكل مفسد أو طيب النية قاصر الادراك من ان يضل او يضل.

مفهوم الاسلام :

أما الاسلام وباعتباره برنامجا إلهيا شاملا لحياة البشر تلتحم فيه الرؤية العقائدية الوجودية والمذهب الاجتماعى فذو طبيعة عالمية انسانية لا يبارى فيها. فرغم ان العرب كانوا ارض الاستقبال له وقلعة النضال الاولى وفرسان السيف والعلم لنشره والدفاع عنه، فقد كان توجهه منذ البداية عالميا انسانيا ـ دونما اى تمييز ـ وظلت الامة الاسلامية رغم اقرار شعوبها المختلفة بمكانة متميزة للعرب، يقوم بناؤها ـ رغم انحرافات الحكم ـ على اساس عقائدى هو مدار الرباط الاجتماعى ﴿انما المؤمنون اخوة﴾.

نعم احتلت اللغة العربية فى ظل المد الحضارى الاسلامى اهمية بالغة باعتبارها لسان الوحى والسبيل للوقوف على اعجازه البيانى الرائع وادارك مفاهيمه وتعاليمه، ومفتاح العلوم الاسلامية. فاكتست العربية بذلك طابعا عالميا انسانيا وتوحدت لهجاتها، فكان لذلك الاثر الفعال فى ابراز الهوية العربية الموحدة على المستوى الثقافى والسياسى، كما كان له دور كبير فى تعريب طوائف كبيرة من غير العرب، وامتزج فى اطار الاسلام وعروبة اللسان عدد كبير من الشعوب والثقافات والحضارات وتوحدت تصوراتها وقيمها وتعاونت على خدمة العربية والاسلام لانتاج أول حضارة عالمية انسانية فى التاريخ.

مفهوم العروبة :

اتخذ مفهوم العروبة عبر التاريخ معانى وابعادا كثيرة اقتصر بعضها على اللغة كمحدد اساسى كما ورد فى حديث الرسول «عليه السلام» (ايها الناس ليست العربية باحدكم من اب وام وانما هى اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربى) مؤكدا بذلك ضرورة تجاوز النظرة العربية فى تحديد العروبة مبرزا اهمية اللغة فى تحديد ماهية العربى، جاعلا العروبة مفهوما حضاريا واجتماعيا يفتح ذراعيه لكل الراغبين فى التعرب.

ولازالة كل الحواجز الشعوبية والعرقية التى يمكن ان يولدها التعصب ضد العرب ويحول بين الشعوب وأن تتعرب، أكد النبى عليه السلام فيما رواه الامام احمد انه «لا يبغض العرب الا منافق». وفى هذا السياق خاطب العلامة الباكستانى ابو الاعلى المودودى بلسان المسلمين خاطب العرب (ايها العرب كونوا مسلمين لنكون نحن عربا).

ولوثاقة الصلة بين اللغة والفكر وصلة الفكر بالاسلام فى حياة العرب منذ غدا الاسلام مصدر العقائد والتصورات والشعائر والنظم والقيم والآداب والفنون، امكن تحديد العروبة تحديدا ثقافيا تعد اللغة العربية بمضامينها الفكرية وحسها الاخلاقى اهم مفهوم لها، رغم ما تثيره عروبة لا تقوم الا على اساس لغة وثقافة عربيتين من صعوبات وحساسيات عرقية سواء على صعيد بعض الأقليات غير العربية فى المشرق مثل الاكراد، او على صعيد مغربنا - بشكل خاص - حيث يشكل البربر ما لا يقل عن ثلث السكان فى الجزائر والمغرب - وهم شديدو التمسك بخصوصياتهم والتصدى لكل محاولة لصهرهم فى اطار عربى.

ولقد اضيفت فى تحديد العروبة عناصر اخرى الى عنصر اللغة مثل البعد الجغرافى (وحدة الارض) والبعد التاريخى (وحدة التاريخ العربى) ووحدة الامال المشتركة (وحدة المصير).

ولكن كل هذه العناصر التى نظر اليها فى المراحل المبكرة لنشأة المفهوم القومى على انها تكفى نفسها بنفسها وتغنى عن غيرها - بما فى ذلك الدين - فى اسعاف العرب بايديولوجية تقدم اساسا للنظام السياسى والاجتماعى والثقافى والاخلاقى، كشف وضع تلك المبادىء موضع التنفيذ عن طوباوية هذا المنظور القومى وقصور محتوياته، فانطلق منظروا القومية خارج الاطار المتقدم للبحث عن ايديولوجية تكون مضمونا للعروبة اذ العربية كلغة وكذلك التاريخ العربى والارض العربية والشوق الى الوحدة، هذه العناصر كلها لا تنطوى متفرقة أو مجتمعة على ايديولوجية تحدد شخصية الانسان العربى من حيث التصورات والقيم وتقدم للمجتمع العربى أسسا لنظامه الاجتماعى والسياسى. ولقد دفع هذا الفراغ والعجز القوميين العرب - كما دفع انصار القومية الاقليمية - الى البحث عن تلك الايديولوجية بالنسخ مرة عن الغرب الرأسمالى واخرى عن الغرب الاشتراكى وثالثة بالمزج بينهما، والتلفيق والاتكاء احيانا على بعض الخشب النخرة من التراث.

لكن لم تلبث عملية البحث عن ايديولوجية للقومية ان عصفت بشعار الوحدة وأورثت

العرب مزيدا من التمزق بحسب اختلاف المصادر والجهات التى استعاروا منها مضامين حياتهم، وبرزت مفاهيم جديدة للاخوة بينهم والروابط السياسية، فليس العرب ـ الآن ـ هم الاخوة وانما التقدميون منهم اخوة والرجعيون اخوة. وداخل كل من هؤلاء وأولئك برزت تناقضات وصراعات استحال معها اللقاء على كلمة سواء. وانتهت تلك الصراعات الى فتور الحماس الجماهيرى لشعارات العروبة والوحدة، وعجزت الانظمة التى قامت على اساس الايديولوجيا العروبية عن مواجهة التحديات الداخلية والخارجية التى تحيط بالوطن مثل التخلف والاستبداد والفرقة والاستعمار والصهيونية. وما كان لها نجاح باهر فى غير تكريس مزيد من التمزق والتفقير والارهاب والاستسلام للعدو الصهيونى والامبريالية الامريكية. وهكذا انتهت الايديولوجيات العربية الى فشل ذريع على جميع المستويات والى خيبة امل مريرة.

لقد قدمت العروبة الى الجاهير «فى طورها الثانى الايديولوجى» لا على انها مجرد ثقافة عمادها العربية لغة الجماهير بل على انها دين يزاحم الدين ويصر على الحلول محله كما هو الحال بالنسبة للايديولوجيا البعثية خاصة «حيث يمثل البعث رسالة الامة الخالدة» وكذا الناصرية فى طورها الثانى. فكان طبيعيا ان ينتهى امر الجماهير مع هذه الايديولوجيا بعد التعرف عليها من خلال الواقع المرير الذى تولد عنها الى الانكماش عنها ونفض اليد منها او اللامبالاة بها، واتجهت تصيخ السمع الى الدعوات الدينية وتنضم اليها فى مقاومة الايديولوجيا العروبية على اعتبارها مسؤولة عن الكوارث التى حلت بها وتنظر اليها نظرتها الى الاجنبى الدخيل. ذلك ان الدعوات الدينية قد رفضت ـ بدافع رد الفعل والملابسات التى صاحبت نشأة القومية على يد الاقليات غير الاسلامية ذات الصلات المشبوهة مع الغرب ـ مفاهيم القومية جملة دون تمييز بين مستوياتها المختلفة، مستوى الوجود الواقعى والمستوى المثالى الايديولوجى. فالعروبة فى المستوى الواقعى الموضوعى هى معطى واقعى لا يمكن التنكر له أو الانسلاخ عنه الا بتنكر الانسان لذاته والانفكاك عنها، فكما ان الهندى لا ينفك عن هنديته والفرنسى لا ينفك عن فرنسيته كيف ينفك العربى عن عروبته وهى رصيد اساسى لتوحيد المشاعر والافكار والوحدة السياسية والتحرر الاقتصادى من الهيمنة الاستعمارية والتحرر من الغزو الثقافى شريطة ان يعانق الاسلام روحها. لا لمجرد تحقيق الوحدة والنمو الديمقراطى وتحرير الارض بل أكثر من ذلك، تحقيق مشروع حضارى انسانى لانقاذ العالم من براثن الامبريالية العالمية بمختلف مفاهيمها وامتداداتها المدمرة، مشروع تكون العروبة مركزه وجسده والاسلام روحه.

ان شعور الانتماء الى قوم والى وطن شعور فطرى. وما يكون لدين الفطرة ان يقاوم هذا الشعور ولكنه يؤصله وينظمه شأنه مع كل المشاعر الفطرية. سأل واثلة بن الاسقع «يا رسول الله أمن العصبية ان يحب الرجل قومه؟ قال: لا. ولكن ان ينصر الرجل قومه على الظلم». اما العروبة العقائدية فهى مفهوم ايديولوجى معاد للاسلام، بل انما ظهر ليحل محله ويلجئه

الى كهوف الزوايا والمساجد وشعائر التعبد، وهى عروبة يجد الاسلام نفسه ازاءها فى موقف الـدفـاع عن نفسه فيقاومها مقاومته لكل خطر يتهدد وجوده. وتندرج ضمن هذا المفهوم القومى معظم التصورات القومية التى شهدها المسرح الفكرى والسياسى العربى كالبعث والنـاصرية وكتـابات ساطع الحصرى وميشال عفلق وقسطنطين زريق ومنيف الرزاز وطه حسين ولطفى السيد وعصمت سيف الدولة. وعموما كل الاعمال الفكرية والسياسية التى نظرت لاستبعاد الاسلام كأساس رئيسى فى تنظيم الحياة العربية فى جميع مجالاتها أو اعتبرته مجرد عامل ثانوى فى البيئة القومية، وتبنت بشكل أو اخر الرؤية العلمانية للكون أو للانسان والمجتمع أو لها جميعا، فى صورة من صورها، او اكتفت من الدين باستخدامه استخداما براغماتيا نفعيا فى تعبئة الجماهير وتحريكها أو تبرير بعض مفاهيمها من باب مخاطبة الناس بما يفهمون كما فعل ويفعل كثير من رجال السياسة والفكر فى الوطن العربى والاسلامى، سواء فى البلاد الموسومة بالتقدمية أو اختها الموصومة بالرجعية، فكلها تقف من الدين موقفا علمانيا هو الكفر أو النفـاق، طالمـا ان الـدين لا يمثل ايديولوجيتها، ولا يعتمد اليوم الاسلامَ ايديولوجيةً نظامٌ غير النظام الايرانى ـ رغم كل ما يمكن ان يؤاخذ به على الصعيد النظرى التفصيلى أو على صعيد التطبيق.

موقف الاسلاميين من تونس :

رغم ادراك الاسلاميين فى تونس لطبيعة العلاقة بين العروبة والاسلام وتمييزهم بين مفهوم وجـودى واقعى للقـومية لا يمكن الا ان يقبـل كجـزء رئيسى فى كياننا الواقعى. ومفهوم ايديولوجى يريد ان يجعل من العروبة عقيدة ونظاما للحياة لا يمكن الا رفضه، فان ذلك لم يمنعهم من ابداء تأييدهم النقدى لكل محاولة للوحدة بين قطرين او اكثر فى الوطن العربى والاسلامى على اعتبار ان الوحدة تمثل اتجاها صحيحا فى خط التاريخ والاعتقاد وان أعوزت تلك المحاولات أسباب التحقق او الاستمرار. ولعله يحسن أن نذكر ان أول مرة تعرضت فيهـا مجلة «المعرفة» للمصادرة ـ وقد كانت لسان حركة الاسلاميين فى تونس الوحيد سنة ١٩٧٤ ـ كانت بمنـاسبـة تأييدهـا لاعلان الوحدة بين تونس وليبيا، ذلك المشروع الذى تصـدت له كل تيارات التغـريب الرأسمالى والماركسى، وذلك ايمانا منا ان توحيد العرب ضرورة عقائدية ووجودية لا مناص منها اذا اردنا ان نكون منسجمين مع مبادئنا ومقتضيات عصرنا. ولكن لاننا نعتبر الوحدة مشروعا حضاريا وليس مجرد شعار دعائى او علاج ظرفى لمشكلات راهنة فاننا لا نرى سبيلا لانجازها ـ بحسب ذلك ـ الا بالعمل على ارسائها على اسس راسخة من ثقافة الاسلام وتصوراته وقيمه حول الوجود والحياة والانسان ينبثق عنها مشروع اجتماعى لتوزيع الثروة بعدالة حسب الجهد والحاجة ومشروع سياسى للديمقراطية يعيد للجـماهـير حقها فى الممارسة اليومية للحكم، ومشروع ثقافى حضارى ـ عامة ـ يعيد الانسان الى مركز الوجود بعد ان هشمته حضارة الغرب وجعلته مجرد اداة فى يد رأس المال او الحزب او الدولة، مشروع حضارى يمكن ان يلتقى حوله المسلم بالعقيدة من العرب أو

المسلم منهم بالثقافة والحضارة فحسب او العربى بالاسلام من الاقليات الاسلامية غير العربية فى الوطن العربى . كما يلتقى حولها كل انسان بقطع النظر عن لغته ودينه . وعندها يغدو توحيد العرب ـ الذى يمكن ان يسار اليه بتدرج ـ ليس مرحلة ضرورية لتوحيد الامة الاسلامية وبعث كيانها الحضارى والسياسى من جديد ـ فى عالم تتناطح فيه الرؤوس الكبيرة ويكون الصغار هم الضحية ـ ليس ذلك فحسب بل خطوة لتوحيد البشرية كلها استجابة لنداء الله وقد كان اول نداء تدعى فيه البشرية كلها بدون أى تمييز الى نبذ أسلوب الحرب والعدوان فى العلاقات البشرية واعتماد التعارف والتعاون والاحسان والخير والسلام فى العلاقات بين مختلف التجمعات والقوميات . أليس الجميع تجمعهم الاخوة المنبثقة من وحدة الاصل؟ ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ . الحجرات آية(١٣).

الوحدة فى التنوع :

وفى هذا الاطار الحضارى يمكن لكل المجموعات الوطنية على اختلاف رؤاها الايديولوجية وبرامجها ان تجد مجالات للقاء والتعامل والتعاون وحتى التحالف على الصعيد السياسى والاجتماعى لتحقيق كيان اجتماعى تسوده الديمقراطية والعدالة الاجتماعية ويقاوم فيه الاستغلال والاستبداد وكل أشكال الاستعمار والتبعية . كل ذلك مع استمرار الصراع الايديولوجى الفردى والجماعى بمنأى عن كل ضروب الوصاية والعنف المادى والمعنوى والتبعية للقوى الاستعمارية . ﴿ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادى الصالحون﴾ .

فهل من عجب ان تتجه الانظار ـ وخاصة خلال السنوات الاخيرة ـ الى الاسلام تبحث لديه عن رؤية حضارية شاملة تكفل تنمية كل طاقات الانسان وملكاته ، وتضع اطارا انسانيا للاجتماع البشرى يحل فى العلاقات البشرية التعاون محل الاستغلال والسيطرة؟

نحرر أنفسنا اولا :

اننا لن نقدر ان نحرر العالم ما لم نحرر بلادنا من هيمنة القوى الاستعمارية الغربية والشرقية ، ونحقق استقلالنا الحقيقى كثمرة للثورة التحررية الشاملة التى اخذت تندلع فى كل مكان من العالم الاسلامى معلنة حق الجماهير فى العيش الكريم وفى تقرير مصيرها ، وتحطيم الطواغيت التى تذل الانسان وتعلن عن حضارة الانسان «حضارة الاسلام» ، ثورة المستقبل .

العالم الاسلامى والاستعمار الحديث

مجلة «الامان» اللبنانية
العدد (٦٢) السنة (٢) تاريخ ١١/٤/١٩٨٠

ما فتىء الدور السياسى للاسلام فى الصراعات الدولية يتأكد يوما بعد يوم وخاصة بعد انتصار الثورة الاسلامية الايرانية واندلاع الثورة الافغانية، حتى ان مجلة كبيرة كمجلة (لوبوان) الفرنسية اعتبرت اهم رجل اثر فى توجيه الاحداث فى السنة المنصرمة هو النبى العربى محمد ﷺ بل ان الدكتور ميشال هارت فى بحثه عبر تاريخ البشرية كله عن الرجال الذين كان لهم الفضل فى صناعة الاحداث وتحويل مجرى التاريخ احصى مائة عظيم لم يتردد فى اعتبار النبى العربى على رأسهم جميعا.

وليس تأثير الاسلام فى اتجاه التاريخ بالامر الجديد، فلقد كان الاسلام منذ ان تشرفت البشرية باشراقة شمسه ثورة شاملة على الظلم والطغيان ودعوة ملحة الى المساواة والتحرر على جميع المستويات، حتى انه ليتعذر كما يقول المؤرخ الامريكى بريفلوت ان نجد جانبا من جوانب الحضارة الحديثة لا يمت للاسلام بصلة وأخصها المنهج العلمى نفسه.

ورغم النكبات المتوالية على الاسلام بداية من الانقلاب الاموى الذى اتجه بالدولة وجهة كسروية وابعد الاسلام شيئا فشيئا عن التأثير فى الحياة السياسة ليقصر تأثيره على النشاط الثقافى والتربوى والروحى، وما نتج عن ذلك من انحراف لمفهوم الدولة، وتوالى الانظمة الدكتاتورية التى ابعدت الجماهير عن ممارسة دورها السياسى، وتوجيهها الى حياة اللهو والميوعة مع ابى نواس وبشار، او الى حياة الزهد والشطح الصوفى بحثا عن نشوة روحية مع ابى العتاهية وابن الفارض والحلاج وابن عربى.. مما اصاب الحياة الاسلامية بالركود وهيأ المناخ الملائم للغزاة والمغول والصليبيين القدامى، ثم الصليبيين الجدد مع بونابرت واخوانه من المستعمرين.. أولئك الذين ادركوا حق الادراك ما ينطوى عليه الاسلام من امكانات ثورية تحررية شاملة، فخططوا بدقة وعناية فائقة بعد ان وضعوا ايديهم على مقاليد الامور فى العالم الاسلامى لافراغ الاسلام من مضامينه الثورية عن طريق سيطرتهم على مراكز الدراسات والبرمجة التربوية فنشّأوا جيلا من المسلمين لا يتصور الثورة الا مضافة الى فرنسا أو ايطاليا أو بريطانيا أو روسيا أو الصين اخيرا.. وربطوا فى ذهنه ربطا محكما بين الاسلام وكل ما هو رجعى انحطاطى.

ورغم ما اصاب الاسلام من جراح الغزاة القدامى والمحدثين، ما وهن منه عزم ولا فترت همته عن مقاومة الغزاة الذين فرضوا هيمنتهم على العالم الاسلامى، يمتصون ثرواته ويئدون روحه، فقامت الحركة الاصلاحية تنفض الغبار عن الاسلام وتزيل الرماد الذى أهيل على نيرانه المتأججة، وكان من نتيجة ذلك أن دبت الحياة فى كيان العملاق فتنادى المسلمون للجهاد ضد الكافر المغتصب وتسابقوا الى الشهادة، حتى أدرك المستعمر كما يقول العجوز الاستعمارى الجنرال ديغول فى مذكراته تعليقا على الجهد الذى بذله لانقاذ فرنسا من تورطها الاستعمارى محددا دوافعه: «لقد ادركنا ان عملية الاستعمار غدت غير مربحة». فانسحبت الجيوش الاستعمارية تباعا تجر أذيال الخيبة ولكن كما ينسحب الجراد تاركا وراءه فراخه.

العالم الاسلامى ومرحلة الاستقلال

انسحبت الجيوش الغـازية واعلن عن قيام سلسلة من (الـدول المستقلة)! فى العـالم الاسلامى، ولكن ما هى الاسس التى ستقوم عليها هذه الدول؟ من اين ستستمد القيم والمثل التى سترسى على أسسها براجها فى التربية والثقافة والاقتصاد؟ لم يكن امام النخبة المثقفة ـ وهى نخبة تربت فى حجر الاستعمار ـ من الوقت ولا من المؤهلات النفسية والثقافية ما يمكنهـا من البحث خارج الغـرب عن نمـوذج بديل للنمـوذج الغربى. وبحكم الميل الطبيعى الى السهولة والاعجاب بالغرب اندفعت النخبة المثقفة بكل حماس تحطم بقايا الحياة الاسلامية لتقيم على انقاضها نموذجا ليس اسلاميا بالتأكيد، ولكنه ليس بالغربى ايضا.. ان له من الغرب مظاهره.. الأزياء، العمارة، اللغة، التنظيم الادارى.. انه أنموذج يحاول محاكاة الغرب لا من موقع العزة والثقة بالنفس، بل من موقع العقد النفسية، فجاء أنموذجا شبيها بالمسوخ، وما كان لهذا الأنموذج المسخ أن يورث الجيل الجديد مشاعر العزة ويملأ أفئدته بالمثل الكفيلة بدفعه الى العطاء وتجاوز الذات والتضحية، وفى سبيل ماذا سيضحى هذا الجيل بعد ان تحطمت مثله وقيمه، فما بقى له من هدف فى الحياة غير الرفاه واللذة واللعب؟.

فلا عجب والحال هذه أن تمنى بالفشل مخططات التنمية فى العالم الاسلامى، بل ان يكون الفشل مآل كل معركة يخوضها هذا العالم، لانه يقاتل مسلوب الروح عديم البواعث مقهور الارادة، تطحنه الانظمة المستبدة ويذله الفقر والحرمان.

أي استقلال يمكن ان نتحدث عنه فى العالم الاسلامى ؟

على المستوى الاقتصادى :

لا يزال العالم الاسلامى مُوثَقاً بقوة الى المراكز المالية الكبرى تسلب ثرواته بأبخس الاثمان، وتثقل كاهله ازمات الغرب، فالغرب هو الذى يقوِّم عملته، وهو الذى يتوسط فى كل عملية تجارية حتى بين بلدين إسلاميين. ورغم الثروات الطائلة التى يملكها العالم الاسلامى لا يزال تابعا ذليلا للبنوك الدولية الكبرى وللشركات الغربية ولا يزال الحديث عن الدينار العربى أو الاسلامى أو السوق العربية أو الاسلامية حديث حالم، ولا يزال كل بلد اسلامى مربوطا تقريبا الى البلد الذى كان يستعمره وكأن ذلك يحدث بدافع الحنين اليه.

على المستوى السياسى :

بعد قرابة نصف قرن من الاستقلال فى العالم الاسلامى لا يزال هذا العالم ممزقا الى شظايا، كلما تقدم الى الوحدة خطوة تراجع عنها خطوات. تتقاسمه المعسكرات الكبرى، فمن منحاز الى شرق ومن منحاز الى غرب، لا يجرؤ المسلم أن ينتصر لأخيه المسلم ولو بكلمة حتى يستأذن أسياده فان أذن له فبها وإلا امتنع. ولقد أحست بالحرج كثير من الدول الاسلامية فى تأييد افغانستان فى معركتها مع المستعمر الروسى، بل ان بعضها وقف فى صف الغزاة الروس. وفى معركة الاسلام فى ايران مع الامبريالية الامريكية لم تتردد بعض الدول الاسلامية فى التصويت الى جانب القرار الامبريالى بفرض حصار اقتصادى عالمى على بلد إسلامى هو ايران.

ان هذا الاستقلال السياسى لا يمكن ان نعثر له على أثر فى غير الشعارات والرايات، أو فى القطيعة صارمة بين ابناء الامة الواحدة. ففى هذا النطاق هناك استقلال تام مقابل الارتباط التام بالغرب.

على المستوى الثقافى والتربوى :

لا يزال النموذج الثقافى والتربوى الذى صاغه الغرب للانسان هو السائد فى العالم الاسلامى. فالفنون والآداب، والأزياء واشكال العمارة، وتأثيث البيوت وإعداد حفلات الأفراح والاستقبال، والمسرح والسينما وبرامج التعليم والاعلام بصفة عامة، لاتزال تنطلق

فى عملها من اعتبار ان الغرب هو النموذج للمدنية، وان الخروج عن اطاره تخلف ورجعية. ولا يزال الجدل قائما فى كثير من البلدان حتى حول التعريب ومدى قدرة اللغة العربية على استيعاب العلوم بل لم يتردد الوزير الاول التونسى - إبان افتتاح اجتماع لمنظمة التربية والعلوم لجامعة الدول العربية - فى الالحاح على ضرورة تعلم العلوم باللغات الاجنبية.

على مستوى القانون والتشريع :

رغم ان اغلب البلاد الاسلامية تحلى دساتيرها بالاسلام فان هذا الاعلان لا يلقى اليه بال عند الشروع فى سن القوانين واللوائح التى تنظم سير العمل فى مؤسسات الدولة. بل ترى بيوت الدعارة والخمارات ودور القمار والمعاملات الربوية وعروض الرقص والتعرى تفتح بترخيص من السلطات الرسمية ويتولى القانون واعوان السلطة حمايتها.

من الاستعمار المباشر الى الاستعمار غير المباشر

فأى معنى بقى للاستقلال الذى يمكن ان نتحدث عنه فى العالم الإسلامى ونقيم معالم الزينة للاحتفال به؟ ان جل ما انتهت اليه حروب التحرير فى العالم الاسلامى ان تحولت هذه البلدان من مرحلة الاستعمار المباشر الى مرحلة الاستعمار غير المباشر، وهو اشد وأنكى، لانه يضعف فينا روح المقاومة ويقذف بنا الى العيش على هامش الحياة نتخبط فى عالم الاوهام.

يقظة الاسلام واستمرار حركة التحرير :

غير ان الاسلام الذى استطاع ان يقهر جيوش الاستعمار فتنقلب صاغرة، لم يلق بعد سلاحه، انه لا يزال زاخرا بطاقات ثورية هائلة على كل صعيد.

وان ما شهدته ايران من ثورة تحررية شاملة ليس الا انطلاقة لمرحلة جديدة من كفاح الاسلام التحررى ضد قوى البغى والطغيان. ولن تنتهى ثورته ما دام فى الارض جبارون يذلون الانسان ويسرقون خبزه ويعتدون على كرامته.

ولئن استطاع الغرب ان ينمى ثمار الحضارة الاسلامية ويفجر من المادة طاقات هائلة، فقد عجز عن أن يضعها فى خدمة الانسان وتنمية كيانه المعنوى لفقدانه للرؤية الايديولوجية المادية والمعنوية الشاملة التى تحيط الكيان الانسانى من جميع جوانبه المادية والعنوية ولا تضحى بجزء لحساب الآخر.

أفغانستان .. نهاية مرحلة استعمارية

مجلة «الأمان» اللبنانية
ع ٥٤ ، س ٢ / ١٥/ ٢/ ١٩٨٠

الهجوم على أفغانستان بداية
النهاية لمرحلة استعمارية أخرى

فى أساس كل حضارة تكمن مجموعة من الافكار الموجهة لسلوك الفرد والجماعة والتى تطبع تلك الحضارة بطابع خاص. وان من اهم الافكار الموجهة لحضارة الغرب فكرة السيطرة على الطبيعة بواسطة العلم. والسيطرة على الانسان بواسطة التقنية، والسيطرة على الشعوب المستضعفة بواسطة القوة العسكرية والاقتصادية. وليس الاستعمار ـ القديم والحديث ـ الا ثمرة من ثمار فكرة السيطرة فى حضارة الانسان الغربى، فالاستعمار اذن هو سلوك حتمى لحضارة تعبد القوة والرفاه واللذة وتكفر بكل القيم الانسانية.

موجات الاستعمار الغربى

ولقد تتابعت فى تاريخ الغرب الحديث حتى الان ثلاث موجات استعمارية. .

الموجة الأولى :

سجلت نهايتها بالحرب العالمية الثانية او بعدها بقليل، حيث تفككت القوى الاستعمارية القديمة وشاخت بعد ان تمردت عليها الشعوب. وأخص بالذكر هنا الاستعمار الفرنسى والانكليزى والايطالى والاسبانى والهولندى، وبذلك فقدت هذه البلدان الاستعمارية نفوذها المعنوى الذى كانت تستمده من ترديدها لشعارات الحرية والاخوة والمساواة وتوارت عن مراكز القيادة العالمية لتترك المكان فسيحا لقوة استعمارية جديدة ولمرحلة استعمارية جديدة.

الموجة الثانية :

مرحلة الاستعمار الامريكى، فلقد حلت الولايات المتحدة بشكل أو بآخر محل الاستعمار القديم حاملة كغطاء معنوى لاستعمارها شعار حقوق الانسان، وبلغت هذه الموجة الاستعمارية ذروتها فى حرب فيتنام. وكان انتصار الفيتناميين الرائع على الطغيان الامريكى انتصارا للحق على الباطل وللحرية على السلاح. واخذت الولايات المتحدة الامريكية وهى تجر أذيال الخيبة طريقها الى الانكماش والزوال بزوال إشعاعها المعنوى وارتباطها فى اذهان الناس بالظلم والعدوان والاستغلال. واستطاعت الشيوعية وهى شكل اخر من أشكال الفكر الغربى - ممثلة فى الدولة الروسية - أن تحقق انتصارات كبيرة على حساب الاميركان، فحلت فى أكثر من موقع فى العالم محلها، تقدم جيوشها واعاناتها الموجهة موجة قوية من الدعاية المغرية التى تبرز الاتحاد السوفيتى فى نظر الشعوب المستضعفة والشباب الثائر على أوضاعه الفاسدة فى كل مكان، تبرزه نصيرا للحرية والعدل، وحليفا لثورات التحرر، عدوا ألد للقوى الاستعمارية ومصالحها. ولكن لم تستطع الشيوعية، وهى ذاتها فكرة غربية، أن تحرر الروس من نزعاتهم التوسعية الموروثة عن القيصرية، فانطلقت جيوشهم وجيوش عملائهم تكتسح بالقوة والجبروت بلدانا كثيرة فى افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية، وتطيح بالحكام الوطنيين وتنصب عملاء لها فى دست الحكم وتتولى حمايتهم من شعوبهم الثائرة. حدث هذا فى أكثر من موقع فى العالم، فى أنغولا واثيوبيا واليمن الجنوبى. كما حدث قبل ذلك فى بولونيا والمجر وفنلندا وتشيكوسلوفاكيا. وبلغت هذه الموجة الاستعمارية الروسية ذروتها فى الهجوم على أفغانستان المسلمة والاطاحة بالحكم القائم فيها، واكتساح ترابها بجيش جرار يقارب مائة ألف جندى مجهزين بأحدث وسائل التدمير لمقاومة الأبطال المسلمين المجاهدين اللائذين بالجبال دفاعا عن وطنهم ودينهم وانسانيتهم، فهل ستتمكن هذه الموجة الاستعمارية الجديدة من الثبات امام صخور المقاومة الافغانية؟ هل سيقدر باطل الشيوعيين ان يقهر حق المجاهدين المسلمين فى أفغانستان؟ أم ان مصير الاستعمار واحد مهما تعددت الشعارات التى يحملها لتبرير سيطرته؟

فيتنام وأفغانستان

إنه رغم الفوارق الشساسعة بين الوضع الفيتنامى والوضع الافغانى، الأمر الذى جعل بعض المعلقين السياسيين كأندريه فونتان يستبعدون ان يحدث لروسيا فى افغانستان ما حدث لأمريكا فى الفيتنام، فان النتيجة واحدة بالنسبة للصورة التى أصبحت تظهر بها كل من الدولتين فى العالم. لقد كشف الغزو الروسى لافغانستان عن الوجه الغربى العنصرى للاتحاد السوفيتى المختفى وراء الشعارات الايديولوجية البراقة التى انخدعت بها شعوب

العالم الثالث طويلا. وبات اليوم من الصعب على الدعاية السوفيتية كما هو بالنسبة للدعاية الامريكية الليبرالية أن تدفع عن النظامين تهمة الاستعمار تحت شعار الليبرالية أو تحت شعارات الماركسية، وغدا مصطلح الامبريالية الاشتراكية الذى أطلقه الصينيون لوصف النظام الروسى مصطلحاً مقبولاً جدا.

وكما زلزل الصمود الفيتنامى بنية الرأسمالية الامريكية وكشف عن طبيعتها الاستعمارية فان الصمود الاسلامى فى افغانستان سيزلزل المجتمع السوفيتى رغم الدور المضلل الذى يقوم به الاعلام السوفيتى واخفائه للحقائق حتى عن شعوبه. ولكن أنى للاعلام السوفيتى أن ينجح فى إخفاء الحقائق الساطعة؟ ان آلافاً من الجنود والضباط الروس قتلوا على الساحة الأفغانية وسيتبعهم آخرون فكيف يقدر الاعلام السوفيتى ان يخفى ذلك عن أهاليهم ومواطنيهم؟ كما ان نفقات الحروب التى تشنها روسيا فى عدة جهات ستؤثر حتماً على اقتصادياتها.. أضف الي ذلك ان التركيبة السكانية للاتحاد السوفيتى ستتأثر حتماً بالحرب الأفغانية ذلك ان أقلية اسلامية متنامية بسرعة تكاد تشكل ثلث سكان الاتحاد السوفيتى، ويقدر ان تبلغ النصف او تتجاوزه فى منتهى هذا القرن.. ستتأثر بهاته الحرب.. خاصة وان هؤلاء المسلمين من نفس جنس المسلمين الافغان، فالى متى سينجح الاتحاد السوفيتى فى كبت المشاعر الاسلامية المتنامية، والمسلمون يرون بأعينهم دماء اخوانهم تنزف على الحدود، بل انه منذ بداية هذه الحرب الاستعمارية طفحت مشاعر النقمة لدى المسلمين الذين يشكلون جزءاً كبيراً من الجيش الروسى الغازى.. فلقد نقلت الانباء ان عدداً من الجنود السوفيات المسلمين رفضوا اطلاق النار على اخوانهم من المسلمين الأفغان وان عددا آخر من هؤلاء التحقوا بالثوار الأفغانيين تاركين الجيش السوفياتى.

ان روسيا فى تسليطها للمسلمين على المسلمين تعيد نفس الجريمة التى كان يرتكبها الجيش الفرنسى فى تسليط المسلم السنغالى على أخيه المغربى أو السورى. ولكن الزمن غير الزمن، فلقد استيقظ الاسلام ونهض ليصفى حسابه مع المستعمرين الجدد والقدامى، بغض النظر عن الشعارات المزيفة التى يحملونها، شعارات الحرية والاخوة والمساواة او شعارات حقوق الانسان، او شعارات الاشتراكية ومجابهة الامبريالية، معتبراً ان الغرب واحد، حية رقطاء اياً كان لون الرأس الذى ترفعه، فرنسا او امريكا او روسيا، يجب قطعه لتخليص البشرية من السموم التى ينطوى عليها. واذا كان الطاغوت الامريكى كارتر قد ندد بالملحدين الروس فى غزوهم لبلد اسلامى، وألح لورد كارينغتون ممثل العجوز الاستعمارى الانكليزى على انه لا امل فى ايقاف الزحف الشيوعى الا بالاسلام، فان المسلمين أعرف الناس بجرائم الغرب بكل اشكاله القديمة والحديثة فى حق الاسلام والانسانية عامة. واذا كان الامام الخمينى فى حربه للامبريالية قد أطلق هذه الصيحة: (ليعلم الرئيس كارتر انه غدا أبغض حاكم فى نظر الشعوب الاسلامية) فنحن اليوم نضيف «ليعلم اخوه بريجنيف انه قد غدا بعد غزوه لأفغانستان مقترناً اسمه بإسم الشيطان الامريكى، يصب عليهما المسلمون لعناتهم آناء الليل وأطراف النهار».

موقف الدول الاسلامية :

لقد كان موقف الدول الاسلامية من الاكتساح الروسى لافغانستان محيراً لكل من يحكم على الأمور حسب ظاهرها، ذلك انه فى الوقت الذى أبدى فيه الغرب سخطاً كبيراً ـ وان لم يتجاوز الكلام فى الغالب ـ على هذا الاكتساح الاستعمارى لبلد مستقل، وقف العالم الاسلامى موقف المتفرج بل المؤيد احياناً، ولم يستطع رئيس المؤتمر الاسلامى الذى تحرك ببطء ان يجمع من بين اصوات أربعين دولة اسلامية اكثر من عشرة اصوات مؤيدة لعقد دورة استثنائية لوزراء خارجية الدول الاسلامية لبحث هذه القضية، مع ان قانون المنظمة لا يسمح بعقد مثل هذا الاجتماع الا بطلب ثلثى الاعضاء، فلا مجال للحديث بعد ذلك عن قطع العلاقات الدبلوماسية او الاقتصادية مع الاتحاد السوفيتى او لقيام مظاهرات احتجاج تضامناً مع اخواننا الأفغان واحتجاجاً على ما يلاقونه من شراسة الاستعمار الروسى، ولا مجال بعد ذلك للتفكير فى تنظيم حملات لجمع التبرعات والأدوية والاغطية لاخواننا الأفغان، فكل ذلك بعيد عن تصور الدول التى تحكم المسلمين.. فما سر ذلك يا ترى؟ ما هى دلالة هذا الصمت المخزى الذى تقفه الحكومات التى تحكم المسلمين؟

دلالته أولاً :

إن هذه الدول فى غالبها، ان لم نقل كلها، تصورها للعلاقة ين الدين والسياسة تصور غربى، وفى هذا التصور لا مجال لتدخل الدين فى تحديد المواقف السياسية، واذا كان للغرب مصالحه فى التنديد بالغزو الروسى فما هى مصلحتنا نحن فى ذلك؟ واذا صح ذلك فكيف تحافظ هذه الدول على صفة «الاسلامية» فى دساتيرها؟

ودلالته ثانياً :

ان هذه الدول لم تقم فى الغالب ولم تحافظ على وجودها الا بتأييد ومباركة من الغرب فى شكلية الرأسمالى والاشتراكى، وكله مقت للاسلام وعداء له، فكيف تورط هذه الدول نفسها فى اعلان مواقف اسلامية فى سياستها الخارجية، اليس ذلك من قبيل العار والفضيحة والبرهنة للغرب على اننا رغم عصريتنا وتطورنا لا يزال شىء من الاسلام يقبع فى خبايا نفوسنا؟.

ودلالته ثالثاً :

ان هذه الدول لا تمثل فى سياستها مشاعر شعوبها ومطامحها، ففى الوقت الذى تكاد اكبادنا تتقطر ألماً وتذوب انفسنا كمداً على ما يلاقيه اخواننا المسلمون فى افغانستان من محن وآلام فتحرق اجسادهم بالنابالم الشيوعى وتدك بيوتهم بالمدافع الشيوعية وتنتهك حرماتهم من طرف الاستعمار الشيوعى.. تنشغل الحكومات التى تحكم المسلمين بالأعياد الوطنية وتتلهى بالتافه من الأمور.. فهل يمكن الحديث عن الوطنية او الاسلام إزاء مثل هذه الحكومات السادرة فى غيها تجاه آلام المسلمين ومآسيهم؟ انه ما لم تلتحم السياسة بالدين فى العالم الاسلامى، ومشاعر الحكام بآلام المحكومين، وتردم هذه الهوة الشاسعة بين الراعى والرعية،

فانه لا امل لهذه الأمة فى النهضة والتقدم والعز والسؤدد. وسيبقى الغرب فى شكله القديم أو الحديث، فى شكله الرأسمالى أو الشيوعى، يخنق البشرية ويستغلها ويمتص دماءها بواسطة تقنياته المتقدمة واذنابه المنتشرين فى كل مكان. ولكن الاسلام الذى جاهد لتصفية الاستعمار القديم لن يضع السلاح حتى يحرر البشرية من الاستعمار الحديث، وان ثورة الاسلام فى ايران وأفغانستان طلائع عالم جديد تسود فيه حضارة الانسان، حضارة الاسلام على انقاض الاستعمار الفرنسى او الانكليزى أو الامريكى او الروسى. وليس على الشعوب الاسلامية والشعوب المستضعفة الا ان تثبت، فالله مع المستضعفين ضد قوى الظلم والاستغلال كيف لا وهو القائل ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾.

▪ القضية الفلسطينية فى مفترق الطرق

«يستطيع بعض المسؤولون العرب ـ ولاشك ـ ان يذهبوا الى القدس المحتلة، ولكن ذلك لن يغير شيئا لانه سيكون هناك دائما مسلم ينهض لسحق الخونة. اننى اكرر اننا لن نقبل هذا الجسم الغريب عن منطقتنا. اسرائيل هى سرطان حقيقى طُعِّم به العالم العربى. انا متفائل جدا، فالمسألة فى رأيى مسألة عشرين سنة على الأكثر».

أحمد بن بله (١)

الاطار التاريخى للمشكل الفلسطينى :

فى الـوقت الذى كانت فيه دورة من دورات الحضارة الاسلامية تلفظ أنفاسها بغروب شمس العثمانيين كانت حضارة الرجل الابيض قد اكتمل نموها اثر سلسلة من الثورات الوطنية والعلمية ضد الهياكل والمضامين الفكرية والسياسية والاقتصادية الوسيطة. وكانت خلال ذلـك قد امتـلأت عنفوانا ورغبة وتصميما جامحين فى السيطرة على كل شىء. وما احتاجت الى كبير جهد من اجل وضع يدها على حضارة أنهكها الاستبداد وفقدت صلتها بالحياة وسيطرتها عليها فغطت فى نوم عميق، وتمكن الغرب فى وقت سريع من الاطاحة ببقايا هياكلها النخرة واستغلال خيراتها الوفيرة وتدمير طاقاتها.

وفى غمرة الصراع بين القوميات فى أوربا كانت بذور قومية جديدة تجد المناخ ملائما لنموها هى القومية الصهيونية التى كانت تنمو وسط الصراع والاضطهاد، مستوعبة أساليب النضال ومناهج الفكر وثمار الحضارة الغربية عامة، وقد كان اليهود يمثلون فى أوربا النخبة المثقفة التى ساهمت فى الثـورة ضد الهياكل السياسية والدينية والاقتصادية التقليدية. ولم ينقض القرن التاسع عشر الا وقد تبلورت القومية الصهيونية فى مجموعة من التنظيمات والزعامات منبثة فى معظم المعمورة وخاصة فى اوربا وحدت بينها خطة فى مؤتمر «بال» عام ١٨٩٧ حددت لليهود هدفا هو تكوين دولة تجمع شتاتهم فى فلسطين خلال خمسين سنة يسخر اليهود خلالها كل نفوذهم العلمى والاقتصادى والاعلامى والسياسى لتحقيق ذلك الهدف مستغلين كل الظروف والتقلبات. ولم تنقض الحرب العالمية الاولى الا وقد حصلوا من بريطانيا على وعد بتكوين دولة قومية لليهود فى فلسطين، وذلك سنة ١٩١٦. وباشتراك مع جيش الشريف حسين ـ حاكم الحجاز يومئذ ـ تمكنت انجلترا من إجلاء العثمانيين عن فلسطين بعد ان فشل اليهود فى إغراء السلطان العثمانى عبد الحميد ببيعهم فلسطين. وفى ظل الحماية البريطانية فتحت فلسطين امام الهجرة اليهودية. ولقد عبر العرب عن رفضهم لوعد بلفور وللهجرة

(١) «جون افريك» ١٩٨٢/٩/١٥.

اليهودية وذلك من خلال سلسلة من الانتفاضات والثورات فى ابريل ١٩٢٠ ومايو ١٩٢١ وأغسطس ١٩٢٩، وهيأت هذه الانتفاضات لثورة عارمة سنة ١٩٣٦ و ١٩٣٩ وكان اهم زعامات المرحلة الشيخ عز الدين القسام، وكادت هذه الانتفاضات تجهض أحلام اليهود لولا تدخل الانجليز وخذلان الحكام العرب. وفى نوفمبر ١٩٤٧ اصدرت الامم المتحدة القرار رقم ١٨١ القاضى بتقسيم فلسطين الى دولتين يهودية وعربية.

وفى ٢٥ مايو ١٩٤٨ اعلنت بريطانيا انتهاء الانتداب وفى الوقت نفسه اعلنت المنظمة الصهيونية قيام دولة اسرائيل.

دخلت الجيوش العربية الحرب وانسحبت بعد ان وافقت على الهدنة اثر سلسلة من الفضائح والخيانات اقترفتها الانظمة العربية ذهبت بكل التضحيات التى قامت بها عدة فرق وتنظيمات فدائية شعبية مثل تنظيم الاخوان المسلمين. وأدت مرارة الهزيمة والنقمة الشعبية على خيانات الانظمة العربية الى سلسلة من الانتفاضات الشعبية والانقلابات العسكرية بدأت باغتيال الملك عبد الله فى القدس وأطيح بأنظمة مصر وسوريا والعراق وقامت أنظمة وأحزاب ترفع شعار تحرير فلسطين منددة بخيانات الماضى ومحاولة اعادة بناء الانظمة على أسس جديدة مستبدلة الولاء للمعسكر الغربى الذى أوجد اسرائيل بالولاء للمعسكر الشرقى والتوجهات الرأسمالية بتوجهات اشتراكية. ولقد غدا الفلسطينيون مادة خصبة للاستغلال من طرف الانظمة العربية يتاجر الجميع بقضيتهم ويستغلونهم فى تحقيق اهدافهم. فالفلسطينى بعثى او قومى عربى او ناصرى او اشتراكى يقاتل اخاه الفلسطينى عبر الصراع بين الاحزاب والانظمة.

ولم يستطع المرحوم أحمد الشقيرى الذى كون منظمة التحرير الفلسطينية ان يحرر الفلسطنيين من استغلال الاحزاب والانظمة لهم ولم يتجاوز بالفلسطينيين مرحلة العمل السياسى التوعوى التقليدى الى العمل العسكرى والسياسى المستقل.

وفى سنة ١٩٥٦ قامت اسرائيل متحالفة مع بريطانيا وفرنسا الاشتراكية بالهجوم على قنال السويس بعد ان أممه عبد الناصر إثر ضغط المنظمات الاسلامية الفدائية ونشاطها العسكرى فى القنال ضد الانجليز الذين كان مقررا اخراجهم سنة ١٩٦٨ من القنال، غير ان مطامع المستعمرين الجدد - الروس والاميركان - لخلافة المستعمرين القدامى - الفرنسيين والانجليز - قادت الاولين الى اتخاذ موقف حاسم ضد المعتدين وضع حدا للعدوان. ولكن اسرائيل لم تعد بخفى حنين فقد وافق عبد الناصر فى وثيقة سرية على السماح لاسرائيل بحق المرور فى مضيق تيران والبحر الاحمر وهو امر حيوى جدا بالنسبة لاسرائيل - فقد وسعت نفوذها السياسى والاقتصادى فى آسيا وفى شرق افريقيا - كما وافق على ان تتولى قوة أممية حماية هذا الحق.

ولقد استغلت هذه الاتفاقية ايما استغلال من طرف خصوم عبد الناصر فى العالم العربى وخاصة البعثيين. فلما قرر سد الثغرة التى فتحها امام اسرائيل لاسكات خصومه وطرد

القوات الاممية اعتبرت اسرائيل ذلك اعلانا للحرب عليها فبادرت بهجومها الساحق (فكانت حرب الايام الستة ١٩٦٧) الذى بدأ بتحطيم الطيران المصرى وهو القوة الأساسية لمصر.
وقبل ذلك دخل عنصر جديد هام فى الاحداث سيكون له اثر فعال فى تحديد مصير المنطقة. ففى سنة ١٩٦٥ اعلنت حركة التحرير الفلسطينية (فتح) انطلاقة الثورة الفلسطينية وقد مكنها النظام البعثى فى سوريا من القيام بعمليات فدائية ضد اسرائيل انطلاقا من التراب السورى، وكان ذلك مندرجا ضمن استراتيجية البعث فى المزايدة على النظام المصرى وتحديه وجره الى الصدام مع اسرائيل مما هو حريص كل الحرص على تجنبه. وكان يصحب ذلك التحدى دعاية مركزة ضد النظام الناصرى واتهامه بالتخاذل، فكانت عمليات منظمة التحرير عاملا آخر فى تقريب ساعة الصدام مع اسرائيل سنة ١٩٦٧ الذى انتهى بتحطيم الجيش المصرى واحتلال سيناء والضفة الغربية والقدس والجولان.
تمكنت منظمة التحرير من تصعيد عملياتها بعد نكبة ١٩٦٧ انطلاقا من الاردن خاصة فى الوقت الذى كانت مصر تشن على القنال حرب استنزاف ضد القوات الاسرائيلية، فكانت تلك الفترة اصعب الفترات التى عرفتها اسرائيل فى تاريخها. وما كان يمكن لتلك التجربة ان تستمر دون ان يهتز الكيان الصهيونى ذو الابعاد المحدودة الذى لا يحتمل حربا طويلة المدى. هنا يأتى التدخل الامريكى الحاسم لايقاف القتال العربى ضد اسرائيل وتحويله الى قتال العرب ضد بعضهم بعضا.
جاءت امريكا لتضع العرب على طريق المتاهة والخيانة والحلول الاستسلامية التى بدأت بمشروع روجرز الذى اوقف القتال ضد اسرائيل لتتفرغ الانظمة لتصفية المقاومة الفلسطينية بدءا بمجزرة الاردن المعروفة بأيلول الاسود ١٩٧٠ مرورا بتل الزعتر ١٩٧٦ على يد الجيش السورى والمليشيات المسيحية بعد ان انتقل الثقل الفلسطينى الى لبنان مستفيدا من التوازن الطائفى فيه ومن الحريات الديمقراطية المتوفرة، فأرسوا دعائم منظمة نموذجية وبرهنوا على قدرة فائقة فى التنظيم الادارى والسياسى والامنى والقضائى والثقافى والاقتصادى، فضلا عن الجانب العسكرى مستفيدين من المستويات العلمية الممتازة التى يتمتع بها الفلسطينيون - فقد كانوا يمثلون أرفع نسبة للمتعلمين فى البلاد العربية حتى قبل اغتصاب اسرائيل لوطنهم، واشتد اقبالهم على التعليم بعد ذلك كأداة لاثبات وجودهم فغدوا أنموذجا للنخبة المثقفة فى البلاد العربية، حيث يتولون ادارة اهم المؤسسات العلمية والفنية فى عدة بلاد عربية وحتى غربية وبكفاءة عالية، لدرجة تعذر الاستغناء عنهم فى عدة أنظمة وغدوا قوة تخشاها الانظمة العربية اكثر مما تخشى اسرائيل. فقد غدت مخيماتهم دولة داخل الدولة، لها نظامها الداخلى المستقل مما هدد التوازن الطائفى الذى عليه لبنان فتصدت لهم المليشيات المسيحية التى كانت تتلقى من الغرب ومن اسرائيل الدعم الهائل وحتى من الانظمة العربية الموالية للغرب. ولما ادركت تلك القوى عجز الكتائب عن الحد من نفوذ الفلسطينيين الذين أوشكوا مع حلفائهم من المسلمين والاحزاب التقدمية - وكلها ذات أصول اسلامية - ان يقضوا على البنية الطائفية التى ارستها فرنسا سنة ١٩٤٣ والقاضية بتوزيع السلطة توزيعا

طائفيا يجعل المارونيين هم الطرف المتفوق - فمنهم ينبغى ان يكون رئيس الجمهورية ووزير الدفاع وقائد الجيش ووزير الخارجية الى جانب امتيازات اخرى كثيرة - عندها أعطى الضوء الاخضر لجيش حافظ الاسد ليقوم بالنيابة عن كل القوى والانظمة العربية والدولية واسرائيل بمهمة تحجيم الفلسطينيين، فكانت مجازر ١٩٧٦ فى لبنان مثل تل الزعتر الشهيرة حيث واجه الفلسطينيون وحلفاؤهم الوطنيون اللبنانيون الكتائبَ المسيحية والجيشَ السورى فى نفس الوقت فاستعاد الكتائب نفوذهم بعد ان انحصروا فى جزء صغير من لبنان، ووضع الجيش السورى يده على لبنان - عدا المناطق المسيحية التى غدت تحت السيطرة المطلقة للكتائب - ، واطفأ حافظ الاسد نار الثورة الملتهبة على حدوده والتى يهدد حريقها بالانتشار فى كامل المنطقة وهى هشيم، خاصة بعد ان غدا السلاح متاحا للجماهير وهى غاضبة على أنظمتها مما يغريها باتخاذ الثورة المسلحة سبيلا لتصفية العملاء..

ولكن الفلسطينيين مالبثوا ان ضمدوا جراحهم ولموا شعثهم فى المواقع التى احتفظوا بها سواء فى بيروت او الجنوب اللبنانى وعرفوا كيف يحتفظون بعلاقات «طيبة» مع كل الانظمة العربية بما فى ذلك النظام السورى والاردنى مصرين على استقلاليتهم من كل الانظمة والاستفادة من التناقضات العربية لصالح قضيتهم على اساس تعايش سلمى حذر، وكانت الانظمة تحمى نفسها من عمليات الفدائيين عن طريق تشديد الرقابة على تحركاتهم داخل حدودها واعلان ولائها لمنظمة التحرير ودعمها بالمال فى نفس الوقت. فبعد ان حصل الفلسطينيون على اعتراف من مؤتمرات القمة العربية سنة ١٩٦٥ ومابعدها على اعتبار منظمة التحرير الممثل الشرعى والوحيد لهم، تلقت المنظمة كثيرا من الدعم المالى خاصة بعد ظهور ثروة البترول. وبقدرما كانت الانظمة العربية تتردى فى مزيد من الهزائم والممارسات الديكتاتورية ضد الجماهير بقدر ماكانت المنظمة تثبت قدرة فائقة على ضرب العدو الصهيونى مما أكسبها نوعا من الشعبية لدى الجماهير باعتبارها الامل فى استرجاع الكرامة بعد ان نفضت يدها من الأنظمة وهو أمر يبشر بعودة الوعى للجماهير مما يهدد بعودة الوعى لجماهير وثقتها فى قدرتها على التصدى للامبريالية رغم تفوقها العسكرى ان هى اتخذت الثورة المسلحة سبيلا. وذلك ماكان يقلق الحكام ويجعلهم فى الوقت الذى يقدمون فيه المعونات المالية للثورة الفلسطينية ويعلنون تبنيهم لها، تراهم يتآمرون عليها ويتحينون الفرص للايقاع بها مستغلين حساسية الجماهير فى المناطق التى تعايشت فيها مع الفلسطينيين. فقد افرز تشردهم وفقرهم وعدم شعورهم بالامن والاستقرار كثيرا من المسالك اللااخلاقية والانتهازية والعنف مما جعلهم مكروهين فى المناطق التى لجأوا اليها. ولم يمنع ذلك من عطف الجماهير عليهم واعجابها بهم كلما حلت بهم نكبة او نجحوا فى تسديد ضربة للعدو، مما جعل الانظمة بصفة عامة تتخلى راغمة عن سياسة مواجهة الفلسطينيين وتصفيتهم فى العلن دون ان تزيد من شعبيتهم خاصة وهذه الانظمة تعانى من مشاكل وثورات داخلية حادة كما هو حال النظام السورى. فلم يبق امام الاسرائيليين حماة الانظمة العربية والمصالح الامبريالية الا ان يتولوا بأنفسهم تصفية الكيان الفلسطينى او محاولة ذلك، فكان الهجوم على لبنان وبطولات بيروت ومجازرها فى صيف ١٩٨٢.

الشعور الوطنى الفلسطينى ومنظمة التحرير :

نشأ الشعور الوطنى الفلسطينى ـ شأن الشعور الوطنى اليهودى عموماً ـ عبر المآسى والمحن والآلام التى عاشها الفلسطينيون مشردين فى كل مكان. ولقد كان للعمليات الفدائية الناجحة التى حققها عرفات والفتية الملتفون حوله ضد الكيان الصهيونى الذى استسلم العرب له دور فعال فى بعث وتأجيج الشعور الوطنى لدى أولئك الذين كاد شعورهم الوطنى ان يتلاشى واملهم فى استرداد ارضهم ان يضمحل. فقد عملت الأنظمة العربية ـ كما تقدم ـ على استغلالهم ابشع استغلال طوال الخمسينات والستينيات.

لقد أيقظت طلقات الرصاص المنبعثة من بنادق اولئك الشباب الفدائى المشاعر الوطنية الغافية، وما لبثت تلك المشاعر ان تبلورت حول هدف محدد هو تحرير الوطن المغتصب واقامة الدولة الفلسطينية. ولقد مرت فكرة الدولة الفلسطينية بمراحل بدأت بالدعوة الى اقامة دولة لائكية (علمانية) على كل فلسطين يتعايش فيها العرب واليهود ثم تحددت فى اقامة دولة فى المنطقة التى احتلت بعد ١٩٦٧ ثم انحصرت اكثر فى إقامة دولة على كل شبر يحرر من فلسطين. ولقد كانت منظمة التحرير وهى تجمع لمجموعة كبيرة من المنظمات الفدائية والتجمعات والهيئات النقابية الفلسطينية، كانت هى العدسة التى تجمعت فيها الأشعة المبعثرة فحولتها الى قوة دفع ونضال على جميع المستويات وحيثما وجد الفلسطينيون فى الارض المحتلة قبل ١٩٦٧ او بعدها فى الوطن العربى او خارجه. فقد غدت المنظمة الجسم الواحد الذى تجسدت فيه كل الأرواح الفلسطينية على اختلاف مواقعها وانتماءاتها العقائدية ومستوياتها الثقافية والاقتصادية كل يناضل فى موقعه من اجل تحقيق هدف المنظمة. وليس الكفاح المسلح الذى غدا ممثلاً بجيش من الفدائيين منظم ومسلح وممول ومدرب تدريباً عالياً الا أداة من أدوات النضال الفلسطينى. ورغم اهمية العمل المسلح الذى ينطلق من قناعة ان «حركات التحرر التى حققت اهدافها دون اللجوء الى النضال المسلح لا تكاد تذكر» كما اكد جورج حبش احد أبرز قادة المنظمة (٢)، والذراع العسكرى كما يؤكد قائد فلسطينى آخر بالغ الاهمية لحماية التركيب السياسى وكورقة رابحة فى أية مفاوضات، مضيفا بأنه «لم يدر فى خلد اكثر المتفائلين الفلسطينيين ان القوة العسكرية للمنظمة كفيلة وحدها بتحقيق مطامح الفلسطينيين فى انشاء دولة خاصة بهم» (٣). ومع ذلك فقد اهتمت المنظمة بالميدان السياسى فحققت الدبلوماسية الفلسطينية خلال السبعينات الشىء الكثير وكانت انجع حركة تحرير فى جميع الاوقات. صحيح ان الدبلوماسية الفلسطينية لم تستطع ان تسترجع شيئاً من ارض فلسطين ولكنها أقنعت العالم بعدالة القضية الفلسطينية (٤)، فقد استطاعت ان توظف بنجاح

(٢) فى حديث للتلفيون الايطالى نقلته جريدة «الصباح» بتاريخ ١٩٨٢/٩/١
(٣) من حديث نشرته «المجلة» نقلا عن الصباح ١٩٨٢/٧/١٥.
(٤) نفس المصدر.

عن طريق النشاط السياسى والثقافى والاعلامى المآسى التى تعرض لها الفلسطينيون والانتصارات التى حققوها ضد الامبريالية وحلفائها فى المنطقة فى انتزاع شعور العطف والاعجاب والايمان بأن الفلسطينيين هم ايضاً لهم حق العيش على ارضهم المسلوبة. ولم تفلح الدعاية الصهيونية رغم قوتها وكثافتها واتساعها وفعاليتها فى الحد من النفوذ السياسى لمنظمة التحرير الذى اصبح مدعوماً بتمثيل دبلوماسى للمنظمة فى أغلب العواصم والمنظمات العالمية والاحزاب الجماهيرية فى العالم، فما يكاد ينعقد مؤتمر لحزب من الاحزاب الكبرى فى العالم او مهرجان سياسى او ثقافى الا وللمنظمة تمثيل فيه، فضلاً عن علاقاتها المتينة بالحركات الثورية فى العالم. فقد غدت مخيمات المنظمة ومعسكراتها مدارس لتخريج وتدريب الثوار فى كل مكان. كما اهتمت المنظمة بالعمل الاجتماعى للجماهير الفلسطينية ضمن فئات اجتماعية ومنظمات كالاتحاد النسائى الفلسطينى واتحاد العمال والاطباء والمهندسين والطلبة والكتاب وانشأت مؤسسات صحية وتعليمية ومنظمة الهلال الأحمر الفلسطينى، وهى منظمات تستقطب الفلسطينيين وتبلور الشعور الوطنى لديهم وتجندهم لصالح القضية حيثما كانوا داخل الوطن المحتل او خارجه. كما اولت القضية الاعلامية اهتماماً بالغاً فأسست مجموعة من الدوريات واذاعة واتخذت لها حصصاً فى عدة اذاعات كما أسست وكالة للأنباء (وفا). ولم تهمل النشاط الثقافى والفكرى فأسست مركزاً للدارسات الفلسطينية يعد من أرقى المراكز فى العالم العربى. فقد اهتم فى جملة ما اهتم به بمتابعة الفكر اليهودى وتحليله للتعرف على العدو، كما أنشأت فرقاً للتمثيل والمسرح والغناء ومؤسسة للسينما.

وقد قام النشاط الثقافى الفلسطينى بدور كبير للتعريف بالقضية الفلسطينية فى العالم وكسب الرأى العام وتأجيج الروح الثورية لدى الجماهير واستثارة الشعور الوطنى وترسيخه.

ولقد شهد هذا الشعور الوطنى الفلسطينى تأججاً حاراً داخل الاراضى المحتلة حيث فشل الصهاينة فشلاً ذريعاً فى استيعاب الفلسطينيين وصهرهم ضمن الكيان الصهيونى. فلقد رفض الفلسطينيون كل المشاريع الصهيونية لصهرهم مثل مشروع كامب ديفيد وروابط القرى واتجهوا مقابل ذلك فى اصرار وقوة الى تأكيد استقلالهم وارتباطهم بمنظمة التحرير الفلسطينية معتبرينها ممثلهم الوحيد.

وأمام نمو الشعور الوطنى داخل الاراضى المحتلة واشتداد ضغط الجماهير الموالية لمنظمة التحرير لم تعد تجرؤ شخصية فلسطينية على التصدى لمنظمة التحرير حتى انك لا تكاد تجد رئيساً لبلدية فى الضفة الغربية ليس موالياً لمنظمة التحرير وكذلك بالنسبة للنقابات والمنظمات الشعبية عامة. وعلى سبيل المثال نذكر كلمة عن المهرجان الوطنى الثانى للأدب الفلسطينى الذى انعقد اواخر شهر أوت ١٩٨٢ فى الأرض المحتلة حضره عدد كبير من الشخصيات الاجتماعية والفعاليات الوطنية ورؤساء البلديات والنقابات العمالية والمهنية وقادة الرأى وقد استمر المهرجان مدة اربعة ايام وكان شعاره (الأدب فى المعركة) وقد اشتمل بالاضافة الى كلمات الوفود قراءات شعرية لشعراء الارض المحتلة وأغانى وطنية فلكلورية وعروض مسرحية وعلى معرض للكتاب الوطنى ووزعت ملصقات دعائية للثورة. وصدر فى نهاية

المهرجان نداء الى الكتاب والأدباء فى العالم للتضامن مع الشعب الفلسطينى وثورته الوطنية بالوقوف فى وجه الهجمة الشرسة ضد الوجود الوطنى والقومى للشعب الفلسطينى (٥).
وليست الانتفاضات الجماهيرية الرائعة التى شهدتها الأراضى المحتلة طوال سنة ١٩٨١ وشاركت فيها أوسع القطاعات الجماهيرية وفى مقدمتها الشباب والنساء ضاربين امثلة نموذجية فى التضحية والفداء وتحدى الاعداء هاتفين لمنظمة التحرير والدولة الفلسطينية، ليس ذلك إلا مظهراً من مظاهر تعمق الروح الوطنية وتأججها لدى الانسان الفلسطينى.
فلا عجب بعد ذلك ان يهتز العالم كله ـ عدا العرب ـ للمجازر التى اقترفتها عناصر التحالف المسيحى اليهودى الاثيم ضد المخيمات الفلسطينية المسالمة فى بيروت، فشن ملايين العمال فى اوربا اضرابات الاحتجاج وقاطعوا شركة الطيران اليهودى وتحركوا فى مظاهرات صاخبة ضمت عشرات ومئات الآلاف فى أثينا وباريس ولندن مندددة بوحشية الصهاينة بينما لم تتحرك فى بلد عربى مظاهرات عدا التى قامت فى تونس ولكن يبدو انها لم تكن فى مستوى الحدث.

قضية فلسطين والعمل العربى المشترك :

رغم ان الجامعة العربية قد انبعثت قبل تكوين اسرائيل (١٩٤٥) الا ان أهم القضايا التى طرحت عليها هو المشكل الفلسطينى وذلك من خلال سلسلة من مؤتمرات القمة كان الباعث الظاهر اليها هو مواجهة التحدى الصهيونى. فكان الملوك والرؤساء يتنادون الى اللقاء كلما أقدمت اسرائيل على انجاز جزء من مخططاتها. فيجتمعون بدعوى مجابهة التحدى الصهيونى ويفترقون وقد أصدروا بيانات تعلن تأييدهم لقضية فلسطين وتنديدهم بالصهيونية والدعوة للتضامن العربى على اعتبار ان ذلك هو الحد الادنى الذى يمكن أن يلتفوا حوله.
وحتى هذا القدر من الشعارات الفارغة عجزوا فى مؤتمر فاس فى مرحلته الأولى سنة ١٩٨١ أن يجتمعوا حوله فانفض مجلسهم دون أن يصدروا ولو بيانا.

لقد كان السبب المباشر للقمة الأولى هو عزم اسرائيل على تحويل مياه نهر الاردن وروافده لاستغلالها فى صحراء (النقب) فدعا عبدالناصر ـ وقد كانت الحرب الباردة على أشدها بين الأنظمة العربية ـ الملوك والرؤساء الى نسيان خلافاتهم والاجتماع لمواجهة التحدى فكان المؤتمر الأول سنة ١٩٦٤.
وفى المؤتمر الثانى قرروا الاستمرار فى المشروع المضاد لتحويل مياه النهر الذى أقروه فى المؤتمر الاول وأكدوا على ضرورة استكمال القوى العربية.
وفى المؤتمر الثالث بالدار البيضاء سنة ١٩٦٥ وقع الاتفاق على احترام سيادة كل دولة

(٥) «الصباح» ١٩٨٢/٩/١.

عربية وعدم التدخل فى شؤونها وان العدوان على اى منها عدوان على سائرها.

فى القضية الفلسطينية قرروا الترحيب بقيام منظمة التحرير واعتبارها ممثلة للشعب الفلسطينى ووقعوا ميثاق التضامن العربى.

وجاءت القمة الرابعة بالخرطوم فى سبتمبر ١٩٦٧ بعد حوالى اربعة اشهر من العدوان الاسرائيلى فقررت استعادة الأراضى العربية ولو بالحرب مع اسرائيل وقد اشتهرت هذه القمة بلاءاتها الثلاثة: لا للاعتراف باسرائيل لا للتفاوض ولا للصلح معها.

القمة الخامسة بالرباط ـ نوفمبر ١٩٦٩ ـ امتازت هذه القمة بعدم صدور قرارات عنها[٦].

القمة السادسة بالجزائر ـ نوفمبر ١٩٧٣ ـ امتازت هذه القمة التى عقدت بعد حرب رمضان بالبيانات المتعددة التى وجهها المؤتمر الى عدة هيئات دولية وقرر المؤتمر ان اهداف المرحلة للنضال العربى هى التحرير الكامل لجميع الاراضى العربية المحتلة فى عدوان يونيو ـ جوان ـ ١٩٦٧ وعدم التنازل عن اى جزء من هذه الاراضى: تحرير القدس وعدم القبول بأى وضع من شأنه المساس بسيادة العرب الكاملة على المدينة المقدسة، تضامن الدول العربية مع مصر وسوريا والشعب الفلسطينى وتقديم الدعم الحربى لهم، الاستمرار فى استخدام النفط سلاحاً للمعركة وربط رفع حظر تصدير النفط لاية دولة بالتزامها بتأييد قضية العرب.

المؤتمر السابع: الرباط ـ اكتوبر ١٩٧٤ ـ قرر عدم قبول اى محاولة لتحقيق تسويات سيساية جزئية وقد رفع الاردن فى هذا المؤتمر تحفظه على قرار قمة الجزائر باعتبار منظمة التحرير الممثل الشرعى والوحيد للشعب الفلسطينى.

وفى المؤتمر الثامن بالقاهرة ـ اكتوبر ١٩٧٦ ـ وقع التأكيد على الالتزام القومى بالحفاظ على المقاومة الفلسطينية وتصعيد قدرتها على الصمود وطالب المؤتمر دول العالم الثالث بادانة العدوان الاسرائيلى.

وقرر المؤتمر التاسع الذى عقد فى اعقاب كامب ديفيد فى بغداد ـ نوفمبر ١٩٧٨ ـ رفض اتفاقية كامب ديفيد ودعم دول المواجهة وصمود الشعب الفلسطينى ومنظمة التحرير واعتبار القضية الفلسطينية قضية عربية مصيرية هى جوهر الصراع مع العدو الصهيونى.

وفى قمة تونس ـ نوفمبر ١٩٧٩ ـ وقع التأكيد على مقررات المؤتمر السابق.

وفى قمة عمان ١٩٨٠ قرر المؤتمرون الاستمرار فى مقاومة اتفاقية كامب ديفيد ورفض اية تسوية لا تتضمن الانسحاب الكامل غير المشروط من جميع الاراضى الفلسطينية والعربية المحتلة وتمكين الشعب الفلسطينى من اقامة دولة مستقلة واستخدام الامكانيات الاستراتيجية العربية لمواجهة الدول التى تدعم الكيان الصهيونى.

وفى مؤتمر القمة الثانية عشر بفاس ١٩٨١ كان مشروع فهد لتسوية القضية الفلسطينية

٦١) مجلة «شؤون عربية» ص ١٩١، تصدرها جامعة الدول العربية.

هو الموضوع الرئيسى للاجتماع [٧] غير ان الصراع بين دول الرفض والدول الموصوفة بالاعتدال جعل مستحيلاً الوصول الى نقاط التقاء فانفض المجلس دون ان يتوصل الى اى قدر من الاتفاق. ومعلوم ان جبهة الرفض والصمود قد تكونت اثر تحول مصر عن الخط الناصرى الاشتراكى الى الغربى الرأسمالى الامريكى اثر تسلم السادات الحكم وتحالفه مع السودان والسعودية مما جعل الخط الاشتراكى يشعر بالخطر فكون جبهة الرفض والصمود وكانت ليبيا وسوريا من أهم أعضائها بالاضافة الى منظمة التحرير واليمن الجنوبى والجزائر.

ولقد كانت قمة فاس درساً لنا ـ كما يقول امين الحافظ ـ لأن فشل فاس فى رأيى ليس مشروع الامير فهد بقدر ما كان انحياز كل دولة عربية الى هذا المعسكر او ذاك من المعسكرات الكبرى فى العالم [٨].

ورغم تعدد القمم فانها لم تخرج حتى الآن ـ عدا الدعم اللفظى وبعض الدعم المالى ـ بقرار حاسم فى أية قضية تهم المصير العربى وخاصة القضية الفلسطينية، فلم تتجاوز الموقف السلبى المتمثل فى رفض الاعتراف باسرائيل، ولكى بدون تبنى استعمال القوة لتحرير الارض المغتصبة، ولا استطاعت هذه القمم اتخاذ اجراءات رادعة تهدد مصالح امريكا حامية اسرائيل والتى اكتفى المؤتمرون بإدانتها. ويبدو ان العرب، اى حكامهم، انتهوا فى مؤتمر فاس فى مرحلته الثانية الى التراجع حتى عن هذا الحد الأدنى المتمثل فى رفض الاعتراف باسرائيل وإدانة حماتها، مما كشف بكل وضوح عن الدور الحقيقى لهذه القمم المتمثل فى امتصاص نقمة الجماهير وامتعاضها وحنقها على خيانات حكامها وتقاعسهم عن التعبير عن ارادتها وتخليهم عن مسؤوليتهم واعتبار هذه القمم مناسبات لتصفية الخلافات الداخلية بين الحكام حتى لا يذهب التناقض بينهم بمصالحهم جميعاً فكانت قضية فلسطين لا تعدو ان تكون غطاء لتلك المؤتمرات.

يقول ميشيل ابوجودة خلال الندوة التى عقدتها مجلة الجامعة العربية (شؤون عربية) حول مؤتمرات القمة العربية: (ان مؤتمرات القمة كانت باستمرار من اجل القضايا والمشاكل العربية ـ العربية ولتحاشى الموضوع الاساسى، لقد حضرت كافة مؤتمرات القمة، كان هدفها باستمرار من يتغلب منا على الآخر ومن هو الاكثر حقاً من الآخر، ويضيف: المؤسف اننا نحن العرب ليس عندنا الهم الاسرائيلى بينما هم لديهم الهم العربى ليلاً ونهاراً) [٩].

(٧) نفس المصدر فيما يتعلق بالمعلومات حول القمم العربية.
(٨) نفس المصدر ص ٢٢٦.
(٩) نفس المصدر ص ٢١٩.

مؤتمر فاس:

ولأهمية هذا المؤتمر نخصه بتحليل مفصل، ونبدأ بمقدمة تلقى اضواء على الاطار التاريخى لهذا المؤتمر.

١ ـ مقدمة:

انعقدت هذه القمة اثر الاحداث الدامية التى شهدها لبنان وخاصة فى جنوبه وعاصمته بيروت. فقد تحمل الفلسطينيون وحلفاؤهم من الوطنيين اللبنانيين عبء مواجهة جيش يعد من اكثر جيوش العالم تدريباً وخبرة وتسلحاً بأحدث ما جاءت به ترسانة الاسلحة فى امريكا، وذلك الجيش الذى دمر الجيوش العربية مرات عديدة فى اوقات قياسية فى سرعتها. لقد تمكن الفلسطينيون وحلفاؤهم بأسلحتهم الخفيفة من الثبات فى وجه هذا الجيش طوال ثلاثة اشهر تقريباً ببسالة نادرة. ثبتوا لهجوماته الصاعقة جواً وبراً وبحراً لم يتردد خلالها، لكسر صمودهم من استعمال حتى الاسلحة الفتاكة المحرمة دولياً فضلاً عن اسلوبه المعروف فى تدمير كل شىء يقف فى طريقه وسحق المدنيين بالجملة، مما يوجد جواً من الرعب تنهار معه معنويات المقاتلين. يقول عرفات فى حديث لشبكة التلفزيون الايطالى متحدثاً عن حصار بيروت (لقد عشنا فى جحيم لمدة ٧٩ يوماً ولا سيما بالنسبة للاطفال والنساء ولم تتدخل اية قوة لوقف ذلك فيما عدا لحمنا ودمنا. انه فى يوم واحد (يوم ١٢ أوت) على سبيل المثال القى على بيروت من قصف القنابل وقذائف المدفعية الثقيلة ضعف قوة المتفجرات التى اصيبت بها هيروشيما وناغازاكى. وامام هذا العدوان الوحشى لم يصدر اى احتجاج حتى امام الامم المتحدة حيث اغمضت البلدان الأوربية اعينها امام الواقع. انى آسف ان اقول انه عار). وختم الزعيم الفلسطينى تصريحه بقوله: (لكنكم ستلاحظون فيما بعد بأننا لسنا الشعب الوحيد الذى سيدفع الثمن، وستتغير فى المستقبل)[١٠].

وطوال ما يقارب الثلاثة أشهر ظلت الدماء البريئة تشخب فى شوارع بيروت ومخيمات اللاجئين واستمر الصمود الفلسطينى والوطنى اللبنانى رائعاً، والضمير العربى والضمائر الحرة تتعذب وتتمزق دون ان يحرك ذلك شيئاً من سواكن الانظمة، فما زادت على غير الاشادة بالصمود الفلسطينى واظهار التأييد اللفظى والتنديد بسلبية الانظمة العربية وكأن الأنظمة العربية شىء آخر غيرهم. لقد كانت الاستغاثات تشق عنان السماء تستنهض الاشقاء، اولئك الذيت تحتل الميزانيات الحربية القسم الأكبر من ميزانياتهم. فلمن تكدس الاسلحة وتجهز الجيوش؟

لقد كانت الانظمة العربية فى حرج شديد من ان يظهر عجزها وتخاذلها عارياً امام الجماهير وتظهر تبعية مواقفها لمصالح الدول الكبرى (إذ ليس من الممكن ـ كما اكد فهد لأحد اصدقائه

(١٠) نقلا عن جريدة «الصباح» ١٩٨٢/٨/١٥.

ـ قيادة شعـوب خفقت قلوبها مع الفلسطينيين المحاصرين والمحافظة فى نفس الوقت على صداقة امريكا). ويضيف الملك (اننى اصبحت اخشى على حياتى، اذا لم تتحرك الولايات المتحدة فسأضطر للقيام بشىء ضد الخمسمائة شركة العاملة فى السعودية او أسحب الاموال السعودية من البنوك الامريكية). ولقد كان ريغن خلال ذلك مخيراً بين المحافظة على عروش عملائه فى العالم العربى ان تهتز كما اهتزت عروش أسلافهم على إثر خياناتهم فى عام ١٩٤٨ فترتج الأرض من تحت اقدامهم كما هدد بذلك قائد الثورة الفلسطينية المحاصر وزملاؤه، ومـا يزيد عن نصف مليون مسلم قد قطعت عنهم كل وسائل العيش تصبحهم وتمسيهم القنـابل المحرقة وأزيز المدافع وقصف الطائرات واخوانهم العرب لا يحركون ساكناً. كان ريغان متحيراً بين وضعية أتباعه العرب المهددة وبين مصالح امريكا والتزاماتها مع حليفتها اسرائيل. وكان اتباعه العرب كلما استشعروا الخطر على مصيرهم مما يحدث فى بيروت جأروا بالشكوى له يناشدونه التدخل للضغط على اسرائيل وحملها على الترفق فى تحقيق اهدافها. فضاق بهم ذرعاً، والتفت اليهم زاجراً: (من فضلكم لا تعقدوا لنا مهمتنا. نحن مشغولون بهذه القضية وعليكم ان تثقوا بنا اننا نقيّم أصدقاءنا بحسب الطريقة التى يتعاملون بها مع هذه القضية، انظروا الى زملائكم رؤساء بقية الدول العربية انهم يتصرفون بطريقة مسؤولة فلا يقولون لنا شيئاً وعليكم ان تفعلوا مثلهم)(١١).

وطوال الثمانين يوماً من الحصار والتدمير الاسرائيلى لبيروت لم يتلق الفلسطينيون عوناً من احد. وحتى جيوش حافظ الاسد التى تعمل فى لبنان باسم قوة الردع العربية ـ التى لم تنجح الا فى ردع الفلسطينيين بكل قسوة سنة ١٩٧٦ ـ لاذت هذه المرة بالصمت الذليل والحياد الجبان واستكانت لأول نداء لوقف القتال دعت اليه اسرائيل دون ان تلتزم به، لتتفرغ بعد ذلـك للفلسطينيين مستعينة بخونة المسيحيين بل تجاوزت قوة الردع دور الحياد الى مراقبة تحركات الفلسطينيين فى البقاع ومنعهم من القيام بأى عمل فدائى ضد القوات الاسرائيلية بل بلغ الامر التآمر معها للايقاع بالفلسطينيين(١٢). ولم تستطع الانظمة العربية بل لم ترغب حتى فى الاجتـماع طوال الايام الثـمانـين الدامية للحصار فكانت تكتفى بالقيام بمشاهد مسرحية تشغل بها الرأى العام فيطالب هذا النظام بالاجتماع ويؤيده البعض فيعترض الآخر ثم يقوم آخر فى مكان ثان ليدعو نفس الدعوة، ولكن لا يكتمل النصاب. وهكذا ظلت المماطلة طوال تلك المدة ليترك الوقت الكافى وزيادة لشارون ينجز اهدافه دون اى ارتباك ولحلفائه الامريكان يفكرون على مهل فى اخراج مسرحية جديدة ونسج خيوط مؤامرة اخرى على الأمة بواسطة مبعوثهم فى المنظمة (فيليب حبيب) الذى ظلت الاضواء تلاحقه والآمال معلقـة بتحـركاته، وكانت جهوده منصبة على هدف محدد هو اقناع الفلسطينيين بضرورة مغـادرة بيروت والتفـاوض مع البلدان العـربية لاقنـاعها بقبول اللاجئين. وكلما اصطدم بمقاومة فلسطينية تدخل شارون ليحرك الحوار فى الاتجاه الذى يريده، وكلما لاقى من نظام

(١١) «جون افريك» ١٩٨٢/٧/٢١.
(١٢) أنظر شهادات المتطوعين التونسيين التى نقلتها جريدة «المستقبل».

عربى صعوبة او ممانعة فى قبول الفلسطينيين المقاتلين كلاجئين منزوعى السلاح تدخلت امريكا بضغوطها والسعودية ببترودولاراتها فدفعت ملايين الدولارات
الى عدد من الانظمة ـ منهم النظام السورى ـ لتفتح ابوابها للفلسطينيين، كما تعهدت بدفع اثمان تذاكر نقل الفلسطينيين على بواخر يتولى الامريكان تأجيرها(١٣)وتسخير اساطيلهم البحرية لحمايتها بمشاركة فرنسا وايطاليا. وهكذا تم لاسرائيل والانظمة العربية والامبريالية العالمية اقتلاع الفلسطينيين من بيروت التى كانت خلال ما يزيد عن عشر سنوات بمثابة القلعة الحصينة والدولة المستقلة وأرسوا فيها مؤسسات لا تتمتع بمثلها اى دولة عربية، تلك التى لا تزال شؤونها تدار بواسطة اشخاص لا بواسطة مؤسسات، ونجح المبعوث الامريكى فى خداع الفلسطينيين مستغلاً ظروفهم القاسية فقدم لهم من الضمانات ما اطمأنوا معه على مصير الجماهير العزلاء فى المخيمات التى تركوها بلا حام، فهى حسب التعهد الامريكى فى حماية قوة السلام المتعددة الجنسيات الى ان يتسلم الجيش اللبنانى تلك المهمة. ولكن تبين بعد ذلك ان الضمانات الامريكية تعتمد على ضمانات اسرائيلية ومتى كان لهؤلاء عهد او ميثاق؟ .

ولقد أحيط رحيل الفدائيين بدعاية عربية مكثفة للاشادة ببطولاتهم وتوظيف تلك البطولات فى تزكية الانظمة العربية التى استقبلتهم وابراز ضخامة الجهود التى تبذلها تلك الانظمة فى خدمة القضية الفلسطينية مخصصة لهم استقبالات رسمية وشعبية ومعاملة قيادتهم معاملة رؤساء الدول من حيث بروتوكولات الاستقبال والاقامة فى قصور، كل ذلك من اجل ان تقنع الانظمة العربية نفسها بل جماهيرها بانها قامت بأقصى واجبها نحو القضية الفلسطينية.

قمة فاس (الأحداث) :

خلال الثمانين يوماً الدامية لحصار بيروت لم تتفق الانظمة العربية على اجتماع للقمة ولكن ما ان تم رحيل اخر فدائى وتحقق الهدف الاول من الغزو الاسرائيلى ـ وهو تدمير منظمة التحرير او تشتيتها فى الآفاق ـ حتى تنادى الملوك والرؤساء الى اللقاء فما تخلف منهم غير القذافى اجتمعوا من جديد فى فاس. وكان الموضوع الرئيسى حسب الظاهر هو القضية اللبنانية والفلسطينية. وانطلق المؤتمر رسمياً من مشروعين هما مشروع بورقيبة الداعى للانطلاق من الشرعية الدولية اى قرار التقسيم لسنة ١٩٤٧ القاضى بتكوين دولتين فى فلسطين يهودية وعربية وعودة اللاجئين ووضع حد لحالة الحرب بين الدول العربية واسرائيل(١٤) ومشروع فهد الذى ينص على :

(١٣) نشرت ذلك جريدة (LE TENMPS) فى أحد أعدادها خلال حصار بيروت.
(١٤) «جون افريك» ١٩٨٢/٩/٢٢ .

أ ـ انسحاب اسرائيل من الاراضى التى احتلتها بعد ١٩٤٧م بما فى ذلك القسم العربى من القدس.
ب ـ ازالة كل المستعمرات التى انشئت فى الأرض المحتلة بعد ١٩٦٧م.
ج ـ ضمان حرية العبادة لكل الاديان فى الأماكن المقدسة.
د ـ الاعتراف بحق الفلسطينيين فى العودة الى وطنهم والتعويض لكل من لا يرغب فى العودة.
هـ ـ وضع الضفة الغربية وغزة تحت وصاية الامم المتحدة خلال مدة لا تتجاوز ثلاثة اشهر.
و ـ تكوين دولة فلسطينية عاصمتها القدس.
ز ـ حق كل دول المنظمة فى العيش بسلام (١٥).

أما مخطط ريغن فرغم انه لم يكن مدرجاً بشكل رسمى فى جدول اعمال المؤتمر الا انه فيما يبدو كان هو المحور الأساسى للمؤتمر حتى لكأن المؤتمر انما انعقد لاضفاء نوع من الشرعية العربية على المخطط الأمريكى يقول السيد بن يحمد: (سارع العرب للتباحث حول مشروع ريغن مع ان صاحب المشروع طرد الفلسطينيين من بيروت ولا يقبل الحديث عن المنظمة الفلسطينية والدولة الفلسطينية. ان العرب يتعلقون بأى خيط) (١٦). ولقد سبق المؤتمر اتصالات امريكية مكثفة بالانظمة العربية لاطلاعها على مخطط ريغن بما فى ذلك النظام السورى ومنظمة التحرير عن طريق مجموعة من الوسائط منهم فيليب حبيب والوزير الاول التونسى، وقام مساعد كاتب الدولة لشؤون الشرق الأوسط نيكولا فليوت بزيارة سرية الى الأردن للحصول على موافقة الملك حسين على مخطط ريغن.

ولقد جاءت زيارته وهو الصديق الشخصى لحسين فى الوقت الذى كان الفدائيون يغادرون بيروت(١٧)ومن ثم لم يكن اعلان امريكا لمخططها عشية اجتماع قمة فاس مفاجئاً للمؤتمرين. وينطلق مخطط ريغن من (اتفاقات المخيم) التى تنص على حق الفلسطينيين فى الحكم الذاتى فى الضفة الغربية وغزة عدا القدس التى ارجىء وضعها للتفاوض. ويتطور هذا الحكم الذاتى خلال خمس سنوات الى اتحاد كنفدرالى مع الأردن.

ولقد اعتبر كثير من المشاركين فى مؤتمر فاس مشروع ريغن خطوة ايجابية بل ذهب البعض مثل الحسن الثانى الى حد التنوية به قائلاً: (انه لأول مرة يضع رئيس امريكانى ثقله فى الميزان ليطالب بعودة الضفة الغربية وغزة والقدس فهل ينبغى تشجيعه ام لا؟ أليس من اللائق ان نشكره على ذلك قائلين له هذا حسن ولكنه غير كاف). واضاف (امير المؤمنين)!: (لنجرب مدة ستة أشهر قبول هذا المشروع، اننى أخشى انه اذا فاتتنا هذه الفرصة فلن تعود

(١٥) نفس المصدر
(١٦) «جون افريك» ١٥/٩/١٩٨٢.
(١٧) نفس المصدر.

ابـدا. . ان كل الحـاضرين هنـا هـم متفقون على اعطاء اهمية خاصة لاقتراحات الرئيس ريغن). فاعـترض الاسد بأن ذلك لم يحصل وان له تحفظات على المشروع كله، فتعالت الضجة داخل القاعة وما عاد يسمع غير أصوات الاحتجاج والسخرية: (لنبحث عن حل، لنبحث عن حل) فى شكل استنكارى ساخر اى انه لا حل غير هذا. اما محمد مزالى فقد اعتبر ان مقترحات ريغن تحول فى الموقف الامريكى(١٨) مما يؤكد ان موضوع المؤتمر لم يكمن فى الحقيقة مشروع فهد وبورقيبة، وانما مشروع ريغن على وجه التدقيق.

وانتهى مؤتمر فاس يوم ٩ سبتمبر بإقرار مشروع فهد مع إضافة بسيطة تتعلق بالتأكيد على الشرعية الدولية (جوهر المشروع البورقيبى) وعلى التأكيد على دور منظمة التحرير باعتبارها ممثلا شرعيا ووحيدا للشعب الفلسطينى وضمان حق كل دول المنطقة فى العيش فى سلام بما فى ذلك الدولة الصهيونية.

٣ ـ نتائج مؤتمر فاس : عرض وتقويم وتحليل :

احيطت مقـررات فاس بدعـاية عربية وعـالمية مكثفة. فاعتبرت انتصاراً رائعاً للارادة العربية وخروجاً بالسياسة العربية من المرحلة العاطفية والمثالية الى مرحلة العقل والواقعية والرشد، كما اعتبرته الحكومات الغربية والشرقية موقفاً ايجابياً وعلامة تطور ايجابى فى الموقف العربى عدا ليبيا وايران واسرائيل التى هاجمت مقررات المؤتمر بسبب انطلاقها من مواقف جذرية من القضية لا تقبل المساومة.

وقبـل ان نورد عرضـاً لمختلف المـواقف بشىء من التفصيل نلقى بعض الأضواء على الـظروف التـاريخية لنشـأة الفكرة التى قام عليها المؤتمر وفى الحل السلمى للنزاع العربى الاسرائيلى والاعتراف المتبادل بين العرب واسرائيل متتبعين تطور هذه الفكرة حتى هذا الطور الذى غدت فيه موقفاً رسمياً للحكومات العربية.

معلوم ان مؤتمـر فاس انـطلق رسمياً من مشروعى فهـد وبـورقيبة. ومعلوم كذلك ان المشروعين كانا قد رفضا من طرف عامة الانظمة العربية. اما الاول الموسوم بمشروع بورقيبة فهو فى الحقيقة ليس بمشروع جديد وانما هو دعوة للرجوع الى القرار الأممى لسنة ١٩٤٧ القـاضى بتقسيم فلسـطين بين اصحـابها الشرعيين والمالك الجديد اغتصابا ودعوة المالك الشرعى الى الاعتراف للمغتصب بشرعية اغتصابه والتعايش معه فى سلام؟ ولقد أجمع حكام العـرب وقتها على رفض ذلك القرار المكرس للاغتصاب وذلك تحت ضغط الجماهير التى

(١٩) «شؤون عربية» ص ١٩٥.
(١٨) نفس المصدر.

ثارت ثورة عارمة ضده وانطلقت من كل اطراف العالم العربى الاسلامى الى فلسطين تطلب الشهادة وتطهير الارض المقدسة من الرجس اليهودى. ولم تجد الأنظمة بدا من ارسال جيوشها لمقاتلة العصابات الصهيونية. ولقد كاد الجنين اليهودى الصليبى ان يجهض تحت ضربات المقاتلين وضغط الجماهير لولا تآمر الحكام العرب وخياناتهم، فاستخدمت الجيوش الرسمية لضرب ومحاصرة المتطوعين وقمع التحركات الجماهيرية واستعملت على الجيوش قيادات خائنة وسلمت لها أسلحة زائفة مما أسقط ارض الميعاد لقمة سائغة فى ايدى العصابات اليهودية. ولم تجد الجماهير متنفساً لغضبها الا بالثورة على اولئك الخونة فقتل ملك الأردن عبد الله جد الملك حسين، وأطيح بالنظام السورى والعراقى والمصرى ونشأت أحزاب وأنظمة ترفض مشروع التقسيم وترفع لواء تحرير فلسطين. وفى نفس السنة التى انطلقت فيها اول رصاصة فلسطينية ضد الكيان الصهيونى من طرف ثلة من الفتيان مع ياسر عرفات انطلقت دعوة بورقيبة سنة ١٩٦٥ فى خطاب له بأريحا المحتلة اليوم يدعو فيه العرب الى الاعتراف باسرائيل عن طريق قبول القرار الأممى الذى كانوا قد رفضوه سنة ١٩٤٧ والقاضى بتكوين دولتين فى فلسطين عربية واسرائيلية، فتعالت اصوات الاحتجاج من كل مكان فى الوطن العربى وأجمع العرب حكومات وجماهير على رفض قرار التقسيم مرة أخرى. ولم يتردد بورقيبة امام الضجة التى قامت فى وجهه من الكشف والتصريح بأن ما دعا اليه هو محل اتفاق بينه وبين الزعماء العرب ومنهم عبد الناصر فكيف يتنكرون له بعد ذلك؟ وتحت ضغط الجماهير التى اشتد غضبها على هذه الدعوة اضطر اكثر من نظام فى المشرق ان يتبرأ من هذه الدعوة ويقطع علاقاته بالنظام التونسى. واحتلت وأحرقت سفارات لتونس من طرف الجماهير واستقر الرأى العام والرسمى على اعتبار تلك الدعوة خيانة واستسلاماً للعدو، فما الذى حدث بعد ذلك عبر هذه السبع عشرة سنة؟.

لقد فشلت الاحزاب والأنظمة الرافضة ان تقدم اى شىء للجماهير عدا الارهاب والفقر والهزائم المتكررة فسقطت كل الشعارات وسادت المرارة وخيبة الأمل، ومقابل ذلك اشتدت قبضة الاستعمار الجديد واستقطاب الأنظمة الى الشرق والغرب ونجحت اسرائيل الى حد بعيد فى توظيف الامكانات الغربية واستيعاب التجربة الغربية فى بناء مجتمع حديث تحكمه مؤسسات عصرية يتمتع فيها الاسرائيلى بقدر من الحرية والكرامة لا نظير له الا فى الغرب. وبقدر تزايد الارهاب والافلاس فى العالم العربى بقدر ما زاد اعتماده على الغرب وتحكم هذا الاخير فيه وانتشار نزعة واسعة من اليأس وخيبة الأمل، الى جانب مفعول الحرب النفسية فى تخدير الانسان العربى وقلب المفاهيم لديه بما يشبه عمليات غسل المخ بالاضافة الى فشل الفكر الثورى والأحزاب (الثورية) فى تفجير طاقات الجماهير اذ تركت الجماهير جانباً وتحالفت مع الانقلابيين العسكريين.

والاسلاميون انفسهم نتيجة ظروف داخلية وخارجية عنهم فشلوا فى تعبئة الجماهير تعبئة ثورية عقائدية واجتماعية من اجل بناء مجتمع اسلامى ديمقراطى وعادل. فلقد ظل الفكر الاسلامى رغم تطلعاته التجديدية مشبعاً بعناصر انحطاطية تمنعه من تفجير الطاقات

الثورية فى الاسلام وتحول بينه وبين استيعاب الواقع وتحليله والسيطرة عليه.

وعامل آخر هو الحرب: لقد واجه المجتمع اليهودى المستوعب لأحدث التقنيات الغربية والتجارب الديمقراطية مجتمعات عربية منحلة، غارقة فى الانحطاط، على رأسها حكام سذج او عملاء، فكانوا فريسة سهلة لأعدائهم. وخطر الهزائم العسكرية المتكررة يتجاوز الخسائر المادية من سلاح وارض وجنود الى ما هو اخطر اى اصابة المهزوم بالشلل الارادى وانحلال الشخصية الى حد انعدام ثقته فى قدرته على القيام بأى عمل واعجابه الشديد بخصمه.

كل أولئك عوامل تلقى اضواء على المسار التاريخى العربى الحديث الذى قاد الى مؤتمر فاس والى اجتماع الأنظمة على إقرار ما كانت قد رفضته منذ أقل من عشرين سنة. حتى غدت فكرة إزالة اسرائيل اليوم ليس لدى الحكام فحسب بل حتى لدى فئات واسعة من المثقفين العرب - خاصة - ضرباً من الاحلام والطوباوية.

لقد أعيد الاعتبار فى فاس لا لدعوة بورقيبة بل لبورقيبة ذاته، فأضفت عليه الدعاية العربية هالة من الحكمة المبكرة والعبقرية الفذة.

اما المشروع الثانى الذى انطلقت منه قمة فاس فهو مشروع فهد الذى كان قد قدمه منذ اقل من سنة (نوفمبر ١٩٨١) فى مؤتمر فاس ولكنه لم يستطع ان يحظى باجماع او بغالبية المؤتمرين. وكان الطرف الذى رفض المشرع بشدة هو «جبهة الرفض» او «الصمود والتصدى» وكانت يومئذ لا تزال قائمة وذات شيء من الفعالية والجماهيرية لما تمثله من دور الرفض للحلول الاستسلامية والمخططات الامكريكية. كانت تزايد على جبهة «المعتدلين» بقيادة امراء البترول ومن لف لفهم ممن هم دائرون فى الفلك الامريكى. فما الذى حدث ولما تنقض سنة على الاجتماع الاول بفاس حيث بلغ الخلاف أشده بين الرافضين والمعتدلين وانفضوا على غير قرار حتى يعود نفس الاشخاص تقريباً ليجتمعوا على ما كانوا قد رفضوه منذ تسعة اشهر؟ لقد دعاهم يومها الحسن الثانى وهم يحزمون حقائبهم الى «وقفة تأمل» نفسية يستعيد فيها الفكر العربى صفاءه واشعاعه قبل ان تصدر منه قرارات غير واقعية! (فهل هى دعوة الملك الحسن الثانى فى المرحلة الاولى من فاس الى التعقل ام هى دعوة بورقيبة فى افتتاح المرحلة الثانية الى تجنب العاطفة والمواقف المتطرفة)[٢٠] هى التى أدت الى هذا التحول خلال تسعة أشهر؟.

انه ليس هذا ولا ذاك وانما هى بيروت بل قل آلة الحرب الاسرائيلية هى التى حسمت المعركة - ولو الى حين - لصالح ما يسمى بجبهة الرفض او الموالين للاتحاد السوفيتى. لقد قلبت آلة الحرب الاسرائيلية ميزان القوى فى المنطقة كلها لفائدة المعسكر الامريكى فى العالم العربى ولم يكن هذا التحول فجائياً فلقد بدأ منذ أن تولت وحدات موشى دايان فى ١٩٦٧ تحطيم الجيش المصرى فى سيناء الذى كان يوصف بأنه أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط،

(٢٠) جريدة «بلادى» ١٣/٩/١٩٨٢.

موجهة بذلك ضربة قاسية الى التيار الاشتراكي والنفوذ الروسى الذى ظل منذ ذلك التاريخ ولأسباب اخرى يتزحزح على الصعيد العربى وعلى كل المستويات لفائدة النفوذ الامريكى وعملائه، ذلك النفوذ الآخذ فى الاتساع. ولقد عبر النفوذ الامريكى عن نفسه بعدة أشكال ومظاهر منها بروز المخططات الامريكية فى المنطقة لأول مرة سنة ١٩٦٨ (مشروع روجرز) ووضع العرب يومها على (السكة) التى قادت الى مخيم داوود والى مؤتمر فاس، حتى ان السادات كان كثيراً ما يردد ان تسعين بالمائة من اوراق قضية الشرق الأوسط هى بيد الامريكان. وكاد الاعتقاد يسود العالم العربى بصحة ما صرحت به الاوساط المصرية تعليقاً على مشروع ريغن «ان مفتاح كل تقدم يكمن فى عزم الولايات المتحدة على استعمال ما يكفى من الضغط على اسرائيل لحمل حكومة بيغن للتخلى عن التصلب الذى أظهرته تجاه مخطط الرئيس ريغن» (٢١).

وقد تعزز النفوذ الامريكى بثورة النفط التى حدثت فى السبعينات وتزايد الجشع الرأسمالى لافقار الانظمة الدائرة فى فلكه والتى تزايد ارتباطها المصيرى به سواء المالكة للنفط منها، تلك التى تدفقت فى قصورها أطنان من البترودولارات زادت من ضعفها وارتباطها بأمريكا من اجل حماية هذه الثروة من الانتفاضات الداخلية والتهديدات الخارجية. «ذلك أن القوة ليست بنت الغنى ولكنها بنت الاستقلال، ان الغنى ليس الا شراً اذا زاد من خطورة التبعية وهذه هى حالة دول البترول دون استثناء، وهذا ما يفسر مواقف المسؤولين العرب فى الشرق الاوسط. انه الغنى الذى لم يكن له من نتيجة عليهم الا الرعب. لقد غدوا محكومين بالرعب من ان يفقدوا دفعة واحدة ما هبط عليهم من ثروات دفعة واحدة من السماء او صعد من الارض. ولأنهم خائفون فليسوا بأقوياء، ولأنهم ليسوا أقوياء فهم خائفون. انها الدائرة اللعينة التى أغلقت حولهم»(٢٢).

والذى نمى مخاوفهم على هذه الثروة وبالتالى ضعفهم وبالتالى تهالكهم على الاستسلام لأمريكا اندلاع الثورة الايرانية وخاصة بعد نجاحها فى إفشال المخطط الامريكى للاجهاز عليها الذى نفذه صدام حسين بتمويل خليجى ثم نقل ايران الحرب داخل العراق مما أصاب بلاد الخليج والدائرة فى فلك الامريكان عامة بحالة من الهلع من الخمينى ومن كل تحرك اسلامى ودفعها بقوة الى احضان الامريكان الى الارتماء تحت اقدامهم وغدوا مستسلمين لطلبات امريكا وكلهم خشية من غضب ريغن - لا سمح الله.

ان الغربيين والافارقة غير العرب يظنون ان المسؤولين العرب انما يخافون اسرائيل، وليس ذلك صحيحاً أبداً، ان المسؤولين العرب ليسوا خائفين من اسرائيل لانهم يعلمون انهم لا يمثلون مشكلة لشارون وبيجن. ان اسرائيل تبحث عن الفلسطينيين وتطاردهم ولا شأن لها بالحكام العرب. وان اسرائيل التى تمثل فى المنطقة ذراع امريكا وأداتها ما كان لها ان تهدد مسؤولاً عربياً هو زبون لأمريكا او تحت حمايتها. ان المسئولين العرب ليس لهم ادنى خوف

(٢١) جريدة «الصباح» ١٩٨٢/٩/١٢.
(٢٢) افتتاحية بن يحمد فى «جون افريك» ١٩٨٢/٧/٢١.

الا من شخصين ـ انهم يخافون من الخميني كما كان اسلافهم يخشون عبدالناصر فى الستينات ولنفس السبب يخافون الخميني لانه مثل عبدالناصر يهدد انظمتهم من الداخل، وهم ايضاً يخافون ريغن من ان يسحب عنهم حمايته او يجد بديلا عنهم ولن يحرك الشعب ساكناً لحمايتهم(٢٣)

هذا شأن انظمة النفط. اما المحرومة منه فقد قادتها سياستها الانهائية المنبتة عن ثقافة الجماهير ومصالحها وارادتها الى الافلاس الاقتصادى وتكريس التبعية للغرب واتساع الفوارق الطبقية مما جعل تلك الانظمة على حافة البركان. فما لها بد من البحث عمن يحميها من الثورات الداخلية او التدخل الخارجي من طرف انظمة تنتمى الى معسكرات اخرى.

لقد حسم شارون المعركة ـ فى هذه المرحة ـ لصالح الامريكان ومواليهم فى المنطقة مطيحاً الى غير رجعة ـ فيما بعد ـ بجبهة الرفض، فما بقى منها من رافض الا رجل واحد هو خائف يترقب لا يدرى متى يأتى دوره ليطاح به من طرف الامريكان وعملائهم، ذلكم هو القذافى. لقد فضح شارون هشاشة الرافضين كلهم وان حقيقة رفضهم لا تتجاوز العنف اللفظى ومهاترات الشعارات فى الهجوم على الامبريالية. لقد اكتشفت الجماهير ان الرافضين كالقابلين عندما يتعلق الأمر بمواجهة اسرائيل. فماذا فعل السوريون؟ ألم يكونوا اسرع الى الاستجابة لدعوة شارون الى وقف اطلاق النار من طرف واحد؟.

امـا الفلسطينيون فقد ادركوا هذا التحول فى موازين القوى فى المنطقة لصالح امريكا واتباعها فاجتهدوا فى تمتين علاقاتهم مع جبهة «القاز» (يعنى النفط) رغم عضويتهم فى جبهة «الرفض». يقول هانى الحسن احد الزعامات الفلسطينية البارزة والمستشار السياسى لياسر عرفات منوهاً بمواقف المملكة الثابتة من القضية الفلسطينية: «لا يسع المنظمة الا ان تعلن عن تقديرها الخاص لدور الملك فهد بن عبدالعزيز وجهوده الشخصية التى يوليها لدعم القضية الفلسطينية». واوضح أن هناك تنسيقاً سياسياً بين المملكة ومنظمة التحرير لدعم حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره كما وصف العلاقات السعودية الفلسطينية بأنها علاقات اخوة وصداقة(٢٤).

اما ياسر عرفات فقد وصف نتائج قمة فأس بأنها ايجابية وهامة وفى مستوى التحدى وانها تمثل قفزة الى الامام فى العمل العربى بوجه عام وأضاف ـ وكأنه يبرر موقفه هذا ـ : «انا واقعى وادافع عن قضية(٢٥).

وعن مقترحات ريغن ذكر بسام الشكعة انه موافق على ما جاء فى تعليق السيد فاروق القدومى ـ رئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير ـ على مقترحات ريغن والذى لاحظ ان هذه المقترحات تتضمن عناصر جديدة تستحق الدرس. وذكر بسام الشكعة ان كلام القدومى يعكس وجهة نظر الشعب الفلسطينى(٢٦).

(٢٣) نفس المصدر.
(٢٤) جريدة «العمل» ١١/٩/١٩٨٢.
(٢٥) نفس الجريدة ٢/٩/١٩٨٢.
(٢٦) جريدة «الصباح» ٤/٩/١٩٨٢.

وهكذا تحولت امريكا من كونها طرفا فى النزاع الى كونها حكماً بل صديقاً للعرب يقدم لهم ـ حسب تعبير رئيس مؤتمر فاس ـ فرصة نادرة لاسترجاع ارضهم ينبغى الا يضيعوها. بينما كان اعتبار امريكا طرفاً معادياً فى الصراع يقتضى أن يصدر عن المؤتمر تنديد بها صارم وتهديد بضرب مصالحها وقطع العلاقات معها لحملها على كف اشتراكها فى حربنا. ولكن الواقع ان مقترحات ريغن كانت كما ذكرت جريدة لوموند (LE MONDE) أهم المواضيع التى ناقشتها قمة فاس وان مبادرته كانت تتصدر الى جانب مشروع فهد اعمال مؤتمر فاس كما اوضحت الصحيفة السعودية «المسائية» (٢٧) وهكذا لم يتمخض مؤتمر فاس عن شىء سوى انه أقر ميزان قوى جديدا فى العالم العربى.

أما ياسر عرفات فقد بدا واضحاً انضمامه الى معسكر المعتدلين. واذا كان هؤلاء المعتدلون قد راهنوا على الحل السياسى بدل الحل العسكرى وكان الحل السياسى مرتبطاً بأمريكا وقدرتها على فرض وفاق على اسرائيل، فقد ظهر واضحاً مدى التحول فى ميزان القوى الذى أسفرت عنه قصة فاس واتجاه منظمة التحرير الى مزيد من الاعتدال ومراهنتها على الحل السياسى أى على إقناع الامريكان وحلفائهم الغربيين بعدالة قضيتهم وبضرورة تدخلهم للضغط على إسرائيل وإقناعها بجدوى مقايضة السلم بالارض. والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: إلى أى مدى يمكن الرهان على إمكانية الفصل بين المصالح الامريكية والاسرائيلية والى أى مدى تقدر امريكا فى صورة اقتناعها أن تفرض على اسرائيل ما لا تريده هذه الاخيرة؟.

وبعبارة إخرى الى أى مدى يمكن للعمل السياسى وحده أن يحقق أهداف حركة ثورية كحركة التحرير الفلسطينى والعربى عامة فى استرجاع الوطن السليب أو حتى جزء منه بعد ان سلّمت الانظمة العربية بشكل رسمى بما فيها منظمة التحرير بحق كل دول المنطقة بالعيش فى سلام الامر الذي يعد اعترافاً واضحاً بإسرائيل، وهو اعتراف من طرف واحد لأن اسرائيل ترفض رفضاً قطعياً مفهوم الدولة الفلسطينية؟.

الأمريكان والقضية الفلسطينية :

ان الذين يعرفون تشابك العلاقات الامريكية الاسرائيلية وما تمثله اسرائيل فى المنطقة من حارس امين للمصالح الامريكية ضد كل احتمالات التحول المضاد للمصالح الغربية عامة فضلاً عن الخلفية الحضارية المشتركة (الحضارة اليهودية المسيحية) التى تجعل من اسرائيل امتداداً كاملاً للغرب فى قلب العالم العربى الاسلامى مهمته إجهاض كل محاولة لبعث حضارى فى المنطقة بالاضافة الى ما يمثله الاخطبوط اليهودى فى امريكا خاصة والغرب عامة من ثقل اقتصادى وثقافى وسياسى واعلامى ذى تأثير فعال فى القرار الامريكى والغربى مما لا يمكن لأى حكومة امريكية الا أن تقرأ له حساباً واى حساب ان من يدرك ذلك لا يمكن

(٢٧) نقلا عن جريدة «لوموند» وجريدة «المسائية» عن طريق جريدة «الطريق الجديد» ١٩٨٢/٩/١١.

له ان يصدق - فى الأجل القريب والمتوسط على الأقل - احتمال تصادم جذرى بين الاستراتيجيتين الامريكية والاسرائيلية فى المنطقة العربية والاسلامية عامة.

كتب محرر مجلة «المستقبل» الصادرة فى باريس معلقاً على آفاق السلام فى الشرق الأوسط فقال: لقد أسقط شارون القنبلة الأولى هذه المرة على واشنطون وليس على بيروت، اسقطها على واشنطون التى أصر على وصفها بأنها شريكة اسرائيل وليست حاميتها وأساس بقائها وهى المستفيدة الاولى من غزو لبنان وليست المحرجة امام اصدقائها العرب من جراء هذا الغزو والمهددة لمصالحها اذا لم تسارع لاحتواء المضاعفات السلبية عليها بايجاد حل سريع وعادل للمسألة الفلسطينية. ويقول شامير: «ان الولايات المتحدة واسرائيل تتقاسمان الهدف حتى وان اختلفتا فى طريقة تحقيقه»(٢٨). وقد صرح وزير الدفاع الامريكى كأنه يعتذر لامريكا عن المجزرة الشنيعة التى قام بها الحلف الاسرائيلى الصليبى فى المخيمات الفلسطينية ببيروت رغم الضمانات الكتابية التى قدمها الامريكان لمنظمة التحرير بحماية المدنيين من كل عدوان بعد رحيل الفدائيين، صرح بأن بلاده لا تستطيع السيطرة على اسرائيل وان اسرائيل هى التى تمثل مصالحها فى المنطقة(٢٩) فضلاً عن ذلك فان بلداً كأمريكا ممتلئاً شعوراً بالقوة والتفوق على جميع المستويات حتى على فرض إلغاء كل الاعتبارات السابقة كيف يمكن ان يحترم أنظمة ممزقة خاوية فاقدة للارادة السياسة والحضارية مثل الأنظمة العربية التى هى أنظمة عائلية وعشائرية متخلفة مقابل نظام اسرائيلى يمثل القيم الغربية ويجسدها بتفوق على جميع المستويات مما يؤهله للقيام بدور الشريك الجديد بالثقة. ولو قارنا مثلاً بين الكفاية العالية والارادة السياسية والادارية الحازمة التى تدير بها اسرائيل آلة الحرب الامريكية والاستهتار واللامبالاة بل الخيانة والميوعة التى يدير بها السوريون مثلاً آلة الحرب السوفياتية لأدركنا سبباً من الاسباب التى تجعل اسرائيل موضع اعجاب فى غرب تأسست فلسفته على السيطرة والقوة والنظام. وعلى سبيل المثال فان اسرائيل هى البلد الوحيد الذى يتلقى طلبات عسكرية من وزارة الدفاع الأمريكية(٣٠) وهذا التشابك فى العلاقات الامريكية الاسرائيلية يجعل الظن بأن فى امكان امريكا وخاصة فى عهد ريغن ان تفرض اى شىء على اسرائيل وتضطرها الى تنازلات هو ظن خادع. فالثابت ان المعونة الامريكية العسكرية لاسرائيل تتضاعف عقب كل حرب تشنها اسرائيل. قبل حرب ٦٧ كانت هذه المعونة ٢٠٠ مليون دولار تضاعفت مرتين بعد الحرب، وقد بلغت بعد حرب ٦٧ مليارى دولار لدرجة ان المساعدة العسكرية لاسرائيل والدين الخارجى بلغا (٢٤ مليارا من الدولارات وهو يعادل الدخل القومى لاسرائيل). وانفتاح اسرائيل على الضفة الغربية واليوم على لبنان لتصريف

(٢٨) جريدة «لوموند» نقلا عن «الصباح» ١٩٨٢/٨/٢٦.

(٢٩) نقلا عن نشرة الاخبار بالتلفزيون التونسى الساعة الثامنة من مساء يوم ١٩٨٢/٩/٢١.

(٣٠) مجلة «جون افريك» ١٩٨٢/٩/١٥.

بضعـائها هى الأعمدة الرئيسية للاقتصاد الاسرائيلي الذى تعد مشاكله جزءا من مشاكل الاقتصاد الامريكى مما جعل خبيراً اقتصادياً اسرائيلياً يقول: «ان اسرائيل ليست لها مشاكل اقتصادية وانما الولايات المتحدة هى التى لها مشاكل». (٣١) وذلك على اعتبار امريكا شريكاً لاسرائيل فى حربها وفى المصالح المترتبة على تلك الحرب والحارس الامين للمصالح الغربية عامة فى المنطقة. من هذا المنطلق نفهم تدخل امريكا فى لبنان وتخطيطها مع اسرائيل. وقد اعترف شارون بذلك. فقال: «ان غزو لبنان كان موضوع نقاش فى شهر سبتمبر الماضى «١٩٨١» مع وزير الخارجية الأمريكى وناقشه مع واينبرغر فى نوفمبر من نفس السنة وناقشه مع حبيب، ولكن الامريكان يذكرون ان الاسرائيليين خدعوهم اذ كانت المنطقة التى وافق الامريكان على احتلالها من لبنان تتناول الشريط الحدودى ولا تتجاوز ٤٠ كيلومتراً بل كانت عدة بلدان عربية على علم بذلك وسكتت على امل القضاء على الفدائيين فى قواعدهم القوية فى الجنوب اللبنانى. ولكن بيغن خدع الامريكان فتجاوز ذلك الى احتلال ثلثى لبنان بما فى ذلك عاصمته. فغزو لبنان او جزء منه ـ على الأقل ـ خطة مشتركة بين الامريكان وشركائهم الاسرائيليين وعمـلائهم العرب وذلك من أجل تدمير منظمة التحرير وتحويل مسارها من منظمة تمثل طليعة التحرر فى العالم العربى الى جعلها جزءا من الواقع السياسى العربى الخانع للأمريكان. وحتى لا يصاب الفلسطينيون بمرارة الخيبة، فيندفعون الى الانتقام من الأنظمة العربية وتهديد المصالح الغربية كان لا بد ان تتبع عملية تدمير وجودهم العسكرى فى بيروت على يد اليهود بعد ان دمر ذلك الوجود مرات على يد العرب قبل ذلك، كما اصبح يمثل تهديداً حقيقياً لاسرائيل وبالتالى للأنظمة العربية ممثلة المصالح الرأسمالية فى منطقتنا، كان لا بد ان يتلو ذلك تسوية سياسية تنزع من المقاتل سلاحه كما تنتزع من الاسد مخالبه وقواطعه ليتحول الى حيوان أليف ويقر فى خلده بأن ذلك انتصار وحكمة وسياسة عظيمة. من هنا ينطلق مشروع ريغن لتسوية القضية الفلسطينية. ولتغطية بصمات التآمر وروائح الخيانة فى المشروع كان مؤتمر فاس من اجل تعريب المشروع الامريكى وطبعه طبعة عربية.

ورغم المسافة بين مشروع ريغن الذى ينفى فكرة الدولة الفلسطينية ومقررات فاس التى تؤكـد عليها، فان الانظمة العربية ومنظمة التحرير قد اعتبرت المشروع الامريكى خطوة إيجابية وتحولاً فى السياسة الأمريكية. قد راهن جميعهم على الحل السياسى أى على اعتراف الامريكان بمنظمة التحرير والضغط على اسرائيل. ومعلوم ان الامريكان يشترطون اعتراف منظمة التحرير باسرائيل. ولم يعد هذا الشرط بعد فاس عقبة تذكر وانما العقبة هى اعتراف الامريكان واسرائيل بالمنظمة والدولة الفلسطينية. ولئن كان الموقف الاسرائيلى حاسماً فى نفى اى امكـانية لهذا الاعـتراف فان الامـريكان فيما يبدو مراهنون على تطور رأى عام داخل اسرائيل موال للحل السلمى كاره للحرب مستعد لاعادة جزء من الارض مقابل السلام مع توفـير ضمانـات لان لا تتحول تلك الارض الى قلعة للهجوم على اسرائيل. والامريكان مستعـدون ان يقـدموا ذلك الضمان للاسرائيليين ممثلين فى حزب العمل وفى مجموعة من

(٣١) نفس المصدر ص ٢٦.

الجمعيات أو التنظيمات داخل اسرائيل مراهنة على الحل السلمى. وقد تكفل ريغن قبل الاعلان عن مشروعه بإقناع القطاع الأوسع من المنظمات اليهودية فى امريكا. وأستغلت من أجل ذلك زيارة بيريز نفسه لأمريكا، كما تكفل بإقناع أهم الاطراف العربية. فقد أعلن الملك حسين وهو المعنى الاول بالحل الامريكانى اثر لقائه بمساعد وزير الخارجية الامريكى انه «يؤيد ايجاد كونفدرالية بين الاردن وفلسطين وقال اننا كيانان منفصلان مرتبطان مع بعضنا». وذكرت وكالة الانباء الفرنسية «ان الملك حسين اعرب عن اعتقاده بأن الاعتراف باسرائيل اذا استتب السلام سيصبح امراً لا مفر منه وان اقامة علاقات ديبلوماسية مع اسرائيل اذا استتب السلام سيصبح امراً لا مفر منه ايضاً»(٣٢).

ولقد مهدت الاتصالات المباشرة وغير المباشرة ثم زيارة وفد من الكونجرس مقر ياسر عرفات وموافقة هذا الأخير على كل ما صدر عن الامم المتحدة من قرارات في شأن القضية الفلسطينية التى تتضمن اعترافاً واضحاً باسرائيل واعترافاً ضمنياً او صريحاً بالفلسطينيين كلاجئين او بحقهم فى اقامة دولة ذات سيادة مثل القرار ١٨١ و٢٤٢ و٣٢٣٦، فهل يعنى ذلك ان المناخ قد تهيأ لوضع حد لصراع مضى عليه اكثر من خمسين سنة بين العرب واليهود؟ ذلك فيما يبدو النتيجة الطبيعية لكل المجازر والتضحيات والمؤتمرات والمخططات العربية والغربية!؟

مصير القضية الفلسطينية :

يقول الاخ احمد بن بلة «... ولو ان الفلسطينيين انتهوا تحت الضغط للاقرار بأى حل فان العرب لن يقبلوا طويلاً الدولة اليهودية». ويمكن تعليل ذلك بما يلى:

١ - بتشريح الطبعية الصهيونية التى تنطلق استراتيجيتها من السيطرة الاقتصادية والثقافية والسياسية على المنطقة كلها بحيث حتى ولو اعترف العرب اليوم بدولة يهودية ضمن حدود معينة فان الطبيعة الصهيونية لن تعتبر ذلك سوى مرحلة وفرصة لمزيد من التأهب للانقضاض واحكام السيطرة على مناطق اخرى. ان الخريطة الرسمية «لاسرائيل»، تلك التى تتربى عليها الاجيال اليهودية والتى تتصدر المؤسسات الرسمية كالكنيست، هى تلك التى حددتها مصادرهم الدينية وانطلقت منها الحركة الصهيونية فى القرن التاسع عشر (أرضك يا اسرائيل من النيل الى الفرات). بل ان أحلام الصهاينة وهوسهم القومى والدينى يتجاوز ذلك الى الطموح الى اخضاع العالم كله تحت سيطرتهم المباشرة أو غير المباشرة. وليست بروتوكولات

(٣٢) جريدة «العمل» ١٥/٩/١٩٨٢.

حكماء صهيون سوى وثيقة من الوثائق الكاشفة عن تلك المعلومات(٣٣).

٢ - ان الصراع بين العرب والاسرائيليين ليس ظاهرة حديثة فهو من اقدم الظواهر التى صاحبت تاريخ هذه الأمة منذ نشأتها وانطلاقتها الحضارية مع ظهور الاسلام. من يومها بدأ التآمر الصليبى اليهودى على هذه الامة فى محاولات متكررة لطمس اشعاعها الحضارى الانسانى ان ينطلق مكتسحاً ما يرزح تحته العالم من مظالم وظلمات. وهو صراع لئن كانت مظاهره متعددة فان جوهره قيمى بين نموذجين للانسان وللعلاقات الانسانية، النموذج الغربى (المسيحى اليهودى) الذى يقوم على السيطرة العنصرية والاستغلال والمكايافيلية (اللاأخلاق) والنموذج الاسلامى الذى يقوم على التوحيد: توحيد الله فى العبادة واعتبار البشر كلهم عائلة واحدة لا تتفاضل الا بالفكر والعمل، حيث يخضع السلوك البشرى كله الفردى والاجتماعى لقيم انسانية ثابتة ولعدالة الله المطلقة. وليس التواطؤ الامريكى الغربى عامة مع الاسرائيليين والكتائبيين بالأمس القريب بالهجوم الشرس على مخيمات الفلسطينيين العزل وتصفية آلاف الابرياء، رغم التعهدات الامريكية الاسرائيلية الا سلوكاً واحداً يعبر بوضوح عن الطبيعة اللاانسانية اللاأخلاقية لحضارة الغرب. ولقد تكرر هذا السلوك منهم معنا ومع الشعوب المستضعفة آلاف المرات. فلئن كان فى الغرب وفى اسرائيل ديمقراطية ولانسانها حقوق وقضاء مستقل وحريات، فان كل ذلك لا يخرج من الاطار القومى ولا يتجاوزه ليشمل الانسان، كل انسان، بغض النظر عن جنسه ولونه ومعتقداته. وليس هناك اى امل - طالما كان الغرب كذلك -ان تضع الحرب بيننا وبينه أوزارها. وواضح ان الغرب المعنى يتجاوز المفهوم السياسى المتداول لينصب على التصورات والقيم والمسالك التى قدمنا، فحيثما وجدت فثم الغرب(٣٤).

٣ - ان التعويل على الرأى العام العالمى فى استرجاع فلسطين او جزء منها - رغم اهمية كسب الرأى العام فى معركتنا الحضارية مع الغرب - هو ضرب من الخداع تمارسه الانظمة العميلة للغرب تخدر به الشعوب، وسراب خلب تهدر الطاقات فى اللهاث وراءه. أليس هذا الغرب الذى نريد كسبه لقضيتنا ضد اسرائيل هو نفسه الذي أوجد اسرائيل لحراسة مصالحه والحيلولة دون شعوبنا وانطلاق ثورتها الحضارية؟ اليس هذا الغرب نفسه هو الذى توج مذابح بيغين بتسليمه جائزة نوبل للسلام؟ هل يمكن ان يذهب بنا الخيال فى تصور تخلى الغرب عن اسرائيل حداً يتجاوز قطع الغرب علاقاته الديبلوماسية مع اسرائيل، او على

(٣٣) «بروتوكولات حكماء صهيون» هو اسم الوثيقة الخطيرة التى صدرت عن المؤتمر الصهيونى الذى جمع كبار علماء المنظمات الصهيونية ومفكريها ورؤسائها فى مدينة بال بسويسرا بسنة ١٨٩٦. ولقد حددت هذه الوثيقة مخططا صهيونيا للسيطرة على العالم من طرف الصهاينة لهدف بعيد وحددت هدفا مرحليا لتكوين دولة صهيونية فى فلسطين خلال خمسين سنة. واجتهد الصهاينة فى إنكار هذه الوثيقة الخطيرة ومصادرتها من الاسواق كلما نشرت او الاعتداء على ناشريها. وقد ترجم هذه الوثيقة الخطيرة الى العربية ونشرها الاستاذ محمد خليفة التونسى وقدم لها الاستاذ عباس محمود العقاد وقد أعاد نشرها بتونس الاستاذ عبد الفتاح مورو.

(٣٤) يمكن الرجوع الى كتيب «ماهو الغرب؟» نشر مجلة المعرفة وللمقالات الثلاث التى نشرت بها تحت عنوان «نحن والغرب من جديد».

فرض حصـول ذلك، فهل هو كاف لنستعيد القدس؟ أليس النظام العنصرى فى جنوب افريقيا نظاماً قوياً رغم ان معظم دول العالم لا تقيم معه علاقات ديبلوماسية وأن لا مكان له فى الأمم المتحدة؟ هل ضره ذلك شيئاً؟ ان حصر المعركة فى استرجاع فلسطين على العمل السياسى وحصر العمل السياسى فى اقناع الغرب والأمريكان خاصة هو تعبير آخر عن قدرة عجيبة تفوقت فيها الانظمة العربية، هى لعبة قلب الحقائق واخراج هزائمنا مخرج البطولات.

ان معـظم الفلسـطينيين وان قبلوا وهـم تحت انقـاض بيروت تصلاهم نار حامية من الـراجمـات الاسرائيلية الامـريكية وخيانـات الانـظمة العربية وسلبية الشعوب قبلوا احد الأمرين: الموت او الاستسلام لمخططات الامريكان وهم العدو الرئيسى لامتنا والاستسلام للأنظمة العربية فاختاروا ـ ولو الى حين ـ الثانى فكثفوا نشاطهم السياسى لتوظيف الهزيمة العسكرية فى الحصول على انتصار سياسى وبذا يبدو وكأنهم قد راهنوا على الحل السياسى فهل ان ذلك من قبيل الحلول الظرفية (تكتيك) ام هو تعبير عن تحول استراتيجى فى خط المنـظمـة؟ ان ميثـاق منظمة التحرير قد حدد للثورة الفلسطينية مهمة واضحة هى تحرير فلسطين. وهو هدف كثيراً ما استغلته الدعاية الصهيونية ضد الثورة الفلسطينية مما جعل قادتهـا محرجـين تجاه اصـدقـائهم الغـربيين الذين يضغطون عليهم فى اتجاه تغييره، فهل الفسطينيون بصدد عمل ظرفى ام هم بصدد التحول من الهدف الذى حدده ميثاق منظمتهم؟.

ان الاعتبارات التى قدمناها حول طبيعة الصهيونية وطبيعة العرب المتحالف معها كفيلة بحـد ذاتهـا ان ترد الفسطينيين الى الجادة ان هـم خدعوا ـ فى هذه المرحلة ـ او اضطرتهم الظروف الى الاستسلام لاعدائهم.

ان منظمة التحرير تجد نفسها اليوم على مفترق طريقين. طريق الاختيار السياسى وهو ما تدفعهـا اليه بقوة آلة الحرب الجهنمية الامريكية التى تباركها الأنظمة العربية الخائنة، وطريق الاختيار العسكرى وهو ما تجتهد كل الظروف المحيطة بالمنظمة لزحزحتها عنه. فلقد كان الفلسطينيون يحتملون على مضض كلاجئين فى البلاد العربية. أما وقد حملوا السلاح لاثبات وجودهم واستعادة ثقتهم فى نفسهم وقدراتهم على قهر عدوهم واسترجاع وطنهم رغم انف العالم فقد باتوا لا يطاقون وتداولت الأنظمة على كسر شوكتهم واستئصالهم استئصالاً، وتعاون على ذلك الرجعيون والتقدميون وحلفاء الروس والامريكان. وهل من كبير فرق بين ما فعله حسين فى سنة ١٩٧٠ وما فعله أخوه الأسد فى تل الزعتر ١٩٧٦ وبين ما فعله شقيقهما شارون فى بيروت سنة ١٩٨٢.

لقد وقفت الأنظمة العربية موقفاً واحداً تبذل قصارى الجهد من اجل انتزاع السلاح من أيدى الفلسطينيين يحمون بذلك اسرائيل ووجودهم المنبت عن شعوبهم والمعلق بإرادة ريغن. والمتتبع لتاريخ المنظمة يجد ان مشكلة التعامل مع الانظمة العربية كانت مطروحة على قادتها وقواعدها منذ تاريخها المبكر. هل يبدأون عملهم التحريرى لوطنهم بمواجهة الانظمة العربية المحيطة باسرائيل على الأقـل لانها تعـوق إنـطلاق عملياتهم متـذرعـة بالخوف من إنتقام

اسرائيل. ومعلوم ان استراتيجية حرب العصابات تقتضى توفر ارض آمنة للانطلاق. وتلك كانت استراتيجية بعض فصائل الثورة الفلسطينية التى اعتبرت ان الطريق الى فلسطين يمر حتماً بتصفية الانظمة الرجعية فى المنطقة العربية. ام ان الحل يتمثل فى الاستفادة الى أقصى حد من التناقضات العربية لفائدة القضية بممارسة أسلوب المداراة مع كل الانظمة والتوجه مباشرة الى القضية الأم؟ تلك كانت استراتيجية حركة فتح أهم الفصائل المكونة لمنظمة التحرير(٣٥). ولقد تمكنت هذه الاستراتيجية من ان تفرض نفسها على المنظمة كلها بكل فصائلها. ولقد حققت المنظمة فى ظل هذه الاستراتيجية الأخيرة كثيراً من المكاسب فاستفادت من الاموال العربية وتمكنت من لم شتات الفلسطينيين المشردين فى البلاد العربية وتحريك المشاعر الوطنية فيهم وتوظيف علاقاتها بتلك الانظمة فى توسيع نفوذها فى العالم، غاضة الطرف عن الممارسات القهرية لتلك الأنظمة. وشبت المنظمة ـ فى استراتيجية المداراة ـ على الطوق وأخرجت القضية الفلسطينية الى حد بعيد من سلطة ونفوذ الانظمة وغدت المنظمة قوة سياسية وعسكرية تمثل ـ رغم سياسة المداراة ـ هاجساً مقضاً للمضاجع بالنسبة للأنظمة العربية اذ هى تخشى ان تجرها للصدام مع اسرائيل من ناحية وتخشى من ناحية اخرى على شعوبها المقهورة ان تتسرب اليها انفاس الثورة. غير ان مأساة بيروت يبدو انها ستضع حداً لسياسة المداراة تلك، والعمل المسلح فى ظل تلك السياسة. فقد ظلت عمليات المنظمة خلال السنوات الاخيرة تتقلص خاصة بعد ما وقعت مع اسرائيل وثيقة تعهدت فيها المنظمة بعدم القيام بعملياتها ضد اسرائيل انطلاقاً من الجنوب اللبنانى ـ تقلصت عملياتها العسكرية لحساب العمل او الحل السياسى. وكان مؤتمر فاس تسجيلاً لنهاية استراتيجية المداراة تلك، فلم يبق امام المنظمة اليوم الا الاتجاه فى طريق احد الخيارين.

١ ـ الخيار السياسى الامريكى الذى انطلق مع مشروع روجرز فى أواخر العهد الناصرى وانتهى فى احدى مراحله الى مخيم داوود ليصل الى فاس كمرحلة اساسية ن اجل تعميم إتفاقيات المخيم على البلاد العربية كلها حيث لا مجال الا لغصن زيتون ذابل. اما البندقية فقد صادرها شارون واخوانه من الحكام العرب.

٢ ـ الخيار العسكرى ولا سبيل له بعد بيروت الا بالعودة الى استراتيجية الجبهة الشعبية التى وقع التخلى عنها لفائدة استراتيجية التعايش مع الانظمة العربية وهى استراتيجية تقوم كما تقدم على اعتبار الطريق الى فلسطين يمر بالأنظمة العربية. فهل تقود الأحداث المنظمة الى العودة الى هذه الاستراتيجية التى تنطلق من ان القضية الفلسطينية جزء لا يتجزأ من القضية العربية ومن ثم فلا سبيل لحلها الا ضمن استراتيجية لتحرير البلاد والشعب العربى جملة؟ فهل يتجه الرهان الفلسطينى بدل الأنظمة العربية للانسان العربى والجماهير العربية والمسلمة عامة فتلتحم مع الحركات الشعبية والمنظمات الجماهيرية فى الوطن العربى والوطن

(٣٥) يقول ياسر عرفات فى تصريح له للتلفزيون اللبنانى عام ١٩٧٥ «والثورة الفلسطينية تعلم ان ميدان المعركة الحقيقى انما يوجد فى فلسطين وانها لن تستطيع الافادة من معركة هامشية تحولها عن هدفها الاصلى». نقلا عن مجلة «الاذاعة والتلفزة» التونسية العدد ٥٥٥

الاسلامى؟ ذلك ان قضية فلسطين ليست مجرد قضية سياسية بقدر ما هى قضية حضارية. قضية ضياع امة وفقدانها للارادة والرؤية والسلوك الحضارى. فتكون الثورة الفلسطينية ثورة تحرر حضارى شامل تعيد الوعى وتفجر طاقات النضال والعطاء لدى الجماهير وتعيد وسط المعركة ولهيبها سبك الجماهير لا لمواجهة الحكام العملاء ولا لمواجهة اسرائيل وحسب وانما لمواجهة الغرب عامة وامريكا بشكل خاص، مواجهة الامبريالية بكل ابعادها لبناء حضارة الانسان المتحرر. احسب ان المنظمة ستقودها الاحداث وبناؤها الديمقراطى المؤسساتى المتميز عن البنيات السياسية فى العالم العربى الى التخلى عاجلاً او آجلاً عن استراتيجية التعايش السلمى مع الأنظمة العربية، فرغم ما بدا من ايجابيات تلك الاستراتيجية فى تلك الفترات فقد قادت المنظمة فى النهاية الى طريق مسدود، الى حافة الهاوية، الى الارتماء فى احضان اعدائها الاستراتيجيين والتنازل عن البندقية والاستسلام - ولو الى حين - الى مخططات الاعداء وعملائهم فى المنطقة. والامر الذى أجد نفسى على يقين منه هو ان المنظمة اذا لم تقدم بشجاعة على تقييم مسارها والتخلى عن استراتيجية التعايش مع الانظمة فان الثورة الفلسطينية لن تفشل وتنتهى، وانما المنظمة هى التى ستتمزق من داخلها لتحل محلها منظمة او منظمات اخرى تصحح المسار وتأخذ بالثأر وتمسح العار. ولقد بدأت الخلافات فى الصف الفلسطينى تظهر فى بعض التصريحات الفلسطينية تلميحات مبشرة لهذا التحول. يقول جورج حبش الامين العام للجبهة الشعبية فى حديث مع الشبكة الامريكية للتلفزيون مؤكدا «استمرار العمل المسلح كأداة ضرورية لتحقيق اهداف المنظمة معللاً ذلك بأن حركات التحرر التى حققت اهدافها دون اللجوء الى النضال العسكرى لا تكاد تذكر»(٣٦). أما ياسر عرفات فقد علق على احداث بيروت كما يلى: «ان البركان قد بدأ فورانه بعد، ان قوميتنا لها الحق اليوم ان تسأل، وتطلب الحساب غداً، وتثأر بعد غد، واضاف ان رحيل الفلسطينيين عن بيروت وتوزيعهم فى مختلف البلاد العربية يعنى ببساطة ان المقاومة قد عادت الى قواعدها السابقة»(٣٧). وفى تصريحه للتلفزيون الايطالى وفى لقائه منذ ايام قليلة مع وحدة الفدائيين التى غادرت بيروت الى اليمن الجنوبى خطب حاثاً اياهم على مواصلة تدريباتهم ثم اكد قائلا: «ان البركان الذى تفجر فى بيروت لن يخمد ولكنه سيمتد على نطاق المنطقة العربية كلها وسينتهى الى القدس»(٣٨).

أما أبو أياد وهو الشخص الثانى فى منظمة التحرير فقد صرح لـ «الملجة» فى نفس الاتجاه: «اذا تواصل الضغط المسلط على الفلسطينيين وتواصل تجاهل حقوقهم فانى اخشى ان ظهور ايدى الانتقام التى تجعل العنف جواباً عن الاعتداء والنهب الذى تعرض له الشعب الفلسطينى»(٣٩).

(٣٦) نقلا عن جريدة «الصباح» ١٩٨٢/٩/١.
(٣٧) نفس المصدر.
(٣٨) نفس المصدر.
(٣٩) نفس المصدر.

أمـا خالد الحسن فقد تحدث عن العمل العسكرى بعد بيروت فقال: «اما من حيث النضـال العسكـرى الفلسـطينى بالداخل وتصعيده واستمرار عملنا الفدائى السرى فان القوات المسلحة العسكرية المكثفة لا يمكنها حماية فعلها العسكرى الا ضمن نضال عربى وموقف عربى تضامنى. واعتقد ان الوضع العربى المتردى يجب ان يدفع الى تصعيد المناخ النضالى للقضية الفلسطينية وهذا سيكون احدى ثمار المعركة الخالدة؟»(٤٠)

ولقد سألت «المجلة» احد المسؤولين السياسيين فى منظمة التحرير عما اكده احد الخبراء البريطانيين فى الشرق الاوسط من ان المقاومة لا يمكن لها بعد التخلى عن بيروت ان تشن حرب عصابات انطلاقاً من جبال لبنان الوعرة لصغر حجم المنطقة ولعدم وجود مناطق آمنة ينسحبون اليها أثناء تحركاتهم. ولكن ذلك يغدو ممكناً اذا تبدلت السياسة السورية، فوافق المسؤول الفلسطينى على هذا التحليل. ولقد اضاف الخبير البريطانى ان طرد الاسرائيليين للفلسطينيين من منازلهم سنة ١٩٤٨ و ١٩٧٦م وقصف مخيماتهم الجديرة بالشفقة فى مناسبات لا يحصى عددها، ان ذلك لم يجعل القومية الفلسطينية تختفى ولن يختفى الفلسطينيون مهما بلغت اعداد قتلاهم. ان هذه المذابح تشجع فقط على زيادة التجنيد فى صفوف منظمة التحرير(٤١).

صحيح ان شاورن حقق ما اراد من اخراج الفلسطينيين من قلعتهم بيروت وتشتيتهم مرة اخرى كما هو الشأن معهم كلما اجتمعوا تسلط عليهم من يفرقهم منذ ١٩٤٧. يقول شارون للصحيفة الايطالية (أوريانا): «أردت ان يخرج الفلسطينيون من بيروت وقد حصلت على ما أردت.. ربما يعتقد عرفات بانه حصل من ذلك على كسب سياسى الا ان المستقبل سيثبت له عكس ذلك، ان الهزيمة سياسية وليست عسكرية وحسب، نظراً لأن قوة رجال عرفات تكمن فى وجودهم مجتمعين فى مركز دولى، فكانت لهم دولة داخل الدولة ومن داخل لبنان تحركوا للعمل فى كل انحاء العالم، اما الآن فهم مشتتون فى ثمانى دول مختلفة من اليمن الى الجزائر»(٤٢). ولكن الذى لم يستطع شارون ان يدركه:

١ ـ ان قوة الجيوش النظامية تكمن فى تجمعها وتمركزها وليس الامر كذلك بالنسبة للوحدات المتبعة لأسلوب حرب العصابات، وكان تجمع الفلسطينيين خطأ استراتيجياً وقعت فيه منظمة التحرير حين اتجهت لأن يكون لها جيش نظامى متمركز فى لبنان متسلح بسلاح ثقيل، مما لا يصلح الا لدولة تتصرف فى ارضها.

٢ ـ ان الفلسطينيين جزء من امة وان الارض التى يناضلون من اجلها تقع فى سويداء قلب كل فرد منها، هى امة تكاد تكون لا متناهية فى عمقها وابعادها على نحو ان هزيمة او اكثر لا تذهب بها، بل ان الهزائم التى حاقت بها عبر مئات السنين لم تؤثر فى حيويتها ولم تفت من وجودها بل تحملتها واستخلصت منها دواءها وخططها المستقبلية فتحملت جراحها ونهضت

(٤٠) نفس المصدر.
(٤١) «المجلة» نقلا عن «الصباح» ١٩٨٢/٧/١٥
(٤٢) جريدة العمل ١٩٨٢/٩/١٢.

فقلبت كل حسابات خصومها وسوت كل الاوضاع التى قلبوها وانتقمت لكرامتها وطهرت أرضها من الغزاة. فكان للهزائم مفعول الصعق الكهربائى يوقظها، يعيد الوعى اليها، وانه سيكون كما يقول الاخ احمد بن بلة: «هناك دائماً مسلم ينهض لسحق الخونة»(٤٣). وان الالتحام المصيرى بين الحركة الاسلامية وقضية فلسطين والتحام الثورة الفلسطينية بالحركة هو الكفيل بتثوير المنطقة كلها وتحريرها من الهيمنة الامبريالية فى كل صورها وبناء النموذج الحضارى لانسانية متحررة.

(٤٣) نقلت مجلة «جون افريك» فى عددها ١١٣٢ ان ياسر عرفات عند زيارته لمخيم وادى الزرقاء خلال اقامته بتونس كان يناقش مع المقاتلين الوضع الفلسطينى الراهن وكان يسيطر على المقاتلين شعور الهزيمة مما يدفع المناقشات فى طريق الحدة الى حد استعمال العنف والتقاتل مما اضطر مسؤول الامن «ابا الطيب» الى حبس البعض فى غرف خاصة.

(٤٤) لقد اجتهد الاعلام العالمى الذى تديره الامبريالية الامريكية المتحالفة مع الصهيونية بما فى ذلك الاعلام العربى فى اضفاء هالة من الوطنية على عميل الصهيونية وجزار الفلسطينيين فى تل الزعتر البشير الجميل الذى نصب رئيسا للجمهورية تحت حراسة الدبابات الصهيونية وتلقى اول برقية تهنئة من بيجن تصفه بأنه وطنى عظيم حريص على السلام. وقد حرص الاعلام العالمى على رفع هذا الفاشى المجرم الى مصاف الشهداء الابطال الوطنيين بالالحاح المتواصل على ان قاتليه هم الاسرائيليون بدون أدنى دليل. مع ان وكالات الانباء اكدت حالة الوجوم بل الذهول العام الذى أصاب الاسرائيليين لما بلغهم خبر مقتله وسارع شارون الى حضور جنازته. ويندرج عمل الاعلام ذلك ضمن الحرب النفسية التى تشن على الجماهير العربية لامتصاص نقمتها واظهار اعدائها فى صورة الابطال وتبرئة ساحة المتواطئين من الحكام العرب مع الامبريالية للاجهاز على الثورة الفلسطينية وذلك بتقديم الدعم الكامل للكتائب وتنصيب عائلة الجميل الفاشية على رأس لبنان. وقد قامت السعودية بدور كبير فى دعم البشير الجميل بالمال الوفير وشراء ذمم النواب المسلمين من أجل انتخابه حتى اذا اغتاله الوطنيون تحول الى بطل.

دروس من الثورة الفلسطينية

مهما اختلفت الآراء حول الثورة الفلسطينية فان الاتفاق حاصل على اعتبارها ظاهرة سياسية تمخض عنها الصراع الاسرائيلى العربى استقطبت اهتمام الرأى العام العربى والدولى خلال السبعينات.

وحرى بحركة ثورية مثل حركتنا ان تتوقف طويلاً عند هذه الظاهرة وعند كل ظاهرة تغيير ثورى على الساحة العالمية قديماً وحديثاً لمتابعة مسارها وتحديد مواطن القوة والضعف والنجاح والفشل فى مسيرتها من أجل ترشيد المسار و اثراء التجربة والحد من حجم الاخطاء وتنمية الفعالية.

والعرض المتقدم - على اختصار - لنشأة الثورة الفلسطينية ممثلة فى منظمة التحرير يشد انظارنا الى مجموعة من خصائص هذه الثورة يمكن لكل اخ ان يتوقف عندها وعند غيرها مستخلصاً منها دروساً مفيدة لحركته.

١/ الطابع الجماهيرى للثورة الفلسطينية من حيث نجاحها فى استقطاب أوسع فئات وقطاعات الفلسطينيين وبلورة الشعور الوطنى الفلسطينى لديهم والتفافهم حول المنظمة كرمز لذلك الشعور ومفجر له، والأمل فى تحرير الوطن السليب وبناء الدولة الفلسطينية كهدف لحركة الجماهير - وما تكون الثورة جماهيرية حتى تشد اليها اهتمام الانسان العادى أى السواد الاعظم من الامة وتعبر عن آمالهم وآلامهم وطموحاتهم.

٢/ الطابع المؤسساتى: وليست جماهيرية الثورة الفلسطينية مقتصرة على مجرد المشاعر فالمشاعر، مشاعر الاعجاب والحماس والنقمة وغيرها، مهما كانت حدتها لا تتحول الى عمل ثورى الا بتأطير الجماهير وتنظيها ضمن المؤسسات الجماهيرية للمجتمع كالنقابات والجمعيات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية.. الخ. ولقد حققت الثورة الفلسطينية نجاحا باهرا فى تأطير الجماهير الفلسطينية ضمن اتحادات العمال والطلبة والمهندسين والاطباء والنساء والكتاب والصحافيين.. تعمل على ساحة المجتمع وتعمق روح الثورة فيه - وان ثورة لا تعتبر مؤسسات المجتمع خلايا للتربية الثورية لن تكون سوى مجموعة من ابواق الدعاية او عصابة مسلحة معزولة.

٣/ الطابع الشمولى: رغم ان المنظمة عرفت اول ما عرفت على صعيد الرأى العام بعملها العسكرى ضد اسرائيل فان ذلك لم يصرفها عن العمل السياسى بمعناه الشامل الثقافى والاجتماعى والاقتصادى والاعلامى، بل ان الذراع العسكرى - على أهميته - ليس هو فى اعتبارها الا أداة لخدمة العمل السياسى وحمايته ايماناً منها انه قلما تمكنت حركة ثورية من تحقيق اهدافها السياسية دون عمل عسكرى. ولكن العمل العسكرى دون عمل سياسى يعبىء الجماهير، ويستقطب الرأى العام المحلى والعالمى حولها لا يجعل من الحركة فى النهاية سوى منظمة ارهابية.

٤/ طابعها الجبهوى: فقد تمكنت من استقطاب كل فصائل الثورة على اختلاف فصائلها وايديولجوجياتها، تجمع الكل حول برنامج مشترك للعمل السياسى ضمن مؤسسات مركزية توحد الخطط العامة مع احتفاظ كل منظمة بشخصيتها وزعامتها وخصوصياتها، والعمل الجبهوى يمثل استراتيجية اساسية لمواجهة قوى الاستعمار فى اشكاله القديمة والمعاصرة وهى قوى تتجه الى مزيد من إحكام قبضتها حول الشعوب مما يعسر معه ان لم يكن مستحيلاً على كل حركة بمفردها - مهما كانت قوتها - ان تقدر على مواجهة تلك القوى، فضلاً عما فى الاعراض عن العمل الجبهوى من ضياع لكثير من طاقات المواجهة الشعبية فى نزاعات داخلية مما يضعف الجميع وتتحمل بذلك القوى الثورية مسؤولية عظمى فى استمرار الهيمنة الاستعمارية بسبب اعراضها عن العمل الجبهوى.

وعمل المنظمة هذا يندرج ضمن الجبهات التى قادت حركات التحرر على الصعيد العربى والعالمى مثل جبهة التحرير الجزائرية والجبهة الوطنية لتحرير السلفادور وغيرها وهى تجربة حرية بالدراسة من طرف الحركات السياسية فى بلادنا وخاصة الحركات الراديكالية المصممة على التغيير الجذرى وذلك من اجل مواجهة العدو الرئيسى لحركة تحرر الجماهير فى هذه المرحلة - اعنى القوى الامبريالية وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية وروسيا وعملائها المحليين.

٥/ طابعها الديمقراطى: والديمقراطية مقوم أساسى لاستمرار ونجاح كل تجمع بشرى حتى فى ابسط صوره كالأسرة. فاذا كان الأمر يتعلق بادارة مؤسسة كبرى كالحزب او الجبهة او الدولة زاد تأكداً والحاحاً بل ان الديمقراطية او الشورى لا تستمد قيمتها من مجرد الفوائد المتمخضة عن ممارستها كالنجاح والقوة والتضامن والامن، وانها تستمد قيمتها قبل ذلك من حيث هى مقوم اساسى لشخصية الانسان ولا معنى لانسانيته بدونها بغض النظر عن النتائج التى يمكن ان تؤدى اليها. ويبدو ان منظمة التحرير قد وفقت الى حد بعيد فى ممارسة الديمقراطية داخل هياكلها وذلك عامل اساسى فى تطور العلاقات بين فصائل المنظمة نحو مزيد من التقارب والتلاحم والتصدى لدواعى التمزق والانشقاق. وتبدو المنظمة فى هذا الصدد نموذجاً متميزاً فى الوطن العربى ان على صعيد الحكومات او المنظمات والاحزاب. . يقول النشاشيبى: « ان القيادة الفلسطينية رغم جراحها وظروفها قيادة ديمقراطية يستمع فيها الكبير للصغير ويتناقش فيها الرفقاء بكل صراحة». «عن الانوار التونسية ٦/٦/٨٢». وهى تجربة حرية بالدارسة والاعتبار.

٦/ قدرتها على استيعاب الواقع العربى والدولى ونجاحها فى توظيف التناقضات لصالح قضيتها. ومن ذلك تعدد ألوانها وواجهاتها، فهناك الى جانب الوجه الرسمى المعتدل الملائم للتعامل مع مختلف الأنظمة والاستفادة منها فى ألوان وأوجه اخرى تختلف فى وجهتها الأيديولوجية واستراتيجيتها العسكرية التى تتيح للمنظمة الاتصال بالجميع والقيام بعدة عمليات ومغامرات لا تجد المنظمة أى حرج فى التنكر لها والتبرؤ منها لدرجة ان الصحافة بدأت تخبر عن انقسام مرتب داخل المنظمة يجعلها تضم تيارين أحدهما معتدل بزعامة ابى عمار والآخر متشدد يغذيه أبو أياد، وان الثورة قد أقرت هذا الانقسام «عن الصباح

٩/١٠/٨٢». وفى ذلك حكمة بالغة ومرونة كبيرة فى التعامل مع الواقع المعقد وهى خاصية قد برع فيها اليهود.

٧/ إعتمادها فى إدارة مؤسساتها على كفاءات علمية متخصصة ومتشبعة بالروح الثورية.

٨/ إهتمامها بالعمق العربى والدولى رغم طابعها الوطنى فتمكنت من إنشاء شبكة واسعة من علاقات الصداقة او التحالف مع احزاب ومنظمات ودول عديدة للتعريف بقضيتها والاستفادة من تجربتها وطاقاتها.

٩/ تبوء المرأة مكانة متميزة فى تصور المنظمة ومناهج عملها مما يطمئن على مستقبل الثورة، ذلك ان المكانة التى تحتلها المرأة فى حركة ما تحدد الى مدى بعيد مستقبل تلك الحركة وجماهيريتها، اذ كلما تقلص دورها كلما تقلص دور الجماهير واستقر الاستبداد. يقول (فورييه) تتم التطورات الاجتماعية وتبدلات الزمن وفقاً لتقدم النساء نحو الحرية.. ان اتساع امتيازات النساء يشكل الاساس العام لجميع التطورات الاجتماعية. اما (براسيل) فكان يرى فى النساء ليس فقط خميرة اى تقدم انسانى بل القوة التى تفجر تحديدات المبدأ الديمقراطى(٤٥). بل ان الاسلام يذهب الى أبعد من ذلك اذ يربط صلاح المجتمعات بالدور النضالى لكل افراده فى ازهاق الظلم واحقاق الحق عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بكل الوسائل المتاحة ويجعل دور النساء فى ذلك لا ينفصل عن دور الرجال، فهن شقائق الرجال(٤٦) ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحهم الله ان الله عزيز حكيم﴾ (٤٧).

سلبيات :

رغم هذه الايجابيات الكثيرة فان المنظمة لم تتخلص من كثير من السلبيات.

١/ فرغم الطابع الجماهيرى للمنظمة ورغم وعيها بأهمية العمق العربى بالنسبة للثورة الفلسطينية وتطلع الجماهير العربية والاسلامية اليها كأمل وطليعة لثورة التحرر فان المنظمة لم تبذل جهداً كبيراً فى ربط مصيرها بمصير حركة التحرر فى الوطن العربى والاسلامى بل سارت بخطوات متسارعة فى اتجاه التحالف مع الانظمة ودعمها وتزكيتها لدى شعوبها وتوزيع شهادات البطولة والوطنية عليها بكل سخاء متجاهلة الطعبية الفاشية الرجعية لتلك الانظمة وعمالتها للامبريالية وسحقها لشعوبها ولقوى التحرر فيها وهو مسلك لئن كانت مبرراته المكاسب المصلحية التى أحرزتها المنظمة منه، فانها مبررات لا أخلاقية ولا ثورية. وهى

(٤٥) نقلا عن رجاء جارودى فى كتابه «فى سبيل ارتقاء المرأة» ترجمة مطرجى جلال ص ٣٩ - ٤٠، ط دار الآداب، بيروت يناير ١٩٨٢.

(٤٦) حديث «النساء شقائق الرجال» رواه الخمسة. وخرجه الشوكانى فى «نيل الأوطار» جزء ١ ص ٢٦٣ ط البابى الحلبى.

مكاسب آنية محدودة المدى، فالمستقبل للشعوب وليس للأنظمة العميلة. وكان على حركة ثورية مثل حركة التحرير الفلسطينية أن تربط مصيرها بالشعوب. فان مما يحز فى النفس انه فى الوقت الذى بذلت فيه المنظمة جهوداً كبرى لارضاء الأنظمة نرى الانظمة تجتمع رغم تناقضاتها على ابادة الثورة وتصفيتها فى حرب صليبية ـ كما وصفها أبو اياد ـ (٤٨) وليس غائباً عنا ونحن نسجل هذه السلبية الظروف العصيبة المحيطة بالمنظمة.

صحيح ان الواقع العربى لم يفرز منظمات جماهيرية ثورية قوية بالعدد الكافى على الاقل لتشجيع الثورة الفلسطينية على التحالف معها. ولكن لو ان المنظمة تخلصت من العقلية التجارية وتوخى الربح العاجل لاعتبرت نفسها طليعة وعامل تثوير للجماهير والمنظمات، ولو حصل هذا التحالف بين حركة الجماهير العربية والاسلامية وبين حركة التحرير الفلسطينية لشهدت المنطقة تحولات نوعية ولظفرت المنظمة بما هى احوج اليه من كل شىء وكان غيابه سبباً مباشراً لكل نكباتها ـ لظفرت بأكثر من قاعدة ثورية فى الوطن العربى والاسلامى لانطلاق ثورتها وحمايتها. وعلى سبيل المثال لو اتجهت العلاقات بين الثورة الاسلامية فى ايران والثورة الفلسطينية والأخوان المسلمين وخاصة فى سوريا والأردن الى علاقات تحالف استراتيجى لأمكن الاطاحة بأكثر من نظام من الأنظمة الاستبدادية كنظام الأسد وصدام أو حسين، ولغدت سوريا ـ مثلاً ـ قلعة حصينة للعمل الفدائى بدل ان يتحالف الفلسطينيون والايرانيون مع حافظ الاسد ويحموا ظهره ليتفرغ لتصفية الثورة الاسلامية فى سوريا والفلسطينيين فى لبنان، وتتحالف الثورة الاسلامية فى المنطقة لفائدة سوريا ولبنان وتتحالف الثورة الاسلامية فى سوريا مع حسين وصدام، فتمزقت بذلك القوى الثورية فى المنطقة لفائدة معسكر الفاشية والعمالة. ولكن مثل هذه الاستراتيجية تحتاج الى تثوير الفكر الاسلامى حتى يتخلص من رواسب الانحطاط كالطائفية وتحجيم المسألة الاجتماعية من اجل الطاقات الثورية الهائلة للاسلام، هذا من جهة ومن جهة اخرى تتخلص المنطقة من الفكر السياسى الاصلاحى الذى تصاعد نموه وسيطرته على المنظمة خلال السنوات الاخيرة خاصة. انه من اقدم اخطاء القوى الثورية فى هذه المرحلة اتجاهها الى التحالف مع خصومها الاستراتيجيين الذين تتناقض مصالحهم جذرياً مع اى تغيير ثورى فى المنطقة ولا يترددون فى القيام بأى عمل من اجل استبعاد ذلك التغيير ولو بالقيام بتعديلات بسيطة.

٢/ ويتصل بهذه الظاهرة: ظاهرة التحالف مع الانظمة الطاغوتية حليفة الاستعمار بل عميلته بدل التحالف مع الجماهير وطلائعها الثورية ظاهرة اخرى يلاحظها المتتبع لمسار المنظمة وهو ميلها المتنامى الى الاعتماد على الحل السياسى على حساب العمل العسكرى فى اتجاه نحو التأقلم مع الواقع العربى فهل يعنى ذلك ان المنظمة تتجه بخطى حثيثة الى ان تغدو جزءاً من الواقع العربى لا عامل تقويض له؟ وفى ذلك درس بالغ ينبغى ان تنتبه اليه كل حركة ثورية، انه خطر الاستدراج والاحتواء السياسى من طرف الخصوم وكثيراً ما تسقط الحركات الثورية نتيجة للضغوط المسلطة عليها من طرف القوى الامبريالية وما تمارسه من

(٤٨) نقلا عن تصريح له للتلفزيون التونسى أذيع فى نشرة الساعة الثامنة من مساء يوم ١٩٨٢/١٠/٩

* أستاذ علم الاجتماع بالجامعة التونسية.

ترغيب فتخلط بين الاستراتيجية والتكتيك فتسقط فى مخططات الخصوم وتتعرض للاجهاض. ان المواقف الظرفية رغم ضرورتها لكل حركة ينبغى الحذر من ان تتحول الى موقف استراتيجى.

٣/ ان جماهيرية الحركة لا تستمد من شعاراتها ولا حتى من ايديولوجيتها الثورية - رغم اهمية ذلك - ولا من مواقفها الرسمية وانما تتحدد ايضا بنمط العلاقات التى ينشئها العاملون فى صفوفها مع وسطهم الذى يتحركون فيه. فبقدر ماتكون تلك العلاقات ملتزمة منسجمة مع المثل والشعارات المرفوعة مطبوعة بطابع اخلاقى اصيل بقدر ماترتفع مصداقيتها لدى الجماهير فتكتسب ثقتهم وتستقطبهم للنضال فى صفها. ولقد فشل الفلسطينيون الى حد ما فى كسب الرأى العام فى مواطن هجرتهم رغم الروابط الثقافية والدينية. وذلك راجع الى نقص فادح - فى احيان كثيرة - فى الرصيد الاخلاقى للسلوك الفلسطينى اليومى سواء ازاء المال او العرض وغير ذلك مما سهل عمل الانظمة فى تصفيتهم دون ان تحرك الجماهير ساكنا. وفى ذلك درس بالغ لكل حركة ثورية حريصة على ترسيخ جماهيريتها، فلا مناص لها اذا من تعميق التربية الاخلاقية فى افرادها الى جانب اعدادهم فى الميادين الاخرى السياسية والعسكرية والفكرية واعتبار المقياس الاخلاقى مقياسا أساسيا الى جانب مقاييس أخرى للانتماء اليها ولتقويم الأفراد ورفعهم أو خفضهم.
٤/ إهمالها للبعد الاسلامى، فبقدر مااهتمت المنظمة بكسب الرأى العام العالمى فى المعسكرين الاشتراكى والرأسمالى بقدر ماكان عملها محدودا على المستوى الاسلامى وقد يكون من مبررات ذلك إنبتات الأنظمة هنا عن الجماهير وعمالتها - غالبا - وندرة الحركات الثورية الاسلامية التى يمكن التعامل والتفاعل معها، وقد يكون هو الطابع اليسارى العام المسيطر على المنظمة. ومعلوم ان اليسار لايزال مشبعا بالعقد ضد الدين واهله وكان على هذه الصورة التى يحملها اليسار عن الوطن الاسلامى والفكر الاسلامى والحركة الإسلامية أن تتغير بعد أن شهدت الساحة الاسلامية خلال السنوات الأخيرة تحركات ثورية مسلحة وجماهيرية شعبية ضد قوى الاستعمار والاستبداد فى ايران وافغانستان وسوريا ومصر وتونس مما يحتم ان يكون البعد الاسلامى الى جانب البعد العربى والعالمى رصيدا اساسيا للثورة الفلسطينية. ومن جهة اخرى على الحركة الاسلامية ان تتخلص من موقفها السلبى او البارد من القضية الفلسطينية رغم ان الحركة الاسلامية كانت هى الحركة الشعبية الوحيدة فى الوطن العربى التى لم تكتف سنة ١٩٤٧ بمناصرة القضية الفلسطينية بالبيانات وانما بادرت الى ارسال مجموعات من الكتائب الفدائية عرّفت اليهود معنى الايمان الاسلامى، وكاد المشروع الصهيونى أن يجهض لولا خيانات الحكام.
ان فلسطين محور الصراع الدولى والحضارى فينبغى ان تكون قضيتنا المركزية وخطنا الاول فى مواجهة الامبريالية وعملائها وتكتيل كل القوى الثورية والبوتقة التى تحترق فيها بقايا ومخلفات انحطاطنا وعجزنا وكسلنا وتثاؤبنا الحضارى وخمولنا الحركى، ويعاد فيها سبك

مجاهدينا ورص صفوفنا للانطلاق فى البناء الحضارى الاسلامى الجديد لنجد انفسنا فى الصف الاول للثورة وانها لثور

٣/ ان جماهيرية الحركة لا تستمد من شعاراتها ولا حتى من ايديولوجيتها الثورية ـ رغم اهمية ذلك ـ ولا من مواقفها الرسمية وانما تتحدد ايضا بنمط العلاقات التى ينشئها العاملون فى صفوفها مع وسطهم الذى يتحركون فيه. فبقدر ماتكون تلك العلاقات ملتزمة منسجمة مع المثل والشعارات المرفوعة مطبوعة بطابع اخلاقى اصيل بقدر ماترتفع مصداقيتها لدى الجماهير فتكتسب ثقتهم وتستقطبهم للنضال فى صفها. ولقد فشل الفلسطينيون الى حد ما فى كسب الرأى العام فى مواطن هجرتهم رغم الروابط الثقافية والدينية. وذلك راجع الى نقص فادح ـ فى احيان كثيرة ـ فى الرصيد الاخلاقى للسلوك الفلسطينى اليومى سواء ازاء المال او العرض وغير ذلك مما سهل عمل الانظمة فى تصفيتهم دون ان تحرك الجماهير ساكنا. وفى ذلك درس بالغ لكل حركة ثورية حريصة على ترسيخ جماهيريتها، فلا مناص لها اذا من تعميق التربية الاخلاقية فى افرادها الى جانب اعدادهم فى الميادين الاخرى السياسية والعسكرية والفكرية واعتبار المقياس الاخلاقى مقياسا أساسيا الى جانب مقاييس أخرى للانتماء اليها ولتقويم الأفراد ورفعهم أو خفضهم.

٤/ إهمالها للبعد الاسلامى، فبقدر مااهتمت المنظمة بكسب الرأى العام العالمى فى المعسكرين الاشتراكى والرأسمالى بقدر ماكان عملها محدودا على المستوى الاسلامى وقد يكون من مبررات ذلك إنبتات الأنظمة هنا عن الجماهير وعمالتها ـ غالبا ـ وندرة الحركات الثورية الاسلامية التى يمكن التعامل والتفاعل معها، وقد يكون هو الطابع اليسارى العام المسيطر على المنظمة. ومعلوم ان اليسار لايزال مشبعا بالعقد ضد الدين واهله وكان على هذه الصورة التى يحملها اليسار عن الوطن الاسلامى والفكر الاسلامى والحركة الاسلامية أن تتغير بعد أن شهدت الساحة الاسلامية خلال السنوات الأخيرة تحركات ثورية مسلحة وجماهيرية شعبية ضد قوى الاستعمار والاستبداد فى ايران وافغانستان وسوريا ومصر وتونس مما يحتم ان يكون البعد الاسلامى الى جانب البعد العربى والعالمى رصيدا اساسيا للثورة الفلسطينية. ومن جهة اخرى على الحركة الاسلامية ان تتخلص من موقفها السلبى او البارد من القضية الفلسطينية رغم ان الحركة الاسلامية كانت هى الحركة الشعبية الوحيدة فى الوطن العربى التى لم تكتف سنة ١٩٤٧ بمناصرة القضية الفلسطينية بالبيانات وانما بادرت الى ارسال مجموعات من الكتائب الفدائية عرّفت اليهود معنى الايمان الاسلامى، وكاد المشروع الصهيونى أن يجهض لولا خيانات الحكام.

ان فلسطين محور الصراع الدولى والحضارى فينبغى ان تكون قضيتنا المركزية وخطنا الاول فى مواجهة الامبريالية وعملائها وتكتيل كل القوى الثورية والبوتقة التى تحترق فيها بقايا ومخلفات انحطاطنا وعجزنا وكسلنا وتثاؤبنا الحضارى وخمولنا الحركى، ويعاد فيها سبك مجاهدينا ورص صفوفنا للانطلاق فى البناء الحضارى الاسلامى الجديد لنجد انفسنا فى

الصف الاول للثورة وانها لثورة حتى النصر . . ﴿ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز﴾ .

أكتوبر ١٩٨٢ م

الفصل الثالث
ملاحق

لقاء مجلة المجتمع الكويتية بالاستاذ
راشد الغنوشى صائفة ٨١ قبيل اعتقاله

اننا نطالب بالحريات للانسان
ولكـــل الفئـــات السياسيــة

تلتقى «مجلة المجتمع» بالاستاذ راشد الغنوشى رئيس حركة الاتجاه الاسلامى فى تونس وحدث تونس الآنى . . حيث اعتقل معظم افراد حركة الاتجاه الاسلامى وزجوا فى السجون وعـلى رأسهم الاستاذ راشد ويبلغ من العمر ٤٠ عاما ويعمل استاذا للفلسفة فى مدارس تونس . . من مواليد مدينة (حامة قابس).

شخصية شعبية معروفة عند اوساط المصلين . . وفى حديثه هذا يطرح قضايا خطيرة تتميز بالجرأة والتأصيل والعمق . . ورغم ان مجلة «المجتمع» لا تتبنى بعض ما يطرحه الاستاذ راشد الا اننا نؤمن بأن الحوار المفتوح هو احد السبل السليمة للخروج بفهم شامل متقارب للاسلام فى الحركة الاسلامية .

* المجتمع :

ليس فى تونس فقط ولكن فى كل بقاع العالم الاسلامى تستغرب الفئات السياسية غير الاسلامية تدخل الاسلام بالسياسة ، وتتساءل عن علاقة المتدينين بالسياسة فما ردكم على ذلك؟

● الغنوشى :

انـا اذا تلقينـا هذا السؤال على اسـاس الاستفهـام الاستنكارى، فذلك هو العجب العجـاب ، حيث يحمـل الـدلالـة على عدم فهم الواقع الذى نعيشه ، واذا كان لابد من التوضيح فتجدر الاشارة الى ان تنامى انشغال المواطنين بالسياسة هو الظاهرة الصحية التى تشير الى مدى اهتمام الناس بسير الاحداث واتجاهاتها واسبابها فى بلادهم . وهذا يدل بالتالى على ان البلاد قد قطعت خطوة ما فى طريق الخروج من التخلف ، على ان وطننا العربى الذى يعانى مشكلات حادة على المستوى الاقتصادى والثقافى والاجتماعى والسياسى فان اغلب المواطنين فيه صاروا متضررين بسبب انتشار الديكتاتوريات التى تفرض على المسلم عدم الاهتمام بالسياسة لانه مسلم على حد تعبير البعض حيث يصرون على سحب حق المسلم

فى المواطنة من خلال هذه المقولة التى تفرق بين ما هو دينى وما هو سياسى. وعلى الرغم من ان اسلامنا لا يسمح لنا ان نعيش فى غيبوبة ترسم لنا فان الدكتاتوريات السياسية تحاول اجتزاء الفهم الاسلامى وتكريسه فى الاطر العبادية فقط، ونحن نقول لهؤلاء دحضا لمقولاتهم: لو رجعنا الى القرآن الكريم لوجدنا تصويرا واضحا للمناخات والاجواء التى انطلق فيها عمل الفئة الاسلامية الاولى. والقرآن ليس كتاب دين بالمعنى التقليدى بل هو نظام حياة نزل لينظم حياة البشر على اساس فلسفة معينة تربط الانسان بربه وتنظر الى صلاحية الكون على اساس من الارتباط بالتوجيه الالهى. وقد قدم الرسول ﷺ صورة حية عن الوضع المثالى للمسلم الذى يتحسس سير الزمن على حين ان كثيرا من الطقوس العبادية اللا اسلامية تدخل المرء فى غيبوبة تبعده عن مجريات الزمن، بينما تصر العبادة الاسلامية على الارتباط بالزمن.

وهكذا جاء الرسول ﷺ بنظام جديد نظم الزمان والمكان وعلم المسلم ان يكون حاضرا فى دورة الزمان ورقعة المكان بحيث ينتظم كل شىء بارادة اسلامية تشمل تنظيم كل مجالات الحياة الاسلامية. ومن هنا فان تنظيم الاسلام هو سياسة الكون باجمعه.

* المجتمع:

يرى بعض الاسلاميين ان العمل الاسلامى فى تونس لم ينطلق من منطلقه الصحيح الذى يقوم اصلا على العمل التربوى وتكوين القواعد القوية حيث يعتقد البعض ان العمل فى تونس انطلق من البدء الى مواجهة الحزب الحاكم ومناقشة الاحزاب الاخرى سياسيا دون ارتكاز الى قاعدة تربوية روحية صلبة، وبهذا قد يحكم الاتجاه على نفسه بالانتحار، فما رأيك؟

● الغنوشى:

يعتقد بعض الاسلاميين ان العمل السياسى يجب ان يكون مسبوقا بمراحل ثلاث: الاولى: مرحلة التكوين العقائدى، والثانية: مرحلة التكوين التربوى، والثالثة: مرحلة الترابط الاخوى. ثم تأتى المرحلة السياسية كمرحلة نهائية تتوج العمل الاسلامى، وهذا تنظير خاطىء للاسلام ذلك انه يفصل العقيدة عن الحياة. ونحن نعتقد ان هذا الطرح هو اثر من آثار عصر الانحطاط حيث كان الفصل بين الدين والسياسة هو الاساس وان لم يكن منظرا، لكن الغرب جاء بتصوراته فيما بعد فنظر ذلك بفصل الدين عن السياسة وهذا امر وقع فيه بعض الاسلاميين عندما رأوا ان السياسة هى مرحلة متأخرة من مراحل العمل الاسلامى وهذا يعنى عمليا ممارسة الفصل بين الدين والسياسة، اما ان نتصور بأن التكوين العقائدى يجب ان يكون فى المرحلة الاولى بعيدا عن العمل السياسى فهذا تصور خاطىء. ولعل هذا كان اثرا مباشرا لعلم الكلام الذى قدم العقائد الاسلامية من منظور يونانى، وجرد العقيدة عن واقعها. ان القرآن المكى قدم التوحيد متفاعلا مع حركة التاريخ لم يقدمه ابوابا جامدة، الباب الاول التوحيد والثانى الايمان بالرسل والثالث الايمان باليوم الآخر. ان هذا التقديم جرد التوحيد عن حركة الكون. ولقد كان له اثر كبير فى انحطاطنا وجعل المسلم غائبا عن واقعه. وعلينا ان نتجاوز هذا التنظير الكلامى للعقائد الاسلامية.

* المجتمع :
لنفترض ان رأيكم صحيح . . فهل تعتقدون ان الاتجاه الاسلامى فى تونس يعمل بان واحد لايجاد وعى عقدى تربوى سياسى . . ام انه انطلق مبتدئا بالمطالب السياسية دون نشر الوعى الاسلامى بين الناس؟
● الغنوشى :
حتى الآن لم يطالب الاتجاه الاسلامى فى تونس بالدولة الاسلامية . . ولا نرى ان هذا هو مطلب الحركة اليوم، وتحقيق الدولة الاسلامية يجب ان يتم عن طريق الاتجاه الاسلامى . فمن الخطأ ان نطالب غيرنا من الاحزاب بتحقيق اهدافنا وتطبيق الاسلام . . وبقدر ما ترتبط حلول مشكلات الناس بالاسلام بقدر ما نقترب من الحكم الاسلامى . . عندما يصبح العمل الاسلامى هو النضال من اجل الحريات السياسية ومن اجل تحقيق العدالة الاجتماعية والنضال من اجل الاستقلال عن المعسكرات الدولية بقدر ما نقترب من اهدافنا . . لذا فنحن دخلنا الحياة السياسية فى تونس من اجل تحقيق الحريات وليس من اجل اقامة حكم اسلامى . . وهذا المطلب هو القاسم المشترك الذى جمعنا مع بقية المعارضة السياسية رغم التناقضات الكبيرة. لكن هناك تعاون وعمل مشترك .
* المجتمع :
اذا كان الامر كذلك، فهل تعتقدون ان المعسكرين الغربى والشرقى المهيمنين على لعبة النفوذ فى العالم واللذين سيتبادلان المصالح سيتركان جوا من الحريات السياسية مفتوحا للاسلاميين . . واذا كنتم لا تعتقدون هذا، فهل سلكتم مسلكا للوصول الى هدفكم؟
● الغنوشى :
من الطبيعى ان يكون للاسلام اعداء . . لكن وجود الاعداء لا يجوز ان يكون مبررا لهزائمنا، فالمصائب التى جاءتنا يفندها القرآن بقوله ﴿قل هو من عند انفسكم﴾ والقول بأن ذلك جاء من الصليبية أو اليهودية هو تبرير قاصر، ونحن نعتقد ان القوى العدوة ليست قادرة على مواجهتنا اذا توفرت لدينا اسباب ولادة المشروع الاسلامى . وعدم ولادة دولة اسلامية لا يعود سببه الى وجود معسكرات دولية وانما يعود الى عدم نضجنا بعد، حيث ان المعوقات هى داخل فكرنا الاسلامى .
اما بالنسبة الى موقف الاعداء من حرية العمل الاسلامى فان الحرية لا توهب لانها نضال ونحن نناضل من اجلها، والديمقراطيات التى يتمتع بها الغربيون هى ثمرة نضال طويل، لذا فان رفع الاغلال الفكرية والنفسية والاقتصادية والاجتماعية مهمة اساسية من مهماتنا، والنضال من اجل الحرية هو من جوهر النضال من اجل الاسلام، واذا اعتبرت الحركة الاسلامية ان الحرية ليست قضية جوهرية فذلك سقوط رهيب. والذى اخشاه ان تكون الحرية قضية ظرفية بالنسبة لنا نطالب بها عندما يكون الامر غير مناسب لنا. وهنا يكون السقوط الرهيب . . اننا نطالب بالحرية للانسان ايا كان .

* المجتمع :
ان ما ذهبت اليه يذكرنا بضربات الاخوان عام ١٩٤٨ وعام ١٩٥٥، التجارب التى افرزت نظرية تقول ان المدرسة الجماهيرية ذات العمل الثقافى والتى مارسها الامام حسن البنا لم تصل الى النتائج المطلوبة وكان نتيجة نقد المدرسة الجماهيرية بروز المدرسة التربوية التى تبلورت فى كتابات الاستاذ سيد قطب ما نريد ان نقوله انكم عدتم تمارسون نفس التجربة الجماهيرية للامام حسن البنا وان انتقادات المدرسة التربوية مازالت قائمة مع العلم بأن الظروف الجوهرية لم تتبدل كثيرا . . الا ترون انكم قد تصلون الى نهاية شبيهة بتجربة الاخوان عام ١٩٤٨؟

● الغنوشى :
سؤال مهم . . ولعلنى لن استطيع الاجابة عليه اجابة تجلى نقاط الغموض وهى كثيرة . . اننى سأتحدث عما استقر فى نفسى من قناعات وقد اصيب وقد اخطىء . . . وهو موضوع حساس لانه يتعلق بتقويم التجربة الاسلامية وهو كمبدأ ما زال مرفوضا خوفا من الحساسيات وخوفا على حركتنا ان تظهر عوراتها وهذا دافع يجعل البعض يحافظ على الماضى بتقديس رجاله . . وخوفا من منافسة الجماعات الاخرى التى يفرضها واقع الحزبية المكرس فى العمل الاسلامى، وانا اعتبر هذه الاعتبارات الانحطاطية ومعوقة للعمل الاسلامى .

والآن . . هل ما سمى بالتجربة الجماهيرية فى العمل الاسلامى قد فشلت ومطلوب منا الا نعود اليها وان نتوخى ما يسمى بالقاعدة الصلبة كما سماها الاستاذ سيد قطب؟ . . وهو ما يمثل العمل الانتقائى النخبوى والانصراف عن الجماهير؟؟ علينا ان نحدد ما المقصود بالجماهير . ان الجماهيرية لا تحدد بالكم رغم ان الكم اساسى فيها . . فالصوفية قد تستقطب فى لحظة من الزمان اغلب من فى المجتمع ومع ذلك لا نصفها بالجماهيرية . الكثرة هى احد شروط الجماهيرية ولكنها ليست كل الشروط . فمن شروط الجماهيرية مضامين الحركة . . فاذا كانت مضامين الحركة متجهة الى هموم الجماهير السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها تحقق شرط من شروط الجماهيرية، كما ان من شروط الجماهيرية السياسية اعتبار الجماهير هى اداة التغيير ومن خلالها تتم معالجة مشاكل الجماهير . فالحركة التى تعتمد العسكرية الانقلابية فى تغيير الواقع لا تثق بقدرة الجماهير . من خلال هذه المقاييس نستطيع ان نقيم حركة البنا وجماهيريتها .

فحركة البنا اتجهت الى القطاعات العريضة من الناس واستقطبت الطبقات الدنيا منهم والمحرومة كالعمال والطلاب . وحركة البنا اهتمت بالقضية الوطنية والتحرر من الاستعمار بدرجة تفوق الاهتمام بقضية قيام الدولة الاسلامية حتى اننا نستطيع ان نقول ان حركة البنا كانت حركة تحرر وطنى بالدرجة الاولى .

اما الاهتمام بالقضايا الاجتماعية وهموم المواطن فلم تكن حركة البنا على درجة كبيرة من الاهتمام بها . . بل حصرت اهتمامها بالقضية الاخلاقية والتشهير بالميوعة والخمور والزنا . . لقد كانت حركة البنا تولى اهتماما بالغا للقضايا التربوية والاخلاقية والعقائدية بدرجة لا تقارن مع الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والقضايا السياسية .

كما ان هنـاك خطأ سياسيا شنيعـا ارتكبته حركة البنا ولا يزال متواصلا وهو ان الحركة الاسلامية تقدم نفسها وصيا على المجتمع وليس طرفا سياسيا أو فكريا يستمد مشروعيته من قوة الحجة واقناع الجماهير ببرامجه . . ان الحركة الاسلامية ما زالت تستنكف بشدة ان تعتبر نفسهـا كغيرها من بقية الاطراف السياسية ـ شيوعية أو اشتراكية أو ديمقراطية ـ طرفا فى المجتمـع . . ومن هذا المنـطلق طالبت حركـة البنـا بحل الاحزاب وما زال ضمير الحركة الاسلامية ـ فى وعيه او لا وعيه ـ يستنكف ان يكون حزبا ويشمئز من قضية الاحزاب ويصر على ان يكون ناطقا رسميا باسم المجتمع وباسم الاسلام وباسم المسلمين.

وكما ان حركة البنا لم تعتمد الجماهير اداة للتغيير فى الاطار الديمقراطى كذلك فهى لم تعتمد الجماهير اداة للتغير فى الاطار الثورى الشعبى . . فهى لم تكن تؤمن بالثورة . . بل كانت تدارى الحاكمين على نحو يميع التوتر الشعبى ويضبب الرؤيا.

كل هذا جعـل حركـة البنـا بعيدة عن ان تكـون حركة جماهيرية شاملة . . بل كانت منقوصة . . وانها بعد البنا تراجعت كثيرا واهملت البعد الوطنى . . كما انها احتقرت الجماهير واتجهت الى الاسلوب النخبوى الانتقائى أو ما يسمى بالقاعدة الصلبة.

* المجتمع :

الا ترى ان هذه مثالية نظرية لا يمارسها احد من الاحزاب فى عالمنا الاسلامى . . فاليسار عندما يصل الى الحكم يصبح ديكتاتوريا . . واتباع الاشتراكية الغربية كذلك وحال تونس شاهد على ذلك . . واتباع الاشتراكية الشرقية كذلك . . الجميع لا يتعامل مع هذه المثالية بل يحتكر السلطة ويحتكر معها التعبير عن الرأى ؟

● الغنوشى :

ان اهم ما يميز مجتمعات التخلف هو الاستبداد وسحق كرامة الانسان . . واذا ارادت الحركة الاسلامية ان تقدم نفسها نقيضا للتخلف والانحطاط . . واذا ارادت ان تكون خطوة لتجاوز هذا الواقع فلا بد ان تعبر عن ارادة هذه الامة فى تجاوزها هذا الانحطاط . . ان الاستبداد ليس حديثا ولم يأت عن طريق العملاء الغربيين . . انه عميق فى تاريخنا وتفكيرنا وثقافتنا . . لقد بدأ منذ الانقلاب الاموى الرهيب ليستمر فى انحراف تاريخى رهيب كرس وصاية طغاة كراسى الانظمة الوراثية وبرره . . وهذه الوصاية سحقت شخصية المسلم وادت الى حرف المفهوم السياسى والثقافى . ولقد ولدت هذه الوصاية انحطاطا فى العقيدة كرستها عقائد الجبر وسلب ارادة الفرد امام القوى . ان المسلم كان منسحقا سياسيا امام السلطات وعقائديا امام عقيدة الجبر وإراديا امام رجال الصوفية وفكريا امام رجال المذاهب . . ومازال الاستبـداد مكـرسـا فى الحـركـة الاسـلامية فالافراد منسحوقين امام زعماء الحركة أو امير الجماعة . . اننا ثمرة مجتمع متخلف . لهذا المنظور ورغم عهر الانسان الغربى وفساده الا انه متقدم علينا يعيش تجربة حضارية رغم ما فيها من الوان الانحدار . . ان الفئات السياسية

بكل شرائحها فى العالم الاسلامى ثمرة التخلف والاستبداد. . واننا اذا كنا مثاليين فلاننا نعيش مع اناس ديكتاتوريين متخلفين. . واذا اردنا ان نكون مثلهم فاننا نريد الانحطاط ان يستمر. . مازلت اؤكد ان تحقيق اهدافنا يجب ان يمر عبر الجماهير التى تصوت لبرنامجنا كما يجب ان نحترم ارادة الجماهير اذا اختارت منهجا غير منهجنا فنحن لا نمثل وصاية على المجتمع فاذا اختار مجتمعنا ان يكون يوما ما ملحدا او شيوعيا فماذا نملك نحن؟ .

* المجتمع :

كيف تبرر قيام ابى بكر الصديق رضى الله عنه بمحاربة اهل الردة وارجاعهم بالقوة الى سلطان الدولة الاسلامية؟

● الغنوشى :

ابوبكر الصديق لم يشن حربا ضد حركة فكرية أو سياسية وانما شن حربه ضد تمرد عسكرى لم يقدم فيه مسيلمة الكذاب فكرة أو برنامجا ذلك ان الاسلام لا تخيفه البرامج. فاعداؤنا لا يمكن ان يهددوننا بالافكار وانما لديهم الذى يهددوننا به فقط وعلينا نحن ان نجرهم الى ساحة المعركة الحقيقية التى هى ساحة المعركة بالحجة والبرنامج.

* المجتمع :

الا ترى ان الجاهلية كانت تمثل منهجا وبرنامجا سياسيا ومع ذلك لم يسمح لها رسول الله ﷺ بالبقاء فى الجزيرة العربية حيث ان الاسلام اصر على الا يتواجد فى الجزيرة العربية دينان؟ .

● الغنوشى :

المثال الاسلامى للمجتمع النموذجي هو مجتمع المدينة الذى قام على اساس الميثاق بين الجماعة الاسلامية والفئات السياسية الاخرى يهودية كانت أو مشركة. والنبى ﷺ لم يشن عليها حربا الا بعد ان نقضت الميثاق ولجأت الى العنف.

* المجتمع :

الذى نعنيه هو ان الاسلام لم يسمح فى النهاية بتواجد منهج اخر فى الجزيرة بل لم يعط الحق للانسان العربى ان يظل مشركا. . والاسلام عامل النصارى واليهود من خلال التاريخ كفئات اقلية ليس لها كامل حقوق المواطنة. . فكانوا يميزون بملابسهم ولا يحق لهم تسلم المناصب الحساسة فى الدولة أو دخول الجيش. . بل يجب ان يتصفوا بالذلة والصغار عند دفعهم الجزية. . كما ورد فى الحديث الذى يأمرنا ان نضايقهم فى الطريق ونضطرهم الى اضيقه؟ . .

● الغنوشى :

هذه الصورة تنفر الناس. . وتلك النصوص ينبغى ان ينظر اليها اولا من حيث السرد التاريخى والرواية والسند فان ثبت صحتها وجب تأويلها على النحو الذى ينسجم مع ما ثبت فى المجتمع المدنى النموذجى الذى نعرفه من خلال الممارسة وليس من خلال النصوص.

* المجتمع :

فى مجتمع المدينة لم يسمح لفئة المنافقين بالتعبير عن الرأى أو معارضة السلطة؟

● الغنوشى :

المنافقون كانوا اولى مصالح ولم يكن لهم نظرية متكاملة فى الكون أو السياسة او الاخلاق لذا فقد رأوا فى نموذج الاسلام ما يتجاوز ما عندهم من فكر ووسيلة حيث استقطب الناس. . فأكل الحسد قلوبهم فكادوا للاسلام لانهم لم يتمكنوا من الوقوف امامه بالحجة فلجأوا الى النفاق ومشكلتهم علاوة على هذا مشكلة نفسية وصفها القرآن بقوله تعالى ﴿فى قلوبهم مرض﴾ وليسوا اصحاب مشكلة فكرية.

حوار مع مجلة آرابيا (ARABIA)

من يحتل المسجد الأقصى يهدد بالسيطرة على المسجد الحرام:

أجرت مجلة آرابيا ARABIA الانجليزية حواراً مع الأستاذ راشد الغنوشى زعيم الحركة الاسلامية فى تونس واحد أبرز المفكرين الاسلاميين المعاصرين، هذه ترجمة كاملة للحوار.

س : يؤكد بعض المفكرين المسلمين على النبوءة القائلة بحتمية إنهيار الحضارة الغربية، هل تعتقد ان هذا التأكيد مبنى على تحر علمى؟.

● راشد :

التنبؤ المستمر من بعض المفكرين المسلمين المعاصرين بحتمية إنهيار الحضارة الغربية ليس مبنياً على تحليل علمى للأسس التى قامت عليها تلك الحضارة ومثل هذا التحليل مطلوب لمعرفة ما إذا كانت تلك الأسس مازالت تتمتع بالفاعلية فى أداء دورها أم لا؟!!

أخشى ان يقع ذلك التأكيد على حتمية انهيار الحضارة الغربية فى خطأ الاستدلال عندما يبنى الاستدلال على التماثل لان نفس التأكيد ينطلق من إفتراض ان ما يعتبر اساساً فى حضارة ما هو اساسى وبنفس الدرجة فى حضارة اخرى. على سبيل المثال، نجد ان العامل الاخلاقى لم يكن ابداً عاملاً اساسياً فى حضارة الغرب منذ بدايتها، ولهذا فإنه ليس صحيحاً ان نطرح الانحطاط الاخلاقى فى الغرب دليلا على قرب انهيار تلك الحضارة، وهذه الطريقة فى التفكير لا تثمر الا مزيداً من الارتباك وعدم العقلانية فى أوساط الاسلاميين، فيرى المسلم عالم الكفر قوياً ومسيطراً على الدنيا رغم عدم اهتمامه بالقيم الاخلاقية ويرى عالم الايمان ضعيفاً غير متوازن ومرتبكاً رغم احترامه وتبجيله للقيم الاخلاقية.

إن صرح أى حضارة يعلوا إذا بنيت تلك الحضارة على مقاييس معتبرة ودرجة من الحقيقة والصواب. كيف إذاً يمكن لحضارة كحضارة الغرب ان تعلو وتسيطر وتقاوم كل عوامل الانهيار من الداخل والخارج حتى الآن ما لم تكن قد اكتشفت جانباً من سنن الله فى الحياة والطبيعة، هذه الاكتشافات ستستمر فى ضمان نمو وسيطرة الحضارة الغربية حتى يأتى الزمن الذى تكون فيه عوامل التحطيم والانحطاط من الداخل والخارج قد وصلت درجة أعلى من القوة والفاعلية.

فى مقالنا «مرة أخرى نحن والغرب» حاولت توضيح اثر الايمان على الانسان وفكره ـ فسر قوة وضعف الحضارة الغربية موجود فى العامل الانسانى، وبالمقارنة نجد ضعفاً عاماً فى الروح الانسانية فى فترة انحطاط الحضارة الاسلامية قد ادى الى الغاء العامل الانسانى وتحطيم شامل للقوة الخلاقة للعقل، كذلك اوضحت ان توجه الغرب نحو الانسان كان سر القوة والضعف فى آن واحد معاً.

عندما نتحدث عن البديل الاسلامى للنظام الغربى ولنموذجه الاصلى وتصوره للانسان وماهية العلاقات الاجتماعية فى المجتمع المعاصر فاننا نهدف التأكيد على النقاط التالية :
- انه من الضرورى للانتاج الفكرى الاسلامى ان يتجاوز مرحلة المثالية التى لا يتعدى الخطاب الاسلامى فيها العموميات التى لا تكاد تختلف بتغير الزمان والمكان وهذا التوجه يحيل الفكر السياسى الاسلامى «الايديولوجية» الى هيكل اجوف بلا قواعد ولا اسس فى حقائق الواقع ولا يقيم وزناً ولا قيمة للتعامل مع الزمن.

على الاسلاميين فى تونس والاقطار الاخرى ان يحجموا عن اجترار جملة آراء انتجتها الاجيال السابقة من رجال الدعوة الاسلامية. فهذه الآراء اعطت احكاماً قطعية فى عدد من المسائل اذ حرمت - مثلاً - العمل النقابى وقاومت تنظيم الاحزاب السياسية وانشأت تراثاً يعتبر تحرير المرأة من ممارسات الكفر، وكان ذلك فى عصور الانحطاط الاسلامى. كذلك كانت هناك ادانة لما يتصل بمفاهيم الثورة والديمقراطية.

هذا المنهج فى التفكير مازال موجوداً اليوم كأن اولئك الرجال - من الآجيال السابقة - قد جودوا كل تفاصيل المعرفة الاسلامية ورفعوها فوق الزمن «فلا جديد بعدهم».

يجب ان نحقق أهدافنا، ومن اجل ذلك يلزمنا ان نكون عصريين نعيش فى زماننا ونتفاعل معه، وعلينا ان ندخل فى تفاعل مستمر بين ثلاثة اشياء هى العقل المسلم، والتراث المأثور من الشريعة، وحالة الاحداث الماثلة، فى هذا التفاعل علينا الالتزام المطلق بمتطلبات وموجهات الدين، وفى نفس الوقت نستفيد من كليات تراثنا وذلك يشمل التراث الاسلامى والتراث الانسانى القديم والمعاصر.

بعض الاعمال التى خلفها علماء المسلمين تصلح نواة للفلسفة الاسلامية المعاصرة وقاعدة تؤسس عليها العلوم الاجتماعية الاسلامية الا انه يمكننا القول بقلة ومحدودية مجهودات المفكرين المسلمين وانتاجهم المنشور فى مجالات تحليل الظاهرة الاجتماعية وخصوصاً تلك المجهودات المرتبطة بمصالح ومشاكل المسلمين المستضعفين. فاذا اخذنا مثلاً ما ينشر فى المجلات الاسلامية فاننا لا نكاد نستطيع تمييز تاريخ ومكان وهموم جماهير البلد التى اصدرتها ولا الزمن الذى صدرت فيه.

س: تحدثت عن البديل الاسلامى.. نرجو ان توضح لنا مبادئه العامة؟.

● راشد :

إذا صح لنا القول بأنه لا تجديد مع الاعتداء على مبادىء الشريعة فانه يصح ايضاً وبنفس الدرجة القول بإستحالة التجديد بمعزل عن حالة الاحداث الحقيقية المعاصرة، ان ما نحتاجه فعلا هو اصولية واقعية.. او ان شئت سمها «واقعية مؤصلة» كطريق وحيد للخلاص والمحافظة على العقل المسلم والدعوة الاسلامية من إنحرافات الشيخوخة والانحلال.

س : كيف ترى العلاقة بين مدرسة محمد عبده ومدرسة سيد قطب . . بعبارة اخرى ما هو الفرق بينهما؟ . .

● راشد :

لعب الشيخ محمد عبده دوراً عظيماً حين استطاع التأثير على العلاقة بين العقل الاسلامى والتاريخ وحاول اعادة ربط القرآن بالحياة بعد فراق دام زمناً طويلاً فى عصور الانحطاط الاسلامى . . وهو لهذا السبب وبغض النظر عن اى شىء آخر يعتبر مجدداً عظيماً .

بدأ محمد عبده تعليم طلابه شئون حياتهم على ضوء تعاليم القرآن وفى نفس الوقت توصل الى فهم القرآن وتفسيره على ضوء طرق الحياة الحديثة التى عرفها وبهذه الطريقة كان فعلاً عالماً مجدداً تقرأ فى تفسيره انعكاساً واضحاً لعصره واعتبر ذلك اسهاماً فى تحديث علوم القرآن كذلك كتاب «فى ظلال القرآن» لسيد قطب لا نجده شجرة وحيدة فى وسط الصحراء ولا هو عمل غير مسبوق ولكنه ايضاً كان امتداداً لمدرسة مجلة المنار التى اصدرها محمد عبده ورشيد رضا .

فى الحقيقة نجد صعوبة فى تبين اى اختلاف يتصل بالبيئة فى تفاسير العلماء القدامى كابن كثير، والقرطبى ، والزمخشرى وغيرهم ولكن الحال مختلف مع الظلال والمنار حيث لا يمكن لأحدنا ان يقرأ تفسيراً لآية واحدة دون ان يجد فيه فكرة او انطباعاً عن المفسر وعصره .

حمل سيد قطب ثورة مدرسة المنار الى ذرى عالية ضد مناهج التفسير التقليدية فقد حجبت تلك المناهج قارىء القرآن عن واقعه عبر شحنه بسيل من اللغويات والاساطير والفلسفة ، وعلم الكلام وعبر الخلافات الفقهية والجدليات .

س : عايشت الحركة الاسلامية فى مصر ثلاث شخصيات قائدة . . محمد عبده ، سيد قطب ، والامام حسن البنا ، كيف تقارن بينهم؟ . .

● راشد :

يمثل حسن البنا مدرسة فى التربية والتنظيم اكثر منه تمثيلاً لمدرسة فى الفكر والتنظير فقد كان هو الوعاء الذى ذابت وامتزجت فيه عدة مدارس منها مدارس المنار والتراث التربوى الصوفى والاحزاب الثورية مع تطلعاته الامة للرد على التحدى الغربى لاسرائيل . . وتطلعات امة ما زالت تحن الى مؤسسة الخلافة .

كان حسن البنا عبقرياً فى التنظيم العلمى اكثر منه فى الجانب النظرى . أما سيد قطب فقد صرف جهداً كبيراً فى تحديث الصرح النظرى الذى بنته مدرسة المنار على ضوء التطورات الجديدة فى العالمين الاسلامى والغربى والعلاقات بينهما ، واصبح سيد قطب رابطة لا تنفصل عن سابقتها التى انشأتها مدرسة المنار .

لكنه من الخطأ اعتبار ان المثال العملى للبنا والنظرى لصاحب المنار وصاحب الظلال هى منتهى الكمال فى طرح النموذج الاسلامى .

لا يبدو الآن ان حركة الصحوة الاسلامية قد تجاوزت مدارس المنار والظلال والبنا كثيراً رغم وجود جهود فى اتجاه تأسيس علوم اجتماعية اسلامية وهى جهود واعدة اذا اعتبرنا توجهها

العام كمحاولة جادة على طريق التجديد وهى تستحق كل تشجيع رغم انها لم تؤت أكلها بعد.

ايضاً هنالك جهود عملية فى حقل النضال السياسى من اجل الاصلاح والتغيير الاجتماعى سلمياً كان او عنيفاً نجحت هذه الجهود العملية فى نقل القضية الاسلامية الى ساحة الجهاد اليومى فى حياة المسلمين ويعتبر الامام الخمينى ود. حسن الترابى رواد هذه المدرسة العملية، وهى تمثل نوعاً من التجديد.

مع محمد عبده وسيد قطب عاد القرآن كما اراده الله نوراً يهتدى به قارئه لما ينبغى فعله وما ينبغى تركه فى حياته الطبيعية وتجاه الناس والمجتمع وانه لضرورى جداً اذا كان للقرآن ان يكون النور الهادى للأفضل الا يتوقف عن اصدار تفاسير جديدة فى كل عصر وكل بيئة.

والفرق بين الرجلين هو اختلاف درجة لا اختلاف نوع، والتراوح بينهما كان فى درجة تحرر كل منهما من سيطرة المثال الغربى. ففى الفترة بين عصريهما قامت حربان عالميتان دمرتا ثقة الغرب فى آلهة التقدم العلمى والتنظيم تدميراً كاملاً، ولهذا كان طبيعياً ان ينظر سيد قطب فى المجتمع المسلم متحرراً تماماً من اى درجة من درجات الافتتان بالغرب، ولذلك لا يجد حاجة لتبرير تعاليم الاسلام او الدفاع عنها، فقد اعتاد سيد قطب ان يرى المجتمع الاسلامى من موقع قوة وتفوق.

كان الرجلان زعيمين سياسين عظيمين حاولا قيادة أمة مستضعفة على ضوء توجيهات القرآن عازمين على تقدم الامة ومحو عار التخلف عنها. على الرغم من ذلك سيطرت على اسلوب محمد عبده مهنة التعليم والفقه وطغت فى عصره روح التيار التبريرى الدفاعى، بينما سادت زمن سيد قطب لغة الكفاح السياسى والايديولوجيات وطغت عليه روح التحدى.

هؤلاء الرواد يتحركون فى اتجاه تفاعل مستنير بين القرآن والعصر وتعترض سبيلهم آراء مبهمة وغير مجربة ولعل نظريات سيد قطب كان ينبغى ان تكون عنصر اثراء لهذا التفاعل الذى مازال يعوقه التناقض بين الفكر والعمل مما قد يوسع الشقة بين المدارس الاسلامية القديمة والحديثة وبين الدعاة الاسلاميين الذين يتزايد توجههم لمصادمة مشاكل وهموم الجماهير المسلمة فى كسب الرزق ومواجهة الاستغلال والسيطرة الاستعمارية.

ولهذا تتوجب دعوة هذه الجماهير المسلمة للاسلام من خلال خطاب يستوعب تلك الهموم والمشاكل، وهى معركة يومية تحتاج فكراً اسلامياً يناقش ويطور حلولاً اسلامية لمشاكل جمهور المسلمين، حلولاً نابعة من رؤية اسلامية اصولية تتفاعل مع الواقع ولا تنفصل عنه. . بينما تسلم بمفهوم اولوية تعاليم السماء على حقائق الواقع وتسلم بسلطان تلك التعاليم وحاكميتها على الواقع لأن عمق الاديان كلها فى التسليم بعلوية كلمة الله وحاكميتها.

س: تنصرف جهود اسلامية كثيرة الآن الى اعادة بناء الامة. . هذه الجهود واقعة تحت تأثير الواقع الوطنى. . كيف ترى المصالحة بين العمل الاسلامى فى اطار وطنى - الذى هو واقع اليوم - وبين البديل الاسلامى العالمى؟. .

● راشد :

إحدى نقاط ضعف العمل الاسلامى تكمن فى مصادمته لمشاريع ذات طبيعة شمولية وعالمية ويخطط غالباً ما تكون اكثر من ردود فعل ذات طبيعة اقليمية محدودة، يحدث هذا رغم معارضة الروح الاسلامية العالمية لهذه التوجهات الاقليمية المنعزلة، وهى بلا شك من نتائج التأثير المباشر للفكر العلمانى الغربى بل هى احدى اعظم نجاحاته وانجازاته، وهو تأثير ليس محصوراً فى الصفوة المستغربة ولكنه ذهب وراء ذلك ليؤثر على الرأى العام بل وصل الى عضوية الحركة الاسلامية نفسها.

هؤلاء الاسلاميون غمروا تماماً فى مشاكل بلادهم وهم بهذه الطريقة يتصرفون وكأن الدولة الاسلامية المنظورة ليست اكثر من بديل للدولة الوطنية. لكن الامر الآن اصبح اكثر وضوحاً بفضل سيطرة القوى الكبرى المكشوفة على العالم وخصوصاً بعد نجاح الثورة الاسلامية فى ايران. ان مشاريع إنشاء دولة اسلامية ومجتمع اسلامى اكبر من ان تحويها دولة واحدة او تحققها وتحافظ عليها مجموعة واحدة من الناس او عنصر واحد من الامة الاسلامية.

وهذا يوضح ان جهود الدعاة الاسلاميين التى عزمت على تطبيق المشروع الاسلامى فى اطار دولتهم هى جهود كتب عليها الضياع ما لم تتجاوز رؤى مفكريهم ومخططيهم حدود دولتهم وامكاناتهم المحلية، ولعل تدخل امريكا والقوى الدولية لعزل المشروع الاسلامى فى السودان عندما شارف التحقيق مثال واضح آخر على عدم قدرة دولة واحدة على حمل المشروع الاسلامى من اجل خلق دولة اسلامية.

مثال آخر تقدمه لنا ايران التى نجحت فى اقامة دولة اسلامية رغم المحاولات المتكررة لتحطيم المشروع الاسلامى فيها ووضع نهاية سريعة له ولكنها اليوم اجبرت على التنازل والحلول الوسطى مع الاعداء المحليين للمشروع الاسلامى نفسه ـ ليبيا وسوريا ـ رغم التعبئة العظيمة التى حققتها.

ومثال ايران ايضاً يثبت وجهة نظرنا فى ان الاطار الوطنى غير قادر على انجاز مشروع اسلامى ناجح.

اى تخطيط ناجح لتأسيس المشروع الاسلامى يجب ان ينطلق ـ ان لم يكن من قاعدة عالمية ـ على الأقل من قاعدة اقليمية واسعة كاقليم المغرب واقليم الخليج ومنطقة جنوب شرق آسيا وهكذا..

ومن ثم لا نجد بديلاً لدراسة طويلة صبورة متأنية للواقع الاسلامى والخروج منها بخطط جيدة تتخطى الحواجز الوطنية تدريجياً بهدف تأسيس اطر للعمل المشترك والتنسيق بين المجموعات الوطنية الاسلامية فى كل المستويات الاقيلمية والقارية والعالمية.

س : تشكل القضية الفلسطينية الآن محور صراع عالمى خطير. ماذا تمثل للحركة الاسلامية؟

● راشد :

أصبح واضحاً لنا الآن ان الصراع الدولى يتحرك فى اتجاه استقطاب اكبر حول قضية فلسطين حتى ان مناطق الصراع الأخرى اصبحت تبدو صغيرة جداً بالمقارنة مع منطقة الصراع الحقيقى بين المسجد الحرام بمكة والمسجد الاقصى فى القدس. . ففى هذه المنطقة ستجرى معارك مصيرية تشكل مصير العالم والعلاقات الدولية والحضارة الانسانية.

رغم ان هذه المنطقة تشكل اعظم قداسة فى وعى الاسلاميين ولكنه يصعب عليهم فى احيان كثيرة ان يستوعبوا ان المعركة حول فلسطين هى قلب المشكلة الدولية بينها - وفى نفس الوقت - تتحكم هذه القضية وتقرر أشكال الصراع الأصغر الاخرى، كذلك فان النضال من اجل «عالمية اسلامية» قد انحسر الى مستوى اقليمى محدود. . ويعزى هذا اساساً لدور العلمانية الغربية ووكلائها الذين نجحوا فى غرس مفاهيم الاقليمية فى المنطقة.

ولهذا فشلت الحركة الاسلامية فى الحفاظ على ذلك الحس التاريخى بالانتماء الى الأمة الواحدة، وهو شعور قوى وثابت لدرجة انه قاوم الضياع حتى فى عصور الظلام والانهيار.

اعتقد انه ينبغى ان يكون هدفاً استراتيجياً للحركة الاسلامية المعاصرة العمل على اعادة تثبيت ذلك الشعور القوى لانتماء الامة الاسلامية، والعمل على رفض اى مفهوم آخر للأمة. كذلك على الحركة الاسلامية ان تنتبه لحقيقة الصراع الدولى الذى يتمركز الآن حول المسجد الاقصى محوراً لعملها من منطلق الفهم القائل من يسيطر على المسجد الاقصى يهدد بالسيطرة على المسجد الحرام أيضاً.

س : ما هو تقييمك للتجربة الاسلامية فى السودان والمراحل التى مرت بها؟ . .

● راشد :

ربما تكون تجربة الجهاد الاسلامى فى السودان اغنى التجارب المعاصرة للعمل الاسلامى باعتبار الدروس والمعانى التى يمكن استخلاصها منها، فهى مثال جيد للتفاعل المعاصر بين القرآن والوقائع الزمنية، بين الثابت المتحول، بين السماء والأرض، فهذه التجربة الرائدة بحق اوضحت مرونة العقل الاسلامى وقدرته على التفاعل مع الواقع المتحرك والمتغير كما أبرزت قدرة العقل الاسلامى على استنباط الحلول المناسبة لمتغيرات الاحوال دونما تسليم لألهة الحلول الاسلامية الجاهزة فى مسائل التغيير الاجتماعى. رغم اقتراب التجربة المصرية زماناً ومكاناً فقد ناضلت التجربة السودانية من اجل الحفاظ على شخصيتها المتميزة وقاومت كل محاولات تذويبها فى المثال المصرى للتغيير الاجتماعى.

كان هذا فى الحقيقة هو السبب وراء الحساسية المفرطة التى يستشعرها اخوان مصر تجاه التجربة السودانية وقادتها وهو السبب ايضاً فى النجاح الباهر الذى حققته التجربة السودانية. فقد كان نجاحاً لا يمكن مضاهاته باى تجربة للعمل الاسلامى فى الساحة العربية. فالسودان الآن يستعد لدولة اسلامية عملياً وفكرياً. ولا شك ان هذه التجربة تضيف الى الرصيد الاصولى للحركة الاسلامية فتتمكن من تجاوز مصاعب مراجعة الجاهز والمثال الاخوانى المصرى والباكستانى والايرانى.

تجربة السودان تقوم على نظرية اصولية تأخذ المنهج السلفى ولا تكبل نفسها بالتراث فهى توجه اصولى، يعيش فى تفاعل كامل مع الواقع السودانى من جانب ويستفيد تماماً من ثمار الحضارة المعاصرة من الجانب الآخر. لذلك نجدها تقف قبالة الحركة الاسلامية فى الدول العربية الاخرى التى استمرت فى الاعتماد على تجربة الرواد الاسلاميين الاوائل فى الثلاثينات والاربعينات دون بذل اى جهد وراء تلك التجربة.

نجد الآن فى السودان تجديداً حقيقاً اصيلاً فى عمق العمل السياسى والاجتماعى والتشريعى. وهو تجديد بنى على تفاعل حى بين مراجع الشريعة وواقع اليوم المتغير. وهو تفاعل لا يظلم المرجع الاسلامى الاساسى ولكنه ايضاً لا يستسلم للتراث التفسيرى وفى نفس الوقت لا يقلل من قيمة هموم المسلمين ورغبتهم فى العيش الكريم.

هذا المنهج الاصولى مكن الحركة الاسلامية فى السودان من مسايرة طوارىء الزمن المتغير والدخول فى حملات المطالبة بالديمقراطية وقيادة الشارع فى هباته ومظاهراته حتى وصلت الى المؤسسة العسكرية ومكنها هذا المنهج من الوصول الى مصالحات وتحالفات مارست بها الحكم ودخلت الى مؤسسات الدولة فاكتسبت تجربة حقيقية فى التعامل مع مشاكل الحكم والادارة. انجزت الحركة الاسلامية كل ذلك دونما انتهاك او ابعاد للمرجع الاسلامى الاساسى ولم تعان من أى انشقاق أساسى فى عضويتها خلال هذه التجارب المتنوعة. ولم يكن لها ان تحقق ذلك لولا قاعدتها الايديولوجية المرنة وتكوينها الشورى وانعتاقها من سيطرة مثال الحل الجاهز الذى قدمته التجارب السابقة.

وبعد هذا ما زالت هناك مساحة لمراجعة وتسجيل الاخطاء التى وقعت فيها هذه التجربة السودانية الرائدة.

س : تعتبر الثورة الاسلامية فى ايران تجربة فريدة ماهى الاضافات التى اسهمت بها للعمل الاسلامى؟..

● راشد :

تمثل التجربة الاسلامية فى ايران تطوراً نوعياً فى العمل الاسلامى المعاصر رغم انها تقع ضمن اطار الوعى الاسلامى المعاصر بمقدرات الاسلام وحقيقة الامة الاسلامية التى لم تستكشف بعد، فهى استمرار للتوجهات العملية والفكرية القائمة الآن ويتجلى ذلك فى تبنيها لاثنين من مبادىء الاسلام هما النهج الشمولى والمنهج السلفى بالرجوع لفترة صدر الاسلام.

وثورة ايران تتميز بموقفها تجاه المؤسسات الاجتماعية القائمة والتى تعتبرها مؤسسات جاهلية تنتمى اصولياً لفكر المستعمر واهدافه.

تتميز الثورة ايضاً بطريقتها فى تدريب اتباعها وهو تعليم يركز على الجانب الربانى والروح الجماعية ويركز كذلك على غرس روح التضحية وبذل الجهد بروح جهاد واستشهاد وبغض شديد للمستعمر الذى اذل الامة الاسلامية.

كل هذه العوامل ورثتها ايران من السلف وحركات الاصلاح التى امتدت لأكثر من قرن

ونصف من الزمان فى منطقة الخليج العربى ومصر والهند وأفغانستان وايران نفسها.

اما اضافات الثورة فبعضها تطوير لما قدمته تلك الحركات فأذكته الثورة فى ايران لدرجة جعلته يبدو جديداً وخير مثال لذلك هو البعد الاجتماعى السياسى كما نراه فى الحرب الشاملة ضد القوى الاستعمارية والاستنفار الكامل للجماهير لانهاء الأثر الاستعمارى فى المنطقة وما وراءها. وبالمقارنة مع هذا كان موقف الحركات الاسلامية فى كثير من القطاعات اقرب للتصالح مع القوى الاستعمارية. ويجدر بنا هنا ان نذكر ان الحلول التصالحية لا تفضى الى خلق الثورات ولكنها على العكس تزيلها وتهزمها.

البيان التأسيسى لحركة الاتجاه الاسلامى

تـوطئـة:

يشهـد العـالم الاسلامى ـ وبلادنا جزء منه ـ أبشع أنواع الاستلاب والغربة عن ذاته ومصالحه، فمنذ التاريخ الوسيط وأسباب الانحطاط تفعل فعلها فى كيان أمتنا وتدفع بها الى التخلى عن مهمة الريادة والاشعاع، طوراً لفائدة غرب مستعمر وآخر لصالح أقليات داخلية متحكمة انفصلت عن أصولها وصادمت مطامح شعوبها.

وكان المستهدف الأول طوال هذه الأطوار كلها هو الاسلام، محور شخصيتنا الحضارية وعصب ضميرنا الجمعى. فقد عزل بصورة تدريجية بطيئة وأحياناً بشكل جرىء سافر عن مواقع التوجيه والتسيير الفعلى لواقعنا، فهو رغم بروزه عاملاً محدداً فى صنع الجوانب المشرقة من حضارتنا وفى جهاد بلادنا لطرد المستعمر، قد بات اليوم ـ أو كاد ـ مجرد رمز تحدق به المخاطر ثقافياً وأخلاقياً وسياسياً نتيجة ما تعرض له فى المرحلة المعاصرة والأخيرة خاصة من إهمال واعتداء على قيمه وعلى مؤسساته ورجاله.

وإضافة الى هذه المعطيات التى تشترك فيها بلادنا مع سائر بلاد العالم الاسلامى عرفت تونس فى أواخر الخمسينات وطيلة عقدى الستينات والسبعينات ـ رغم حصولها على وثيقة الاستقـلال ـ أوضاعاً خصوصية اتسمت بالتأزم واحتداد الصراع الاجتماعى وتعطل سبل النمـو الشامل. وقد تكرس هذا الوضع نتيجة أحادية الاتجاه السياسى المتحكم «الحزب الدستورى» وتدرجه المتصاعد نحو الهيمنة على السلطة والمؤسسات والمنظمات الجماهيرية من ناحية، ونتيجة ارتجالية الاختيارات الاقتصادية والاجتماعية وتقلبها وارتباطها بمصالح دولية تتعارض مع مصالح شعبنا الوطنية من ناحية اخرى.

فى هذا المناخ ظهر الاتجاه الاسلامى بتونس فى بداية السبعينات بعد ان توفرت له كل اسبـاب الوجود، وتأكدت ضرورته. وقد ساهم هذا الاتجاه من مواقعه فى إعادة الاعتبار للاسلام فكراً وثقافة وسلوكاً، وإعادة الاعتبار للمسجد، كما ساهم فى تنشيط الحياة الثقافية والسياسية فأدخل عليها لاول مرة نفساً جديداً فى اتجاه تأصيل الهوية والوعى بالمصلحة وتأكيد التعدد بتجسيمه واقعياً.

وقـد عبر الاتجاه الاسلامى من خلال نشاطه ومواقفه العديدة عن التحامه بذات امته وتجسيده آمـال شعبـه وتـطلعـاتـه فالتفت حوله قطاعات عريضة من المحرومين والشباب والمثقفين. وكان نموه السريع فى الداخل والخارج. ورغم سعيه الرصين المتعقل لتلمس انجع سبل التطور والتغيير فقد تعرض هذا الاتجاه الى سلسلة من التهم الباطلة والحملات الدعائية المغرضة نظمتها ضده السلطة الحاكمة ووسائل الاعلام الرسمية وشبه الرسمية بلغت هذه

الحملات حد الاعتداء تعسفاً على وسائل اعلامه قصد منعه من ابلاغ صوته وتطورت بعد ذلـك الى اشكال اشد قهراً فقدمت عناصره الى المحاكمات وتكثفت ضد افراده التتبعات والتحقيقات وفتحت امام شبابه السجون والمعتقلات حيث الضرب والتعذيب والاهانة.

إن استمرار أسباب تخلف الوضع السياسى والاقتصادى والثقافى فى مجتمعنا يرسخ لدى الاسلاميين شعورهم المشروع بمسئوليتهم الربانية والوطنية والانسانية فى ضرورة مواصلة مساعيهم وتطويرها من اجل تحرر البلاد الفعلى وتقدمها على أسس الاسلام العادلة وفى ظل نهجه القويم.

وقد يذهب البعض الى ان هذا العمل هو من باب اقحام الدين فى دنيا السياسة وانه مدخل الى احتكار الصفة الاسلامية ونفيها بالتالى عن الآخرين، ان هذا الفهم فضلاً عن كونـه يعبر عن تصور كنسى دخيل على ثقافتنا الاصلية يكرس استمرارية «حديثة» لواقع الضياع التاريخى الذى عاشته امتنا.

على ان «حركة الاتجاه الاسلامى» لا تقدم نفسها ناطقاً رسمياً باسم الاسلام فى تونس ولا تطمـح يومـاً فى ان ينسب هذا اللقب إليها. فهى مع اقرارها حق جميع التونسيين فى التعامل الصادق المسؤول مع الدين، ترى من حقها تبى تصور للاسلام يكون من الشمول بحيث يشكل الارضية والاختيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تحدد هوية هذه الحركة وتضبط توجهاتها الاستراتيجية ومواقفها الظرفية. وبهذا المعنى تكون «حركة الاتجاه الاسلامى» واضحة الحدود محددة المسئولية غير ملزمة بكل صنوف التحركات والمواقف التى قد تبرز هنا وهناك - الا ما يقع تبنيه منها بصورة رسمية - مهما اضفى اصحاب هذه التحركات على انفسهم من براقع التدين ورفعوا رايات الاسلام.

وتأكيداً لهذا الوضع من ناحية، وتكافؤا مع جسامة المهمة ومقتضيات المرحلة من ناحية اخـرى، فانـه يتعـين على الاسلاميين دخول طور جديد من العمل والتنظيم يسمح لهم بتجميع الطاقات وتوعيتها وتوظيفها فى خدمة قضايا شعبنا وامتنا. ولابد لهذا العمل ان يكون ضمن حركة مبلورة الاهداف مضبوطة الوسائل ذات هياكل واضحة وقيادات ممثلة.

ان «حركة الاتجاه الاسلامى» التى حالت بينها وبين جماهيرها المسلمة العريضة ظروف القهر والارهاب لتأمل ان تكون مساهمة جماهيرها اعمق واشمل فى مستقبل الايام.

المهام :

تعمل هذه الحركة على تحقيق المهام التالية:

أ/ بعث الشخصية الاسـلامية لتـونس حتى تستعيد مهمتهـا كقـاعـدة كبرى للحضـارة الاسلامية بأفريقيا ووضع حد لحالة التبعية والاغتراب والضلال.

ب/ تجديد الفكـر الاسـلامى على ضوء أصول الاسلام الثابة ومقتضيات الحياة المتطورة وتنقيته من رواسب عصور الانحطاط وآثار التغريب.

ج/ أن تستعيد الجماهير حقها المشروع فى تقرير مصيرها بعيداً عن كل وصاية داخلية او هيمنة خارجية.
د/ إعادة بناء الحياة الاقتصادية على أسس انسانية وتوزيع الثروة بالبلاد توزيعاً عادلاً على ضوء المبدأ الاسلامى «الرجل وبلاؤه، الرجل وحاجته» اى «من حق كل فرد ان يتمتع بثمار جهده فى حدود مصلحة الجماعة وان يحصل على حاجته فى كل الاحوال» حتى تتمكن الجماهير من حقها الشرعى المسلوب فى العيش الكريم بعيدا عن ضروب الاستغلال والدوران فى فلك القوى الاقتصادية الدولية.
هـ/ المساهمة فى بعث الكيان السياسى والحضارى للاسلام على المستوى المحلى والمغربى والعربى والعالمى حتى يتم انقاذ شعوبنا والبشرية جمعاء مما تردت فيه من ضياع نفسى وحيف اجتماعى وتسلط دولى.

الوسائل :

لتحقيق هذه المهام تعتمد الحركة الوسائل التالية:
- إعادة الحياة الى المسجد كمركز للتعبد والتعبئة الجماهيرية الشاملة أسوة بالمسجد فى العهد النبوى وامتداداً لما كان يقوم به الجامع الاعظم (جامع الزيتونة) من صيانة للشخصية الاسلامية ودعماً لمكانة بلادنا كمركز عالمى للاشعاع الحضارى.
- تنشيط الحركة الفكرية والثقافية من ذلك: إقامة الندوات، تشجيع حركة التأليف والنشر، تعميق المفاهيم وبلورة القيم الاسلامية فى مجالات الأدب والثقافة عامة وتشجيع البحث العلمى ودعم الاعلام الملتزم حتى يكون بديلاً عن اعلام الميوعة والنفاق.
- دعم التعريب فى مجال التعليم والادارة مع التفتح على اللغات.
- رفض العنف كأداة للتغيير، وتركيز الصراع على اسس شورية تكون هى اسلوب الحسم فى مجالات الفكر والثقافة والسياسة.
- رفض مبدأ الانفراد بالسلطة «الاحادية» لما يتضمنه من اعدام لارادة الانسان وتعطيل لطاقات الشعب ودفع البلاد فى طريق العنف، وفى المقابل اقرار حق كل القوى الشعبية فى ممارسة حرية التعبير والتجمع وسائر الحقوق الشرعية والتعاون فى ذلك مع كل القوى الوطنية..
- بلورة مفاهيم الاسلام الاجتماعية حتى يتم تحديد مظاهر الحيف واسبابه والوصول الى بلورة الحلول البديلة.
- الانحياز الى صفوف المتستضعفين من العمال والفلاحين وسائر المحرومين فى صراعهم مع المستكبرين والمترفين..
- دعم العمل الثقافى بما يضمن استقلاله وقدرته على تحقيق التحرر الوطنى بجميع ابعاده الاجتماعية والسياسية والثقافية.

- اعتماد التصور الشمولى للاسلام، والتزام العمل السياسى بعيداً عن اللائكية (العلمانية) والانتهازية.
- تحرير الضمير المسلم من الانهزام الحضارى ازاء الغرب
- بلورة وتجسيم الصورة المعاصرة لنظام الحكم الاسلامى بما يضمن طرح القضايا الوطنية فى إطارها التاريخى والعقائدى والموضوعى مغربياً وعربياً واسلامياً وضمن عالم المستضعفين عامة.
- توثيق علاقات الاخوة والتعاون مع المسلمين كافة: فى تونس وعلى صعيد المغرب والعالم الاسلامى كله.
- دعم ومناصرة حركات التحرر فى العالم.

فهـــرس

تقديم

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث : ملاحق

حوار مع مجلة المجتمع الكويتية ١٩٨١ .
حوار مع مجلة ARABIA .
البيان التأسيسي لحركة الاتجاه الاسلامي .

رقم الايداع : ٤٦٥٩ / ٨٩



